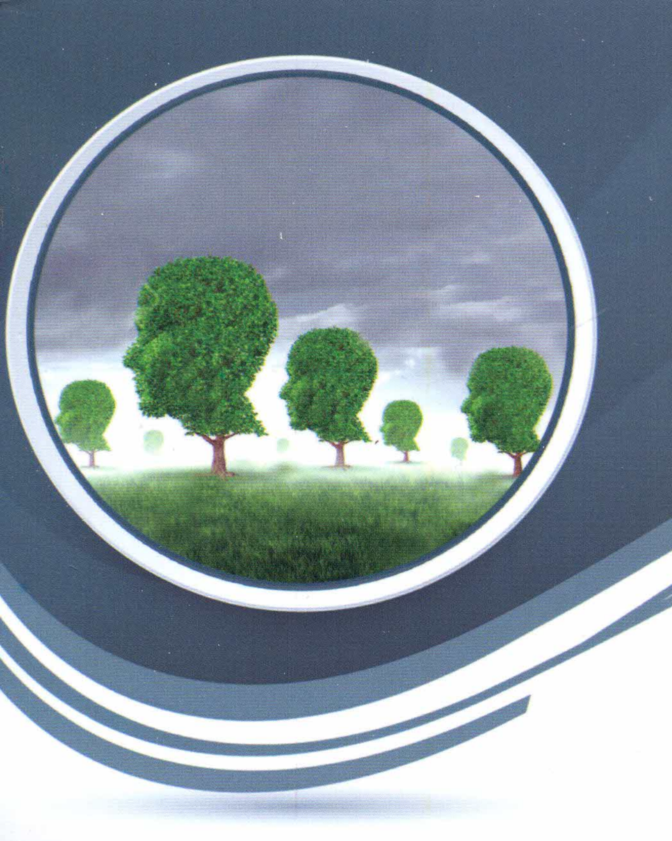


مأذن من بشر

أعلام معاصرون

أ.د خالد فهمي

أبو الحسن الجمال

دار البشير للثقافة والعلوم

من بشر
مآذن
أعلام معاصرون

هذا الكتاب ..

- قراءة موجزة لعدد من الأعلام الذين جاهدوا علميًا، وبرزوا في مجالات وحقول معرفية متقاربة، يكاد يجمعهم دائرتا العلوم الشرعية بما هي علوم غايات، والعلوم العربية بما هي علوم الآلات.
- نمط غير جديد تمامًا في تاريخ الكتابة الفكرية عن أعلامنا الذين شكلوا التكوين العقلي للمسلم في مراحل تاريخية متعاقبة.
- طرح لما يمكن تسميته بالتجلي المادي للنشاط الفكري لأمثال هؤلاء الأعلام بما هو سببٌ في استبقاء النموذج المعرفي الإسلامي في العصر الراهن الذي مورست فيه صنوف من التشويه على العقل المسلم المعاصر.

إنه كتاب في مفاتيح منجَز هؤلاء الرجال الأعلام، بما هم مآذن تدعو إلى الخير، وتفتح العقول والقلوب عليه.

تصميم الغلاف أحمد الجوهري ٠١٠٠٥٨٣٣٨٥٢


9789772785186



دار البشير للثقافة
01012355714 - 01152806533
darelbasheerealla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com

مــآذن مــن بشــر

أعلام معاصرون

أ.د / خالد فهمي
أبو الحسن الجمال

دار البشير
للثقافة والعلوم

اسم الكتاب: مآذن من بشر
التأليف: خالد فهمى / أبو الحسن الجمال
عدد الصفحات: 224 صفحة
عدد الملازم: 14 ملزمة
مقاس الكتاب: 17 × 24 سم
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
الإيداع القانوني: 2015/26966
الترقيم الدولي: I.S.B.N.978/977/278/518/6

1437 هـ
2016 م

التوزيع والنشر
دار البشير للثقافة والعلوم
مصر
darelbasheer@hotmail.com
darelbasheeralla@gmail.com
ت: 01152806533 - 01012355714

الفهرس

المقدمة

"اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجات ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت (من حديث البراء بن عازب، كتاب الدعوات الكبير، للبيهقي، تحقيق بدر عبد الله البدر، مركز المخطوطات والتراث والوثائق الكويت (10 سنة 1989م) وبعد،

فهذا كتاب عزيز علينا، طال شوقنا لصدوره؛ لأسباب كثيرة أخلاقية وعلمية معًا، وهو ابن العقل والقلب جميعًا.

لقد كنًّا ومازلنا نرى أننا صنيعة نفر كريم من أجيال متنوعة من المشايخ والأساتيذ في حقول مختلفة، اجتمعوا فأسهموا في تكويننا النفسي والعقلي، وتراكم مع الزمان شعورٌ عارم بهذا الأثر الذي نقشوه في هذا التكوين، وهو بعض ما أوجب أن نكتب عن كثير من كتبنا بدافع الوفاء لجميلهم، وتقديرًا لتأثيرهم.

صحيح أن هذا الكتاب عن عدد من الأعلام الذين جاهدوا علميًّا، وبرزوا في مجالات وحقول معرفية متقاربة، يكاد يجمعهم دائرتا العلوم الشرعية بما هي علوم غايات، والعلوم العربية بما هي علوم الآلات، ولكنه ليس كتابًا في تراجمهم بالمعنى الذي استقر في تاريخ الكتابة التاريخية في الحضارة العربية بتأثير الحضارة وعجز الإنسان العامل المؤمن، وإن اعتنى في بعض مفاصل الحديث عن كل علم ببعض المعلومات التي تقع في الصميم من مفهوم الترجمة للأعلام. وهو نمط غير جديد تمامًا في تاريخ الكتابة الفكرية عن أعلامنا الذين شكلوا التكوين العقلي للمسلم في مراحل تاريخية متعاقبة. لقد كان التجلي المادي للنشاط الفكري لأمثال هؤلاء الأعلام سببًا في استبقاء النموذج المعرفي الإسلامي في العصر الراهن الذي مورست فيه صنوف من التشويه على العقل المسلم المعاصر.

إنه كتاب في مفاتيح منجَزِ هؤلاء الرجال الأعلام، بما هم مآذن تدعو إلى الخير، وتفتح العقول والقلوب عليه.

والكتاب حلقة من حلقات الوعي بالمصادر التأسيسية التي أنتجت هذا النوع من الكتابة الفكرية عن الأعلام لهؤلاء المؤثرين في مسيرة العقل العربي المسلم المعاصر. في الجملة إنه يرىٰ في نفسه تطبيقًا لما جاء في المصادر التأسيسية التي اعتنت بالإنسان النافع، وهي:

أولاً: الكتاب العزيز: الذي ذكر عددًا من الأعلام رجالًا ونساءً، معينين ومبهمين كان لهم تأثير ظاهر في المراحل التاريخية التي ظهروا فيها، وكان مراده من هذا الذكر تحويلهم إلىٰ رموز ومناهج للاقتداء بها في رحلة تأسيس الإيمان وبناء الإنسان وإقامة الحضارة معًا.

ثانيًا: السنة النبوية الشريفة: والذي لم يكن غريبًا أن تحتفي مدوناتُها العظيمة بصناعة أبواب داخلية عن مناقب الصحابة وفضائلهم، وهي الحضانة التي أثمرت علىٰ المستويات الأخلاقية والعلمية معًا، فكان ما كان من تقدير سهمة السابقين علىٰ درب الإيمان والدعاء لهم، ثم كان ما كان من أمر حشو العناية بالكتابة التاريخية عن الأعلام والرجال في ميادين الحياة الإيمانية والعلمية والحضارية جميعًا.

ثالثًا: معاجم الصحابة والشيوخ والرجال:

إن الحضارة العربية بتأثير التصور الذي رسخه الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة؛ أثمرت مكتبة جبارة ترعىٰ بيان منازل لرجال من الصحابة والتابعين، والأئمة الأعلام من العلماء، والزهاد، والشعراء، والكتاب، وغيرهم؛ مستهدفة تحقيق المقاصد النبيلة في الأمة من انتشار الخير، وتوريث القيم، والمبادئ.

لقد آمنًا من طول ما كتبنا؛ وفاءً لكثير من عرف من العلماء المعاصرين بعدد من الحقائق، يمكن إجمالها في ما يلي:

أولًا: يمثل الارتباط بالكتاب العزيز والسنة المشرفة فهمًا ووعيًا هو أساس كل تكوين عقلي ونفسي معًا.

ثانيًا: كان لارتباط هؤلاء الأعلام بهموم الأمة، وقضاياها المصيرية أثر بالغ في ترشيد مسيرتهم علىٰ امتداد الطريق.

ثالثًا: بدا واضحًا أن ارتباط العلم، أيًا ما كان مجاله، بالحركة أو الدعوة بالمفهوم الواسع الشامل حاسمًا في منجزهم.

رابعًا: كان الإطار الأخلاقي المؤسسي على التصور القرآني القائم على عمادَي الربانية والإنسانية فاعلًا في مسيرة منجزهم الدعوي والعالمي جميعًا.

إننا مدينون للكثيرين الذين شجعوا إصدار هذا الكتاب، وأعانوا عليه، فلهم منا خالص الشكر والتقدير.

والله تعالى نسأل أن يقبله، ويجزي بالخير عليه،

أ.د/ خالد فهمي

أبو الحسن الجمّال

العطف على الشقائق
قراءة في وعي (علي عبد الحليم محمود)
بجهود المرأة المسلمة في الدعوة إلى الله

يظل فضل الحركة الإسلامية في مصر في العصر الحديث تعيينًا- غير منكور لأسباب كثيرة جدًّا، ولاسيما في ميدان المسارات الجديدة التي شقتها في حياة العلم والحركة معًا.

لقد افتتحت ميادين، وعبدت طرقًا، ومهدت سبلًا، ودفعت شبهًا، وأسقطت تهمًا، وأحيت مواتًا، وفجرت ينابيع طرحها الجمود والتقليد، وذكرت بقضايا طالما لفها النسيان، ونقضت أبنية شيدها الاستشراق والاستعمار، وهدمت أساطير، وفضحت أكاذيب، وعرَّت أعلامًا، وأخرست أبواقًا طالما نعقت في وجه الفكر الإسلامي.

لكن الفضل الأظهر في سياق الحديث عن الأثر الإيجابي للحركة الإسلامية المعاصرة يتجلىٰ في من كونتهم من رجالات العلم والفكر والدعوة.

لقد كان بناء الإنسان وتكوينه هو الكلمة السحرية في البرامج التي أحيتها هذه الحركة الميمونة في الحياة المعاصر، علىٰ مستويات التنظير والتربية والحركة معًا.

لقد كان الإيمان بمركزية إحياء الإنسان، وبنائه وتكوينه في ما أحيته الحركة الإسلامية في العصر الحديث، وكان من نتائج ذلك الإيمان بمركزية إحياء الإنسان وبنائه وتكوينه- ظهورُ مفكرين وفقهاء، ودعاة من نمط جديد، كان لهم الأثر الطيب في استعادة فهم الإسلام علىٰ المنهج النبوي في الحياة المعاصرة.

والدكتور "علي عبد الحليم محمود" واحد من هؤلاء الأعلام الذين أنجبتهم الحركة الإسلامية في مصر في العصر الحديث. وكان للأزهر الشريف الإسهام الأبرز في هذا السياق.

ولد الشيخ سنة 1928م وتوفي في مارس 2014م، ومكث مدة حياته واحدًا ممن أنتجتهم البدايات المبهجة للحركة الإسلامية المعاصرة في مصر، بكل ما تعنيه هذه

البدايات، وبكل من اختلط بهم من الرواد والمؤسسين.

واختط لنفسه طريقًا أخلصه للتربية الإسلامية ووسائلها، ومحاضنها، وركائزها في الإطار الحركي والتكويني لأبناء الحركة الإسلامية، حتىٰ غدا واحدًا من أهم المصادر المعاصرة في هذا المجال بمنجزه الثري الذي خلفه في هذا المجال.

ويبقىٰ صوت الدكتور علي عبد الحليم محمود (1928 – 2014م) فريدًا في ما أنجزه وكتبه، وهو المنجز الذي توزع علىٰ المحاور التالية:

أولًا: التنظير للتربية الإسلامية في إطارها الحركي المعاصر.

ثانيًا: رصد وسائل التربية في الحركة الإسلامية المعاصر، وبيان فارق ما بينها، وأهدافها، ووظائفها.

ثالثًا: تحليل المصادر المركزية للتربية الإسلامية في الإطار الحركي الإسلامي المعاصر.

وهو الأمر الذي يصح معه أن نقرر أن الصمت المضروب حول هذا الرجل لا يستطيع أن يخفي معالم منجزه في خدمة الفكر والحركة والتربية والدعوة الإسلامية المعاصرة علىٰ امتداد نحو من نصف قرن علىٰ الأقل.

الوعي بتمايز النوع: مقال في حدود المنجز

يمثل التنبه إلىٰ تمايز وضع المرأة المسلمة في الحركة الإسلامية المعاصر أمرًا مهمًّا في حاجة إلىٰ فضل فحص وتأمل وتحليل؛ ذلك أن المكانة التي شغلتها المرأة، ومن قبلها الجهد الذي وجهته الحركة الإسلامية المعاصرة إلىٰ العناية بها، وبقضاياها المستقلة يمثل تطورًا نوعيًّا في الاتجاه الصحيح.

ويمثل منجز "علي عبد الحليم محمود" في خدمة قضايا التربية والدعوة المتعلقة بالمرأة المسلمة المعاصرة تطورًا نوعيًّا وعميقًا ومفصَّلًا لحصاد مهم جدًّا لجيل الإصلاحيين في الحياة العربية الإسلامية المعاصرة.

وبدأ استقلال البحث والنظر في قضايا تربية المرأة وثقافتها ووضعها في المجتمع منذ فترة طويلة نسبيًّا من عمر العصر الحديث، وما يهمنا هنا هو انشغال التيار الديني بهذه القضية، علىٰ ثلاث مراحل زمنية هي:

أولًا: مرحلة الريادة والبدء، وهي المرحلة التي ظهرت بفضل مجهودات جمال الدين الأفغاني ت 1897م، ومحمد عبده ت1905م، ومحمد رشيد رضا ت 1935م .

ويعد قاسم أمين أهم صوت تأثرًا بهذا الجيل الرائد، والقراءة الفاحصة لكتابه تحرير المرأة تقود إلىٰ الإقرار بتأثير المصادر الإسلامية التي انحدرت إليه من محمد عبده في منجزه هذا.

ثانيًا: مرحلة الترسيخ والثبات:

وهي المرحلة التي كانت أثرًا للحركة الإسلامية علىٰ أثر تأسس أهم تياراتها في الواقع المصري ثم العربي بعد سنة 1928م، وتمثل كتابات حسن البنا من جانب، والنماذج النسائية التي رباها من أمثال: لبيبة أحمد، ومَن خلفها من أمثال: زينب الغزالي، وأمينة قطب، وحميدة قطب، وفاطمة إبراهيم أهم علامات هذه المرحلة.

ثالثًا: مرحلة التمدد والإنجاز:

وهذه المرحلة هي أهم مراحل خدمة قضايا المرأة المسلمة المعاصر، من جهتين هما:

1- جهة كم ما أنجزه علماء الحركة الإسلامية المعاصر.

2- جهة الكيف والتنوع تعميقًا وتفصيلًا واستقلالًا وتفريعًا للقضايا والموضوعات.

وقد اتضحت مجموعة من معالم هذه المرحلة في المسارات التالية:

أ- الاتجاه التأصيلي لقضاياها المعاصرة من المصادر المركزية التي تمثل المرجعية الإسلامية، ويمثلها كتاب: تحرير المرأة في عصر الرسالة للأستاذ "عبد الحليم أبو شقة".

ب- الاتجاه التنويعي لما علق بقضاياها من ركود و جمود وتقليد أضر بها، ويمثله منجز الشيخ "محمد الغزالي" (رحمه الله)، ولاسيما كتابه المهم: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة.

ج- الاتجاه الفقهي الذي اعتنىٰ بفقه المرأة المسلمة المعاصر، والفتاوىٰ

الخاصة بشئونها، وفي القمة ممن خدمه الدكتور "يوسف القرضاوي" بمجموع ما كتبه عن فقه المرأة المسلمة وفتاواها المعاصرة.

3- الاتجاه الفكري الذي اعتنىٰ بالمشكلات الفكرية التي ثارت بسبب من الانشغال بقضايا المرأة بوجه عام في الحياة الفكرية المعاصر، ومثّلها اتجاهان بارزان هما:

أ- مناقشة الشكل الفكري لقضايا المرأة المسلمة المعاصرة في مواجهة خصوم التيار الإسلامي، ويمثل الدكتور "محمد عمارة" أهم أصوات هذا الطرح.

ب- مناقشة الشكل الفكري لقضايا المرأة المعاصرة في منجز الإسلاميين، ويمثله اثنان من أهم الأصوات هما: الدكتور "راشد الغنوشي" في كتابه عن المرأة والدكتور "محمد سليم العوا" في: الإسلاميون والمرأة.

4- الاتجاه التربوي والدعوي، وهو الذي اعتنىٰ بوضع المرأة المائز تربويًا ودعويًّا، وأهم أصواته جميعًا الدكتور "علي عبد الحليم محمود" رحمه الله تعالىٰ.

وفي هذا السياق يأتي منجز "علي عبد الحليم محمود" ليمثل نقطة فارقة في تاريخ الاتجاهات التي أنتجتها الحركة الإسلامية المعاصرة" في مجال خدمة قضايا المرأة المسلمة في إطارها التربوي والدعوي والحركي.

ومن أهم ما أنجزه الراحل الكريم في هذه الاتجاه:

- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلىٰ الله، دار الوفاء، القاهرة: سنة 1411 = 1991م.

صحيح أنه كتب بعضًا آخر من الكتابات التي اعتنت ببعض المشكلات الخاصة بالفتيات علىٰ ما نرىٰ في كتابه عن مشكلات الشباب والفتيات، لكن يظل ما كتبه عن المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلىٰ الله أهم ملامح منجزه الدعوي والتربوي المتعلق بالمرأة المسلمة المعاصرة.

وأهم ما يميز منجزه في هذا الاتجاه أنه جاء نتيجة وعي بتمايز المرأة، من جهة وضعها في حركة الحياة، ومن جهة تمايز وظائفها في الوجود الإنساني في مرحلته المعاصرة، ومن جهة ما عكسه من ترجمة فهمه لما أحدثته الحركة الإسلامية المعاصرة في عقول أبنائها ومفكريها ومنظّريها ومربّيها.

وظائف منجز "علي عبد الحليم محمود" حول قضايا المرأة المسلمة التربوية والدعوية والحركية:

لقد ترك الدكتور "علي عبد الحليم محمود" منجزه في هذا الاتجاه، وقد عالج فيه:

أولًا: وضع المرأة في الحضارات القديمة والحديثة، وهو أمر مهم في سبيل فهم النقلة الإيجابية والنوعية الجبارة التي أحدثها الإسلام العظيم في تغيير وضعها، وحقوقها، ومكانتها، وواجباتها.

ثانيًا: حقوق المرأة وواجباتها في مراحل حياتها المختلفة (بنتًا وأختًا وزوجًا وأمًّا وعضوًا فاعلًا في المجتمع).

ثالثًا: فقه الدعوة الإسلامية والمرأة المسلمة، تكوينًا وثقافة، وميدانًا وعملًا، وداعية، وأنشطة.

رابعًا: قضايا المرأة المسلمة المعاصرة في ظل فقه الإسلام ومنظومته الأخلاقية.

وفحص هذا المنجز منتج لمجموعة من الوظائف والأدوار التي استهدف الدكتور "علي عبد الحليم محمود" خدمتها وتحقيقها، عندما اتجه إلىٰ إقرار قضايا المرأة المسلمة المعاصرة بالعناية. وهذه الوظائف الظاهرة من كتاباته في هذا المجال، هي:

أولًا: الوظيفة التكوينية البنائية.

استهدف "علي عبد الحليم محمود" بما أنجزه في حقل تربية المرأة وتثقيفها، وتكوينها حركيًّا ودعويًّا، بناءها وخلقها إنسانًا مسلمًا مستقيمًا ونافعًا وخادمًا للدين بمفهومة الشامل في الحياة المعاصرة، وعيًا بخصوصية وظيفتها النسائية من جانب، وعمومية وظيفتها الإسلامية بما هي مسلمة تشارك المسلم في مجمل الواجبات والحقوق، واستقلال العناية ببنائها نوع من الوعي بخطر وضعها في خدمة الإنسانية بما هي المحضن المركزي الذي يرعىٰ ويربي الإنسان، وكل تكريم لها عائده مثمر في بناء الأجيال المسلمة.

ثانيًا: الوظيفة الدعوية:

كان مما استقر في التصور الإسلامي المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، وهو ما يعني أن المرأة شريك الرجل في القيام بأعباء الدعوة إلىٰ الله، وهو الفهم الذي أذاعته الحركة الإسلامية المعاصرة بعد أن استرجعت تاريخ العصر النبوي، يقول "علي عبد الحلم محمود" (ص10) : "إن واجبها في الدعوة إلىٰ الله واجب غير منكور".

وهو الأمر الذي رعاه من عدة جوانب تتمثل في:

1- التأصيل لهذه الوظيفة من الكتاب العزيز.
2- التأصيل لهذه الوظيفة من السنة المشرفة.
3- التأصيل لهذه الوظيفة بمراجعة سير الصحابيات رضوان الله عليهن.

ثالثًا: الوظيفة الحركية:

لقد افتتحت الحركة الإسلامية تاريخًا زاهرًا من توجيه المرأة إلىٰ خدمة قضايا المجتمع والأمة، بما وفرته لها من مسارات وأنشطة في مختلف ميادين العمل الاجتماعي، تعليمًا وتربية وسياسة، وغير ذلك.

وقد استطاع منجز "علي عبد الحليم محمود" أن يؤثر في أجيال متتابعة من المنتميات للحركة الإسلامية، ويحفزهن إلىٰ الإسهام في ميادين العمل المختلفة في المجتمع المعاصر.

واتسع ميدان هذه الأنشطة ليقتحم المجالات التالية:

1- مجال البيت، وعلاقات القرابة والصداقة والجيرة.
2- مجال البر، والجمعيات النسائية والأهلية.
3- مجال الدعوة في أوساط النساء.
4- مجال الأنشطة الطلابية والاتحادات.
5- مجال العمل النقابي والمهني.
6- مجال العمل الحزبي والسياسي.
7- مجال العمل التربوي.

رابعًا: وظيفة التنمية:

لقد كان لما حفزت إليه الحركة الإسلامية المرأة المسلمة المعاصرة أثره الإيجابي الذي عاد على النساء والمجتمع بالتنمية، وقد ظهرت تجلِّيات هذه الوظيفة في المجالات التالية:

1- اتساع نطاق خدمة القضايا النسائية بعد توافر أجيال من الداعيات والمربيات والحركيات المسلمات.

2- التطور الإيجابي في إدارة الأسرة المسلمة المعاصرة بعد التطور المعرفي والسلوكي للمنتميات للحركة الإسلامية المعاصرة.

3- التطور الإيجابي والكمي في مجال المؤسسات النسائية الراعية لمشكلات المرأة المعاصرة.

4- اتساع جغرافية الثقة في العمل النسائي بعد توافر الخبرات والمؤهلات، على أثر استقلال الفروع المعرفية والحركية والدعوية للمرأة المسلمة المعاصرة.

5- تنامي ظهور رموز نسائية منتمية للحركة الإسلامية، ومتأثرة بها بوجه عام، وقد مثَّل تنامي ظهورها علامة فارقة في الأحداث المعاصرة.

خامسًا: الوظيفة المعرفية:

كان لمنجز "علي عبد الحليم محمود" وما تراكم بسببه في الواقع الحركي المعاصر- أثره في اتساع المجالات العلمية التي تستهدف رصد الإسهام النسائي على امتداد التاريخ وتعميق المباحث الخاصة بوضع المرأة وقضاياها.

سادسًا: الوظيفة الحضارية:

لقد ترتب على مجموع الوظائف السابقة تحقق انتقال نوعي في مكتسبات المرأة المسلمة المعاصرة في الميادين الحيوية المختلفة، بشكل غير مسبوق في الأوساط الإسلامية ابتداءً، وهو الأمر الذي يعكس نوع ارتقاء حضاري في جانب قضاياها وحقوقها ومشاركاتها في الحياة.

سابعًا: الوظيفة الدفاعية (التصحيح)

لقد اتضح من بدايات كتاب "المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلىٰ الله" حرص الدكتور "علي عبد الحليم محمود" علىٰ إزالة اللبس، والدفاع عن المرأة وحقوقها من وجهة النظر الإسلامية، يقول (ص7) : "وإنما أوجه هذا الكتاب للمرأة المسلمة؛ لأزيل لبسًا ران علىٰ أذهان كثير من المسلمين، إذ حسبوا أن المرأة ليس عليها في مجال الدعوة إلىٰ الله واجب، ناسين أن الله سبحانه وتعالىٰ أمر خاتم رسله عليه الصلاة والسلام أن يتلو علىٰ الناس قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف] .

فكل من اتبع محمدًا من ذكر أو أنثىٰ فسبيله الدعوة إلىٰ الله بصيرة، وليس في الآية ما يدل أبدًا علىٰ أن المكلف بالدعوة إلىٰ الله هم الرجال وحدهم، فعسىٰ أن يزيل هذا الكتاب هذا اللبس".

مقاصد منجز "علي عبد الحليم محمود" حول المرأة المسلمة:

وربما ظهر من فحص منجز الراحل الكريم حول المرأة المسلمة تعيينًا مجموعة من المقاصد يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: تحقيق مقصد حفظ الدين، بتفنيد اللبس حول عدم وجوب الدعوة إلىٰ الله علىٰ المرأة.

ثانيًا: تحقيق مقصد تربية عقل المرأة، بالتربية والتكوين والإشراك في الدعوة والحركة.

ثالثًا: تحقيق مقصد تزكية نفس المرأة، بوضع برامج خاصة لدعوتها وتربيتها وتعليمها.

رابعًا: تحقيق مقصد ترقية العمران بتوظيف طاقات المرأة في تنمية المجتمع المسلم المعاصر، وتعميق مسارات العمل فيه.

مصادر منجز "علي عبد الحليم محمود" حول المرأة المسلمة وخصائصه:

وقد أسس الراحل الكريم منجزه حول المرأة المسلمة معتمدًا مجموعة متميزة من المصادر، أهمها:

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: السنة المشرفة الصحيحة.

ثالثًا: تاريخ الصحابيات في العصر النبوي وما بعده.

رابعًا: منجز الفقهاء المسلمين القدامى و المعاصرين من فقهاء الحركة الإسلامي، وكتابات الإصلاحيين الإسلاميين المعاصرين.

خامسًا: واقع الحركة الإسلامية المعاصرة، ومشاهدة روادها المؤسسين.

أما عن أهم خصائص هذا المنجز فتمثل في ما يلي:

أولًا: التأصيل الشرعي والانضباط العلمي، باستصحاب الأدلة الشرعية.

ثانيًا: الوضوح والبيان.

ثالثًا: الشمول والاتساع.

رابعًا: العمق والتنوع (الدعوي والتربوي والفقهي والفكري والحركي).

خامسًا: الواقعية واستصحاب هموم الواقع وخبراته.

سادسًا: المرونة والاستجابة للمتغيرات.

سابعًا: الإسهام في ترقية الملكة العقلية للمرأة بالدفاع عن مكانتها وحقوقها وواجباتها، والتأصيل العلمي لهذه المجالات، وتعميق مباحثها، وتركيزها، وتنويعها.

ثامنًا: تقويم النظر وتسديد الفكر بتصحيح الأخطاء الشرعية والفقهية والعلمية والحركية فيما يتعلق بالمرأة المسلمة عمومًا، بعد زمان من الجمود والتقليد.

وبعد، فإن القراءة المتأنية لأهم منجزات الحركة الإسلامية المعاصرة تثبت أن بناء العلماء والدعاة والمفكرين كان في الصدارة من هذه المنجزات.

و"علي عبد الحليم محمود"، مثال غير أخير، لكنه يبقى الصوت الذي لن يستطيع الصمت أن يواريه أو يخفيه عن الوجود؛ بسبب من إسهامه في خدمة قضايا التربية الإسلامية عمومًا، وتربية المرأة المسلمة خصوصًا.

القرضاوي.. الإمام الثائر

(1)
مبهج جدًا، ودالٌ جدًا

ذلك الذي ظهر بهذه السرعة ليفحص سهمة الإمام العلامة الدكتور "يوسف القرضاوي" في خدمة ثورة مصر التي انفجرت يوم الخامس والعشرين من يناير.

مبهج جدًّا؛ لأن الذي تعرض لفحص اجتهاد الإمام القرضاوي من أجل الثورة المصرية، هو واحد ممن (تحرقوا) شوقًا لنجاحها، وجاء مشتبكًا ومشاركًا في أحداثها، شعورًا منه بفضلها على الشعب المصري؛ كان الخوف يملؤه ويملؤنا ونحن نناقش احتمالات مستقبلها، ثم نترك ذلك الكلام قطعًا لاحتمالات الإحباط، آخذين في رصد القيم الحضارية على أرض الميدان.

ومبهج جدًّا كذلك؛ لأن فحص منجز اجتهاد الإمام القرضاوي جاء من قلم عانى صاحبه من ظلم النظام السابق، ومن قلم يعرف قيمة الفقه وأصوله، ومن قلم يقدر في إجلال ظاهر مكانة الإمام القرضاوي.

ثم هو دال جدًّا على وعي، واضح باستمرار مدرسة الفقه للرشيد؛ بسبب من اجتهاد فقهاء الحركة الإسلامية الوسطية، التي يرجع الفضل السابغ لاستنبات شجرتها في التربة المعاصرة إلى مدرسة الإخوان المسلمين، وإلى يوسف القرضاوي تعيينًا بعد سلسلة باذخة من الأسماء اللامعة في هذا السياق من أمثال حسن البنا نفسه، والسيد سابق، ومحمد الغزالي، ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، وعبد القادر عودة، والتي ما تزال مستمرة تلمس آثارها في فروع هذه الشجرة السامقة.

(2)
ملامح قيمة الكتاب

ويأتي كتاب القرضاوي الإمام الثائر: دراسة تحليلية في معالم (اجتهاده للثورة المصرية) نقطة ضوء بالغة الخطر؛ بسبب من عوامل عدة، لعلَّ في مقدمتها تعانقها مع

اللحظة الراهنة بكلِّ علامات الأزمة التي تشتبك معها، ولا سيَّما أن الثورة المصرية لم تتم نجاحاتُها بعد.

وتستمد الدراسة قيمتها وأهميتها من توافر (توفّر) العلامات التالية:

أولًا: موقع الشخصية- موضع فحص منجزها الاجتهادي- وهو الدكتور "يوسف القرضاوي" 1334هـ/ 1926م، الذي يعد بلا منازع أعظم الفقهاء والمجتهدين المعاصرين اليوم.

ثانيًا: موقع القرضاوي، بما هو فقيه، ومنظر فكري للحركة الإسلامية، وحركي يعرف قيمة الواقع، والاشتباك معه، وموقعه بما هو محط آمال جماعات وشعوب كثيرة تسترشد باجتهاده في ضبط حركتها ومسيرتها.

ثالثًا: الرصيد الرائع والمتنوع من أشكال دعم ثورة المصريين، وتوجيهها وتنبيهها وتبصيرها بمواضع أقدامها في حركتها، في سرعة ومتابعة ومثابرة ظاهرة من أول لحظة، وهو ما لا يمكن مقارنته بأي من الإعلام ولا المؤسسات التي جاءت جميعًا متخلفة عن فعل الثورة بخطوات كثيرة.

رابعًا: منزلة المؤلف الدكتور "وصفي عاشور أبو زيد"، بما هو واحد من أكثر الأصوليين الفقهاء الشباب التصاقًا بالإمام، وبما هو من أكثر الأصوليين الفقهاء الشباب وعيًا بطبيعة الواقع، وبما يجمعه في صدره من معرفة، وبما حازه من علاقات بأعلام الاجتهاد الأصولي والفقهي المعاصرين، وبما يتمتع به من سمات شخصية تقترب به من حدود أهل الحكمة.

(3)
القرضاوي الإمام الثائر.. حدود المنجز

وفيما يلي نتوقف أمام ما ضمه الكتاب من فصول ناقشت ورصدت وحلَّلت ودونت حدود منجز الإمام في اجتهاده للثورة المصرية المتواصل إلىٰ اليوم. جاء الكتاب في: مقدمة، ومدخل، وأربعة فصول، وملحق ببيانات القرضاوي وخطبه، وأحاديثه وتصريحاته للثورة المصرية، كما يلي:

1- مدخل: عن معالم الثورة والإمام الثائر، وفيه (ثورة أذهلت العالم/ ثورة ربانية/ ثورة قدوة ومعلمة/ ثورة أخلاقية سلوكية حضارية/ ثورة من أجل المقاصد الإنسانية/ ثورة وطنية شعبية حقيقية/ ثورة أظهرت القدرة علىٰ التجديد والإبداع/ ثورة حصاد عقود وإن أطلق شرارتها الشباب/ ثورة ميزت مواقف الحكومات والعلماء/ موقع القرضاوي علىٰ خارطة العلماء والدعاة/ لماذا القرضاوي دون غيره؟/ ولماذا القرضاوي وثورة مصر دون غيرها من الثورات؟).

2- الفصل الأول: المنطلقات الشرعية لخطاب القرضاوي في الثورة، وفيه: نصوص القرآن والسنة/ الوعي بفقه السنن الجارية/ الوعي بفقه الواقع والإحساس به/ رعاية فقه المقاصد/ رعاية فقه المآلات/ رعاية فقه الموازنات/ التشاور مع أهل الذكر/ استلهام دروس التاريخ ودور العلماء الربانيين/ رد الشبهات وتفنيدها/ نقد المتخاذلين وعلماء السلطة).

3- الفصل الثاني : قواعد حاكمة لخطاب القرضاوي في الثورة، وفيه دراسة للقواعد التالية: (حق الأمة مقدم علىٰ حق الفرد/ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة/ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب/ المشقة تجلب التيسير/ الأمور بمقاصدها/ حقوق الله مبنية علىٰ المسامحة وحقوق العباد مبنية علىٰ المشاحة والمضايقة/ للوسائل أحكام المقاصد/ تصرف الحاكم علىٰ الرعية منوط بالمصلحة/ كل ما خالف أصلًا قطعيًا فهو مردود/ درء أعظم المفاسد بارتكاب أخفها وجلب أعظم المصالح بتفويت أدناها).

4- الفصل الثالث: الخصائص العامة لخطاب القرضاوي في الثورة، وفيه معالجة الخصائص التالية: (الربانية/ الوسطية/ المواكبة/ الشمولية/ الاستيعاب/ البيان).

5- الفصل الرابع: آثار وتأثير خطاب القرضاوي في الثورة داخليًا وخارجيًا، وفيه مراجعة هذه الآثار علىٰ التأثير الداخلي بما ضمه من الثوار/ والعلماء والدعاة/ والجيش والمجلس الأعلىٰ/ والإعلام والصحافة الداخلية/ والشعب كله، وناقش تأثير الخطاب خارجيًا علىٰ الإعلام بنوعيه مسموعًا ومقروءًا.

6- الملحق، وجمع فيه أحد عشر نصًا ما بين تصريحات، وكلمات وبيانات، وتفريغ لبرامج، وخطب.

(4)
أنوار البدايات.. منارات على الطريق

كان حسنًا من "وصفي عاشور" أن يقف أمام عدد من الملامح التي حكمت القرضاوي بضرورة مساندة الثورة المصرية، وتنبه إلىٰ قيمة البدايات الأولىٰ بما هي مؤثرة في مسيرة الإمام؛ ذلك أن القرضاوي كان قد عانىٰ من السجون وعذاباتها بدءًا من عهد الملكية المصرية في سنة 1949م، ثم في سجون عبد الناصر مرتين 1954م، و1962م، وهو الأمر الذي ينبه الكتاب علىٰ أثره الإيجابي في التحرك المواكب لفعل الثورة المصرية.

ومن جهة ثانية ينبه الكتاب علىٰ تأثير حرب فلسطين، ومرأىٰ كتائب الجهاد المتطوعة من أجل هويتها في وعيه بحقوق الشعوب في الثورة وضرورة دعمها. ومن جهة ثالثة فقد كانت نشأته بين صفوف حركة الإخوان المسلمين بما قدمته- وما تزال- من تضحيات غالية بدءًا من مؤسسها، ومرورا بأعلامها وعلمائها، وانتهاء بأفراد جنودها من أجل الحرية وصد هجمات الطغيان.

ومن جهة أخيرة، كانت أجواء الظلم والتضييق التي حاصرت الشيخ إلىٰ ما قبل الثورة أمرًا زاد من دوام شعوره بالظلم، وبما هو سبب لدوام ثورته علىٰ الظالمين، بما عانقه من تكوين فطري جِبِلّي دعمته ثقافة أصيلة برفض الاستبداد والظلم والقهر والطغيان، كل هذه الأنوار التي رافقته من بداياته الأولىٰ منارات علىٰ طريق خدمة الثورة المصرية.

(5)
ثورة مصر.. آية من آيات الله

افتتح "وصفي عاشور" كتابه المهم بمدخل طويل، رصد فيه معالم الثورة والإمام الثائر معًا، وهي معالم تقود إلىٰ ما ظهر عنوانًا لهذه الفقرة بما يجعل هذه الثورة منحة ربانية بامتياز، بما حازته من علامات ومعالم، وبما قيضه الله سبحانه لها من دعم

الداعمين، وفي الصدارة منهم الإمام القرضاوي، وقد فطن المؤلف الكريم إلىٰ أن الثورة كانت حدثًا مذهلًا مباغتًا.

ثم هي ثورة ربانية بما ظهر من رعايته لها ورحمته بها، وإسقاطه لمؤامرات المتآمرين عليها، ورد الحملات الإعلامية المسعورة ضد المشاركين فيها، ثم هي ثورة قدوة ومعلمة بما نطقت به قادة العالم وساسته: "لقد بدت مصر صانعة للتاريخ كالعادة" (علىٰ حدِّ تعبير رئيس وزراء إيطاليا) وأبدت العالم مصريًا (علىٰ حدِّ تعبير رئيس وزراء النرويج).

ثم هي ثورة أخلاقية وحضارية، وهو ما عكسه سلوك المتظاهرين الفعلي واللساني معًا في علامات ظاهرة علىٰ عراقة المصريين.

وهي ثورة سعت نحو مقاصد إنسانية، بمعنىٰ أن الثورة كانت من أجل الحفاظ علىٰ كليات الإسلام، كانت الثورة تسعىٰ نحو حفظ الدين، والتدين، والنفس، والعقل، والمال، والعرض.

لقد كانت الثورة بمثابة إعادة صياغة للإنسان من جديد في ضوء هذه المقاصد الكبرىٰ، علىٰ حدِّ تعبير الكتاب(ص 30)، وهي ثورة وطنية وشعبية حقيقية.

ثم هي ثورة أظهرت القدرة الكامنة في الجينات المصرية علىٰ الإبداع والتجديد، وهو ما أشار المؤلف الكريم إلىٰ مستوياته المختلفة، طالت الشعارات والهتافات والأشعار، والرسوم، والغناء إلىٰ غير ذلك.

وقد تميز موقع القرضاوي علىٰ خريطة العلماء والدعوة بشكل ظاهر منفرد، لدرجة تشكل ظاهرة فريدة، لا يشاركه فيها أحد، لاعتبارات كثيرة- كما يقول المؤلف- منها:

أ- دوره الشامل مع الثورات عمومًا.

ب- قوة خطابه ورصانته ومواكبته للحدث، مع شموله لنواحي وجوانب المشهد.

ج- إصداره بيانين لثورة مصر، وخطب ثلاث مرات من أجلها.

د- دوره الظاهر في تحميس ثوار مصر.

لقد برهن القرضاوي على مصريته وإمامته معًا، ومن أجل ذلك استحق التوقف أمام سهمته في الاجتهاد والعمل والحركة لخدمة الثورة، بما جعله أحد علاماتها التي لا تنكر!

(6)
المنطلقات الشرعية الحاكمة لاجتهاد القرضاوي للثورة المصرية

التقط "وصفي عاشور" في فصل تالٍ عشرة منطلقات شرعية حكمت اجتهاد الإمام القرضاوي، ورتبها ترتيبًا شرعيًا جيدًا، افتتحها بأخطر المنطلقات جميعًا، ألا وهو أنه اجتهاد حكمه ورعاه نصوص الذكر الحكيم، والسنة المشرفة، وقد اشتملت خطابات القرضاوي على عدد كبير جدًّا من آيات الذكر الحكيم، تمثل مدونة رائعة لنصوص مواجهة الاستبداد من مثل:

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص] .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: من الآية 102] .

﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: من الآية 148] .

ومما ورد من نصوص السنة المشرفة في خطابه:

- (لعن رسول الله ﷺ ثلاثة: "رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون") .
- (من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة).
- (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم).
- (لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا).
- (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

وتابع "وصفي عاشور أبو زيد" في عُشارية الوقوف أمام المنطلقات الشرعية التي ظهرت من اجتهاد الإمام القرضاوي وتمثلت في:

- الوعي بفقه السنن الجارية القاضية بانتصار الحق، وتغلب إرادة الحياة.
- الوعي بفقه الواقع والإحساس به، وأن الواقع حاكم بانتصار الكرامة، وحقُّ مصر في استعادة دورها وريادتها التي لم تنقطع إلا مؤقتًا على يد هؤلاء الفاسدين التي

ثارت مصر ضدهم.

- رعاية فقه المقاصد، ووعيه بحرمة المشاركة في المظاهرات غير السلمية، وحديثه عن الأموال المنهوبة، وتأييد المقاصد الإنسانية والاجتماعية العادلة للثورة.

- رعايته لفقه المآلات، وهو ما ظهر في دعوته لانضمام الشعب إلىٰ الثوار، وبيانه أن مقاومة الفساد سبيل لحماية مصر من الغزو الخارجي، وما ظهر من تحذيره للشباب من المندسين.

- رعاية فقه الموازنات، وهو أحد المنطلقات المهمة التي قادته إلىٰ تأييد الثورة من فجر بدايتها وتحريضه للمتظاهرين، وتحميسه لهم، وبيانه أنه لا يجوز لأحد.. ولو كان شيخًا للأزهر أن يجامل فردًا علىٰ حساب شعب.

- التشاور مع أهل الذكر، وهو ما تبدئ من مشاورة لعدد من قيادات الميدان في أمر نزوله للميدان، وهو ما ركن إليه في تأخير نزوله إلىٰ ما بعد التنحي.

- استلهام وقائع التاريخ، ودور العلماء الربانيين.

وكان من أخطر ما وقف أمامه "وصفي" ما سماه برد الشبهات، وبيَّن أن الخروج السلمي لا يسمىٰ خروجًا، أو يجعل صاحبه من الخوارج بأي شكل من الأشكال، ثم كان وقوفه أمام المتخاذلين وعلماء السلطة أمرًا يذكر، فيُقدر ببالغ الامتنان لدوره.

(7)
القواعد الحاكمة لاجتهاد القرضاوي لخدمة الثورة ودعمها

وفيما يلي رصد لعشر قواعد استخرجها "وصفي عاشور" من خطاب القرضاوي، رآها حاكمة علىٰ اجتهاده، وقد كان منهجه فيها متمثلًا في إيرادها والتعليق عليها بما عانقها من فعل الشيخ في خدمة الثورة، وهي كما يلي:

1- حق الأمة مقدم علىٰ حق الفرد.

2- لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

3- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

4- المشقة تجلب التيسير (وهو ما دعاه لإباحة تقدم المأموم على الإمام في الصلاة/ وإباحة الجَمع).

5- الأمور بمقاصدها (حكمه لقتلى الثورة من الثوار بأنهم شهداء/ قاتلوهم ملعونون).

6- حقوق الله مبنية على المسامحة والمساهلة، وحقوق العباد مبنية على المشاحنة والمضايقة (استعراض خطايا النظام/ ذكره سجنه المظلومين/ ذكر حقوق الشعب).

7- للوسائل أحكام المقاصد (حل التظاهر/ تحريم البلطجة/ وجوب النزول إلى الشارع... إلخ).

8- تصرف الحاكم على الرعية منوط بالمصلحة.

9- كل ما خالف أصلًا قطعيًا فهو مردود (الأصول ومئات النصوص تصرح بمقاومة الظلم/ لا تترك هذه لحديث واحد ولو كان صحيحًا).

10- درء أعظم المفاسد بارتكاب أخفها، وجلب أعظم المصالح بتفويت أدناها.

(8)
خصائص عامة لخطاب القرضاوي في الثورة

وقد كانت اجتهادات القرضاوي- أكرمه الله- متميزة جدًا، ومتسمة بعدد من الخصائص المهمة جدًا، وقف "وصفي" أمام أظهرها، وأكثرها وضوحًا وتجليًا، وهي سمات الربانية بدليل أن الثورة كانت لله، ومن أجل الله في مواجهة سلطان جائر، والوسطية؛ وهي سمة تعني العدل والحق، فقد كان ناطقًا بهما، والمواكبة للحدث بما هو من معاني فقه النوازل، وهو ما تجلى من أول أيامها، والشمولية جامعًا بين العقل والقلب، والاستيعاب بما هو خطاب موجه لكلِّ الأطراف، والبيان الجامع بين الوضوح والتفهيم والتأثير.

(9)
تأثير خطاب القرضاوي للثورة داخليًا وخارجيًا

وقد تجلت القيمة العملية لخطاب القرضاوي بشكل يعكس تقدير منزلته داخليًّا وخارجيًّا، وأسهم في تمايز طوائف النخب المصرية، وأسهم في تعرية عدد من الطوائف المعادية للفكرة الإسلامية.

إن هذا الكتاب يدل دلالة قاطعة على العناية الربانية التي حاط بها رب العزة سبحانه الثورة المصرية من توفيقه القرضاوي إلى دعم الثورة وخدمتها، ويدل على أن مدرسة الإخوان في الفقه والدعوة ما تزال مثمرة منتجة، وما تزال مصر قادرة على إنجاب الطاقات والكفاءات العلمية والفكرية.

لقد أعطى كتاب "القرضاوي الإمام الثائر" صورة مشرقة لقدرة الإسلام الإيجابية عبر أصوات علمائها الكبار على دعم حركات التحرير، وطلب قهر الاستبداد.

أكرم الله إمامنا القرضاوي، وسدَّد الله قلم صديقنا العالم الدكتور "وصفي عاشور أبو زيد".

(10)
(ملاحظات)

إنني مؤمن بأن واحدة من سمات المراجعات العلمية الساعية نحو الرصانة والإضافة، أن تقف بإزاء ما يعرض من مؤلفات موقفًا متعاطفًا بقدر ما تضيفه لحركة العلم والمعرفة في تخصصها، وناقدًا يتلمس تقويم القائم بغية تجويده، ومن هنا فإن ثمة ملاحظات وقعت لي من تأمل بناء الكتاب، وتصميمه، يمكن ذكر عدد منها فيما يلي:

أولًا: يؤمن "وصفي عاشور" ويعلم أن الدراسة العلمية تتسم بالموثوقية والتوثيق، وهو ما بدا ظاهرًا في أجواء الدراسة الرصينة التي أتى بها هنا، غير أن غيابًا واضحًا للتوثيق طال مناطق كثيرة من الدراسة: من مثل غياب توثيق شهادات كبار الساسة الغربيين تجاه الثورة المصرية في (ص 24)، ومن مثل غياب تخريج عدد كبير من نصوص الحديث الشريف في سياق تحليل للمنطلق الشرعي الأول لخطاب القرضاوي على ما جاء في الصفحات (47 و48)، رغم أنه خرجها جميعًا في الملاحق،

وكنت أحب أن يوثق كلّ حديث عند وروده أول مرة.

ثانيًا: غابت قائمة مراجع دراسة "وصفي عاشور"، ولعلَّ تعجل صدور الكتاب هو الذي لفته عن إيراد قائمة مراجعة مع أهميتها البالغة لهذا الموضوع.

ثالثًا: كنت أرىٰ- وما زلت أرىٰ ذلك مهمًّا- أن يورد "وصفي" في مقدمة دراسته ما يبرهن علىٰ كون الإمام القرضاوي واحدًا من آباء الثورة المصرية الكبار وملهميها، بما صدر عنه من كتابات سابقة تمهد لفعل الثورة، سواء الفكري منها، أو ما كان من ذلك في صورة فتاوىٰ سابقة.

ولكن هذه الملاحظات لا تنال بحال من الجهد الرائع الذي بذله المؤلف.

المسيري لم يغادر

سيطرت هذه الجملة القصيرة على عقلي، وأنا أستعد للإسهام في التوقف أمام عبد الوهاب المسيري بعد عام كامل من رحيله الذي كان في يوليو 2008م. ولستُ أحب أن يرى فيها أحدٌ من القراء الكرام بقايا تقليدٍ رثائي فيستقبلها استقبالًا باردًا بسببٍ من مجازيتها الميتة، لا.

لكنها في التصور الإسلامي حقيقة، وهي المعنى الذي أريد لها، وهي تحاول أن تنزل ضيفًا محتفًى به في عقول المعاصرين ووجدانهم؛ ذلك أن مواريث النبوة استبقت لكل إنسانٍ بعد رحيل جسمه عناصر الخيرية التي ترقى بالعمران الإنساني، كما جاء في الحديث الصحيح "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وولد صالح يدعو له، وعلمٍ ينتفع به".

وعبد الوهاب المسيري لم يغادر بسببٍ من الأعمدة الثلاثة؛ فرصيده من الصدقة الجارية لا أحسب أن ثمةَ رصيدًا يمكن أن يفي بحسابه، بدءًا من هذه البسمة الودود التي كان يتصدقُ بها على كل مَن قابله، وجلس إليه، وانتهاءً بما يعرفه الناس في مادياتهم مما يُطلق عليه اسم الصدقة، وعبد الوهاب المسيري لم يغادر بحسب الولد الصالح الذي يترجم عليه، وتذوب قلوبهم شوقًا وحنينًا إليه، ولا بد أن يتسع هنا مفهوم الولد الصالح ليتخطى حدود البنوة البيولوجية إلى البنوة غير البيولوجية، ذلك أن التصور الإسلامي يرى أن بنوة القلب والعقل لا تقل عن بنوةِ النسب، بل ربما- وهو الكثير- ترجح بنوة العقل والقلب في الميزان في أحيانٍ كثيرة، وعبد الوهاب المسيري لم يغادر بشكلٍ ظاهر جدًا بالنظر إلى العلم المتروك الذي يُنتفع به.

من أجل ذلك كله؛ قلت: إنه لا يصحُّ أن تُحمل هذه الجملة على محمل مجاملات الرثاء، ولا أن تُستقبل من بواباتِ الشعر والمجاز.

ومن أجل ذلك صحَّ في تصور عبد الرحمن يوسف القرضاوي وهو يخاطبه "مديحك عبء على المادحين"!

التوحيد طريق إلى التخلص من الرؤية المعادية للإنسانية

عرفتُ الدكتور المسيري من نحو عقدٍ من الزمان قبل رحيله، وتطورت هذه

المعرفة بسببٍ من لقاءاتٍ مطولة جدًّا، سمح بها في أحيان قليلة وقته، وتكررت هذه اللقاءات هاتفيًّا كلما تعذَّر اللقاءُ كفاحًا، أي وجهًا لوجه.

في إحدى هذه اللقاءات التي كان يشهدها عددٌ من الزملاء والأصدقاء، أخصُّ منهم الدكتورة "ماجدة أنور" لفضلها في استمرار التعارف، ودفعه بحكم علاقة القرب من الدكتور المسيري هي وزوجها الصديق الدكتور "محمد هشام"، ثم الدكتور "سعيد شوقي" زميلي وصديقي في هذا اللقاء الذي كان مسألته عن النقطة الجوهرية القادرة على تحقيق تواصل وطني، وعلى تحقيق فقه ناهض بمصر يُذيب فوارق الأفكار، ويؤلف بين الأطياف المختلفة، فقال المسيري: التوحيد. وقد كان هذا المدخل رؤية جديدة من زاوية أن أحدًا لم يستثمر أدبيات العقيدة عند المسلمين؛ ليغذي أفكار الوفاق الوطني، ولتمهيد الأرض نحو نهضة مصر، وهو المبدأ الذي يحقِّق مع إخلاص العمل له الائتلاف الوطني بين القوى الوطنية المصرية على اختلاف توجهاتها، فالتوحيد أصل الأصول عند الإسلاميين المعتدلين، وهو محور مركزي في التصور العلماني الجزئي الذي يرى أصحابه أنهم مسلمون مستنيرون، وهو كذلك أصل في التصور النصراني.

وهذا المبدأ الذي يدفع التوحيد الإلهي؛ ليكون في الصدارة من قوائم تفسير الظاهرة الإنسانية، يحقق مجموعةً من المعاني الرحيمة؛ لأن الله رحيم ويحقق التواصل والحميمية؛ نظرًا لأن الله الواحد خلق ويرعى خلقه، ويحقق قدرًا من الخصوصيات للتيارات المتنوعة؛ لأن الله واحدٌ متعالٍ غير متحدٍ بخلقه، ومن المهم أن نترك المسيري يُعبِّر عن فكرته هذه بنفسه، يقول في كتابه المهم "اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود": "تذهب الرؤية التوحيدية إلى أن الله رحيم، مفارق، منفصل عن هذا العالم، متصل به، خلقه ولكن لم يهجره، بل يرعاه ويمنحه الهدف والغاية والغرض، ومَن يؤمن بمثل هذه الرؤية يؤمن أيضًا بوجود العدل في الأرض، وأن العالم له معنى وتحكمه قوانين وسنن". ص5

هذا الصوت جديد في طريقة تقديمه لمعلومات العقيدة؛ بحيث تكون مرجعية موجهة لحركة تحرير مصر، تضمن تآلف الجميع بحسبان أن الله الأحد مركز في كل

التصورات الوطنية المصرية، يوجه كل عمل تغييري تحريري.

ويذهب المسيري إلىٰ ما هو أعمق من هذه النقطة التي قد تحمل علىٰ أنها نقطة معزولة غير مقدورٍ علىٰ تطبيقها واقعيًّا؛ ليقرر أن "فصل النشاطات الإنسانية عن المعايير الأخلاقية والإنسانية يؤدي إلىٰ ضمور المرجعية الإنسانية ثم اختفائها" ص7 إن القول باستبعاد الله وفق هذا التصور الإلهي رؤية معادية للإنسان، هذا موجز يلخص عبقرية المداخل إلىٰ التغيير.

كان ذلك، ثم تطورتُ بالسؤال، وقلت: هل ترىٰ فصيلًا يمكن أن يكون الأقرب لتحقيق هذا المفهوم علىٰ أرض الواقع، فقال: نعم، بابتسامةٍ وبتصريح: نعم، عند الإخوان، وهناك ما زال "سعيد شوقي" حيًّا، فمال عليّ، وقال: "خليت الرجل إخوان"، وضحكنا.

مَن سرق المسيري؟!

وهنا أحب أن أقررَ أن كل دعاوىٰ تصنيف المسيري خاطئة، ومحاولة ساذجة لسرقة الكنز، فليس المسيري ملحدًا يمكن أن يقوي اللا دينيين منحاهم بهذه السرقة لهذا الرمز، وليس الرجل ماركسيًّا قد تطوَّر بالماركسية من داخلها، ولو باختراع فقهٍ للتغيير.

كان المسيري موحِّدًا مسلمًا بالمفهوم الرباني والإنساني معًا، ومن ثَمَّ فهو أكبر وأصعب من أن يسرقه أحد؛ فهو مصري تجسَّدت فيه ملامح التوحيد الخالص بما انعقد عليه قلبه، وحكم تصوراته المعرفية للكون والعالم والظواهر من حوله، وبما حرَّكه ليفهم عن الله سبحانه هيمنته علىٰ الوجود حياةً وموتًا ورزقًا، وهو ما ترجمه في نزوله إلىٰ الشارع ملتحمًا غير عابئ ببطش النظام الغبي؛ لأنه اطمأن إلىٰ ركنِ الله الواحد المهيمن.

وكان المسيري مصريًّا طامحًا إلىٰ الخلود، فجاهد مستبقيًا ما يضمن له الخلود، وهي الترجمة الإسلامية للمعنىٰ المستقر المتسرب في أجواء الحضارة المصرية القديمة، لقد طوَّر المسيري طقوس الخلود في الحضارة المصرية القديمة؛ لتتحول إلىٰ صدقةٍ جاريةٍ، وولد صالح، وعلم ينتفع به.

هذان المدخلان كافيان لأن يردًا علىٰ كل مَن يزعم انتسابًا إلىٰ المسيري... الرجل لا يمكن أن يسرقه أحدٌ ممن أشرنا إليهم.

المسيري وجماليات الولاء:

والذين يقرؤون كتاب المسيري "العالم من منظور غربي" يدهشهم ما سمَّاه (ص42) بفقه التحيز، ولعل أيسر ترجمة لهذا المصطلح يمكن أن تنصرف إلىٰ كلمة الولاء بكل عوالقها التراثية.

وإذا كان المسيري عند الذين يديمون التردد عليه رجلًا محبًّا متميًا، يدعو إلىٰ تقدير الخصوصية الحضارية في سك المصطلحات وتوليدها من رحم المعجم العربي؛ فإن إيقاع مصطلح الولاء يحتلُّ مكانةً بارزةً في قراءة المنجز المعرفي للمسيري؛ ذلك أن الولاء الذي هو عين التحيز يفرض علىٰ دارسي الظواهر ومفسريها أن ينطلقوا من رؤية محكومة بما يلي:

* التعاطف والتودد.
* الإيمان.
* تقدير التساوي الإنساني.
* الإكرام والاحتفاء.
* التناصر.

فهذه الدلالات معانٍ أولية مرصونة لكلمة الولاء، ومن ثَمَّ فإن التحرك نحو تفسير الظاهرة أيًا ما كانت هذه الظاهرة ينبغي أن يكون محكومًا بهذه الأطر السابقة. إن السؤال الملح الذي يطرح نفسه في كل مرة نسترجع فيها أيام المسيري وأقرانه إنما يدور حول ما يصح أن يبقىٰ من المسيري!

ولقد يصح أن نقرر أن المسيري صالح كله للبقاء، صالح لأن يبقىٰ منه هذا التقدير البديع للمرجعية المنطلقة من رحم التوحيد، ويصح أن يبقىٰ فيه مطاردة بقايا رواسب الغزو والرؤية الغربية المعادية للإنسانية والله.

ويصح أن يبقىٰ من المسيري الأمل في إمكان العدل، وتحقيق الرحمة والخير، وتقدير المواهب الإنسانية، واغتيال التنميط الذي يفتك بالإنسان.

إن عبقرية المسيري ظاهرة في الدوران حول مركزية الوحدانية الرحيمة الداعية الموجهة المتعالية.

عاش المسيري ولن يغادر.

النبوي شعلان.. جهاد من أجل الهوية

مدخل:

لم يزل الكثيرون ممن يشغلهم البحث عن جذور الهوية المشكِّلة للوجدان المصري يتذكرون كيف نجح الراحل الكريم الدكتور عبد العزيز حمودة -رحمه الله تعالىٰ- في التقاط مصطلح نافذ، كان سبق إلىٰ سكِّه الأستاذ عباس محمود العقاد، وهو اصطلاح "الهوية الواقية"، وسعىٰ "حمودة" منذ أن التقط هذا المصطلح إلىٰ إقرار ما تحوَّل عنوةً إلىٰ مسلَّمة فكريةً ملخصها: أن الهوية الثقافية هي حائط الصد الأخير في مواجهة كل محاولات الاقتلاع والطمس، اللذين هما أبعد بكثير جدًّا، مما سمي زمانًا باسم التغريب أو التغرُّب.

كان ذلك من "حمودة" في آخر أجزاء موسوعته التي شكلت ملامح مشروعة الفكري في البحث عن نظرية نقدية عربية في كتاب "الخروج من التيه" المسبوق بحلقتين لهما تأثيرهما هما: "المرايا المقعرة" و" المرايا المحدبة" !!

منذ ذلك الحين والحقيقة قائمة ظاهرة، لكنّ شَغبَ الحداثيين أتىٰ عليها، فطمرتها تيارات قوية من غباره، وزال عنها ما كان يطمس تألقها ويخفي بريقها. ومنذ ذلك الحين أيضًا وفكرة الاستمداد المباشر من التراث بما هو المكوِّن الأساسي للوجدان العربي والإسلامي خلال مسيرة ممتدة جدًّا في عمق التاريخ، تمثل أصلًا من أصول الإحياء في النهضة المعاصرة من أكثر من زاوية، فلقد تراوحت بواعث الإحيائيين بين كونها قامت بسبب من غيرة دينية، دعت إلىٰ الاهتمام بكل ما هو عربي إسلامي، وبين كونها جاءت استجابة للجهاد القومي الذي خلق حسًّا إحيائيًّا، اتجه إلىٰ جذور الموروث العربي الإسلامي، باحثًا فيه عن المثل الأعلىٰ في الحياة، علىٰ حدِّ تعبير الدكتور عبد الحكيم راضي في كتاب النقد الإحيائي في ضوء التراث 1/ 9.

من كل ذلك يأتي المدخل الصحيح لقراءة أبعاد الجهاد العلمي الذي اضطلع به الدكتور النبوي شعلان، بما هو الآن واحد من أكبر المضطلعين بإعادة إحياء عدد

ضخم من المؤلفات الأصول الخاصة بنظرية النقد العربي التي نبتت في الأرض العربية الإسلامية، متعاطية مع النصوص التي شكلت السياق الحاكم للعقل والوجدان العربي المسلم.

حدود الإسهام:

لقد عكف النبوي شعلان مدة طولية جدًّا من الزمن على خدمة الكتب الأصول في ميدان النقد العربي بوجه خاص، وهو ما يمثل الخطوة الأساسية فيما توصل إليه عبد العزيز حمودة ودعا إليه، وفيما يلي رصد لما توجهت إليه عناية "النبوي شعلان" فأعاد إحياءه فيما يُعرف علميًّا بالتحقيق:

1- مسائل الانتقاد، لمحمد بن شرف القيرواني، مطبعة المدني سنة 1402هـ 1982م.

2- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، لضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة 617هـ طبعة الزهراء للإعلام العربي سنة 1415هـ 1994م.

3- العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني، مكتبة الخانجي سنة 1420هـ 2000م.

4- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، دار قباء سنة 2003م.

5- ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، مؤسسة العلياء سنة 1429هـ 2008م.

كما أسهم الدكتور النبوي شعلان في خدمة آداب العربية بما أخرجه محققًا من النصوص الأدبية التالية، وهي كذلك مراجع داخلة في خدمة النظرية النقدية العربية من باب ثانٍ، بما تضمنته من آراء نقدية جاءت تابعة لما أورده مؤلفوها من نصوص عالية القيمة في إطار تصنيفي يرعى القيم والموضوعات:

1- من غاب عنه المطرب، للثعالبي، مكتبة الخانجي سنة 1405هـ 1984م.

2- أدب النديم، لكشاجم، القاهرة سنة 1406هـ 1987م، ثم مكتبة الخانجي سنة 1419هـ 1999م.

3- المصون في سر الهوى المكنون، للحصري القيرواني، دار العرب للبستاني سنة 1989م.

قيم ظاهرة...

ومن تأمل هذه القائمة الموزعة علىٰ فرعين ضاربين في الصميم من خدمة التراث العربي عمومًا، ومن خدمة النظرية النقدية العربية بما هي شكل من أشكال الهوية الواقية بوجه خاص، يظهر لنا ما يلي:

أولًا: وعي الدكتور النبوي شعلان بوحدة الأمة العربية الإسلامية مشرقها ومغربها، وهو ما تجلَّىٰ في عنايته بتحقيق نصوص تراثية مشرقية علىٰ ما يظهر من كتابات ابن الأثير، وابن سنان، وأبي هلال العسكري، والثعالبي، مع رعايته لنصوص من المغرب الإسلامي علىٰ ما يظهر في كتابات القيروانيين، ابن مشرف، والحصري، وابن رشيق، وفي هذا الجانب الأخير ما يعكس ضرورة البعد عما شاع زمنًا طويلًا باسم الإقليمية في خدمة تراث الأمة؛ حيث شاعت لفترة نغمة أن يخدم المشارقة تراث المشرق، وأن يعني المغاربة بتراث أهل المغرب.

ثانيًا: وعي بضرورة قراءة المنجز النقدي الأدبي في امتداداته الزمنية الطويلة، وهو ما انعكس في عنايته بتحقيق نصوص مهمة ممتدة خلال قرون متطاولة من القرن الثالث حتىٰ السابع الهجريَّيْن.

ثالثًا: وعيه الظاهر بالتنوع في المذاهب "المدارس النقدية"؛ سواء ما كان منها منتميًا إلىٰ النزعة الأدبية أو الفلسفية، مضافًا إليها ما ظهر من عنايته بالنصوص النظرية للنقد العربي، متعانقًا مع التطبيقات، وهو ما يفرض علىٰ النهضة العربية المعاصرة في سعيها نحو إقامة نظرية عربية نقدية أن تلم بخيوط النقد العربي التراثي في أبعاده ونطاقاته المختلفة.

النبوي شعلان وسلاح الهوية...

وبهذا الذي رصدناه يتضح لنا أن الجهاد العلمي للدكتور النبوي شعلان المتمثل في تحقيقاته لهذه النصوص المهمة جدًا في تاريخ النقد والأدب العربيين؛ له قيمة بارزة من عدة جوانب يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: إذا كان الاستمداد المباشر من التراث علىٰ حدِّ تعبير الكريم الدكتور عبد الحكيم راضي، يمثل مفتاحًا لازمًا في طريق الإحياء والتجديد؛ فإن ما قدمه النبوي

شعلان يصب مباشرةً في خدمة هذا الرافد الخطير علىٰ طريق التسلح، للكشف عن أبعاد النظرية النقدية العربية التي تنتشر مسائلها، وحدودها ابتداء في أدبيات النقد العربي، وما دار في فلكها من نصوص الأدب، وكتابات البلاغيين واللغويين وشراح الشعر والنثر من علماء العربية علىٰ امتداد عطائهم.

ثانيًا: وإذا كان الإثبات من المنظرين لمقام الهوية والمؤطِّرين لخصائص النفس المصرية والعربية المعاصرة، ينطلقون في تنظيرهم وتأطيرهم من حقيقة مسلَّمة، تقرر أن خصائص النفس العربية تستمد ملامحها الأصلية من تعانق ما أورثه الإسلام من جانب، وما انسرب من العروبة من جانب آخر؛ فإن ما قدمه النبوي شعلان من تحقيقات لنصوص مهمة جدًّا، تتضمن كنوزًا من الأشعار والفقرات النثرية المتنوعة زمنًا وغرضًا ومكانًا وصدورًا عن مؤلفيها، يمثل زادًا لا يمكن تقدير قيمته خطرًا، ولا تثمين وزنه علوًّا في باب خدمة الوجدان المعاصر الذي لا يصح أن ينفصل عن روافده الموصولة بتاريخ الإسلام والعروبة خلال الزمان الطويل.

إن توقفنا أمام عطاء عَلَم من أعلام العناية بالتراث العربي في باب من أخطر الأبواب التي يعبث من خلالها خصوم الروح الإسلامية العربية، وهو باب النقد؛ يهدف إلىٰ تقدير أبعاد هذا الجهاد العلمي الذي استغرق عمر رجل مِن أثبت مَن تعامل مع نصوص النقد العربي القديم، كما أنه بانتمائه للأزهر الجامعة يعيد الأمل في إمكان استعادة هذه المؤسسة العلمية العريقة لسابق مكانتها.

باسم الهوية الواقية التي تتجلَّىٰ بعض روافدها فيما تركه لنا الأسلاف العظام، مدونًا بهذه اللغة العالمية التي تتعرض لواحد من أقسىٰ المواجهات والمحن، وباسم هذا العكوف والتبتل في محراب التحقيق نسوق أخلص تحية يدفعها تقدير حقيقي لهذا الجهد الذي هو ضرب من الجهاد بكل ما تجله من دلالات.

انطفاءة البدر.. مدخل لفهم منجز عبد العظيم الديب

....

"أبو محمود" كما كان يحب الدكتور عبدالعظيم الديب أن يعرَّف ويُنادىٰ، هو عبد العظيم محمود الديب أحد أهم الأعلام المعاصرين خدمةً للفقه الإسلامي وأصوله في المقام الأول، وأحد أهم الأعلام المعاصرين عنايةً بالدفاع عن التاريخ الإسلامي ضد هجمات المزورين من العرب وغير العرب، وقد كان- رحمه الله تعالىٰ- صاحب عين فاحصة فيما ورد عن أئمة المستشرقين في تعاملهم مع التراث عمومًا، والتراث التاريخي بوجه خاص.

وقبل الأخذ في بيان جهاده العلمي في ميدان خدمة العلم الإسلامي في جوانب متعددة مختلفة، نحب أن نقف عند موجز يبين تكوينه العلمي فيما يلي:

إن عبد العظيم الديب ابن دار العلوم تخرَّج منها سنة 1956م، وهي الدفعة التي كان من أبنائها المرحوم الدكتور رمضان عبد التواب اللغوي والمحقق الأشهر، والدكتور عبد الصبور شاهين مدَّ الله في عمره، وهما أوائل هذه الدفعة علىٰ الولاء.

ودار العلوم يومئذ إحدىٰ حصون العربية وعلوم الشريعة من دون منازع بمناهجها، وبما كانت تضمه بين جنباتها من أسماء جبارة في ميدان العلم اللغوي والشرعي، وبما كان فيها من طلاب نوعيين، وبما كانت تنتهجه من أنظمة تعليمية، وبما كانت ترعاه في نظام قبولها لمن يلتحق بها، قبل أن يلتحق بها وينتسب إليها.

وقد انشغل الديب رَحِمَهُ اللهُ منذ بداياته الأولىٰ بواحد من أعلام الفقهاء الشافعية والأصوليين الأفذاذ والكلاميين المتقدمين؛ وهو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن يوسف الجويني 478 هـ؛ وهو الأمر الذي أنتج للمعرفة الفقهية والأصولية المعاصرة الكتابين التاليين:

1- إمام الحرمين: حياته وعصره، آثاره وفكره، مع تحقيق كتابه: البرهان في أصول الفقه.. وهي عمله لدرجة الماجستير.

2- فقه إمام الحرمين: خصائصه وأثره ومنزلته.. وهي عمله لدرجة الدكتوراه.

وقد أتيح للدكتور الديب أن يرشد خطواته ويشرف عليه اثنان من أعاظم أساتذة الشريعة وهما المرحومان الكريمان:

الأستاذ الدكتور مصطفىٰ زيد الذي كان رئيسًا لقسم الشريعة بدار العلوم لفترة طويلة، وهو من هو في علمه وبره وتلمذته للإمام الأشهر محمد أبي زهرة رحمه الله.

والأستاذ الشيخ محمد علي السايس الذي كان عميدًا لكلية الشريعة وأصول الدين بالأزهر الشريف.

ملامح جهاده العلمي

توزع الجهاد العلمي للدكتور عبد العظيم الديب علىٰ محاور متعددة عكست ما تمتع به- رحمه الله- من إمامة علمية في غير ما علم إسلامي، وهو الأمر الذي يظهر في المحاور التالية:

أولاً: الفقه وأصوله:

وهو الميدان الأظهر الذي هيمن علىٰ مجمل نشاطه العلمي والبحثي، والتدريس أستاذًا في كلية الشريعة بالعاصمة القطرية الدوحة، وهو الأمر الذي جعل منه حجة معاصرة فذة، إن لم يكن الحجة الوحيدة المعتبرة في تراث إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وهو ما أظهر للناس الكتابات والتحقيقات التالية:

1- " البرهان في أصول الفقه" للجويني، تحقيق في مجلدين، صدرت طبعته الأولىٰ بقطر سنة 1399هـ وتوالت طبعاته وكانت آخرها وهي الثالثة بالقاهرة عن دار الوفاء سنة 1420هـ = 1999م.

2- الغياثي "غياث الأمم في التياث الظلم" للجويني، وهو أحد أهم المصادر الأساسية في الفقه والفكر الإسلامي السياسي، طبع أولًا بقطر سنة 1400 هـ، ثم بمكتبة وهبة بالقاهرة سنة 1401هـ.

3- "الدرر المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية" للجويني، وظهر أولًا بدولة قطر سنة 1406 هـ = 1986م.

4- ثم كانت الدرة التي أوفت علىٰ الحاجة، عناية وإتقانًا وروعة عمل، ومجلي

إخلاص وتبتل وانقطاع في محراب العلم، والتي تمثلت في تحقيقه لكتاب الجويني "نهاية المطلب في دراية المذهب" حتىٰ قرر في حقه التاسع السبكي بأنه لم يصنف في المذهب مثله فيما يجزم به، وهو ما سبق إلىٰ تقريره الحافظ ابن عساكر (سياق العبارة يظهر أن الشهادة من السبكي وابن عساكر في حق الدكتور الديب).

وعلىٰ مستوىٰ آخر ظهرت للدكتور الديب دراسات فقهية وأصولية تنبئ عن قامته العلمية الرفيعة في هذا الميدان، وهي:

1- "إمام الحرمين حياته وعصره" الكويت سنة 1400هـ.

2- "فريضة الله في الميراث والوصية" القاهرة 1398 هـ= 1978م، ثم بالدوحة سنة 1405 هـ= 1985م.

3- "فقه إمام الحرمين خصائصه وآثاره ومنزلته" الدوحة سنة 1405هـ= 1985م، ثم دار الوفاء بالقاهرة سنة 1409هـ= 1988م.

وهي جميعًا قائدة إلىٰ تأصيل منزلته الراقية في ميدان النصوص الفقهية والأصولية والإسلامية عمومًا، وهو الأمر الذي جعله علامة بارزة في هذا المجال.

ثانيًا: ميدان التاريخ والاستشراق:

وقد تنبه الدكتور منذ فترة طويلة جدًّا من انشغاله بخدمة العلم إلىٰ الآثار المدمرة لدراسات الاستشراق الغربي علىٰ التراث الإسلامي، وقد كانت عنايته الكبرىٰ متوجهة إلىٰ فضح هذه الآثار الاستشراقية علىٰ قراءة التاريخ الإسلامي، بما هو واحد من أهم محددات الهوية للشخصية الإسلامية، ومما تركه لنا في هذا الميدان ما يلي:

1- "المستشرق والتراث" وكان نشره أولًا في جامعة قطر سنة 1405 هـ= 1985م.

2- "المستشرقون والتاريخ الإسلامي" وكان نشره أولًا سنة 1982م.

3- "التبعية الثقافية وسائلها ومظاهرها" وكان نشره بدار الوفاء سنة 1417هـ= 1996م.

4- "الحوار والتعددية في الفكرة الإسلامية" وكان نشره في دار الوفاء سنة 1417هـ= 1996م.

5- "الزبير ابن العوام: الثروة والثورة" وكان نشره سنة 1404هـ = 1984م.

6- القوميات وما وراءها.

وفي هذه المجموعة وأمثال لها يتضح لنا وعي ظاهر حول خطر العبث بالتاريخ الإسلامي، الذي هو أحد أهم محددات الوجدان الجماعي للأمة المسلمة، وفي هذه الدراسات المهمة تواجهك انتقادات منهجية وكشف عن المخاطر الرهيبة التي بثها إعلام الاستشراق في هذا الميدان، وفضح لتدميرهم من أمثال: فلهوزن، وكارل بروكلمان، ونولدكه، وواط، وتويتني وغيره!

ثالثًا: ميدان السنة والسيرة:

وقد كان المحور الثالث المهم في مسيرة عطاء الدكتور الديب العلمية رَحِمَهُ اللَّهُ هو عنايته بعدد من جوانب السنة النبوية المطهرة، وببعض جوانب سيرة المصطفىٰ ﷺ، وفيما يلي بعض هذه الإسهامات له في هذا الميدان:

1- "الرسول ﷺ في بيته" .

2- "جمع السنة وتصنيفها بواسطة الحاسب الآلي" .

3- "الكمبيوتر: حافظ عصرنا" وهو مشروع مفصل لدور الحاسب الآلي في إنجازه موسوعة السنة المشرفة، وموسوعة الرجال، والجمع المستفيض للسنة.

إن فحص هذه الأعمال ودرسها والتوقف أمامها دال علىٰ عمق ما قدمه الدكتور الديب للفكر الإسلامي المعاصر بما أخرجه من هذه المصادر الأصول، والدراسات المنهجية المهمة، وهو الذي قدره أهل المعرفة به كما يظهر في تقديمه العلامة يوسف القرضاوي الذي جاء بين يدي كتاب "نهاية المطلب في دراسة المذهب" الذي حققه المرحوم الدكتور الديب؛ حيث يقول في الجزء الذي خصصه لمقدمات الكتاب 1/ 58 وما بعدها:

"أما المحقق فهو الأخ الصديق الصدوق الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب؛ الذي أعرفه منذ كان طالبًا في القسم الابتدائي بمعهد طنطا الديني، وتربطني به منذ ذلك الزمن صلة وثيقة، لم تزدها الأيام إلا قوة، وهو الأمر الذي يجعل شهادتي فيه شهادة خبير به، عارف لمقامه وقدره، وهو ما يجعلنا نقدر شهادتنا التالية فيه حيث

نقول: "فالدكتور الديب رجل عالم بحاثة، دءوب، طويل النفس، دقيق الحس، نافذَ البصيرة، متمكن من مادته، قادر علىٰ الموزانة والتحليل، له ملكة علمية أصيلة يقتدر بها علىٰ الفهم والفحص والنقد"، وتأمل هذا الوصف الذي اجتزأناه، جزء من مقدمة طويلة للعلامة القرضاوي في بيان ملكات الديب، العلمية والأخلاقية دال علىٰ عظيم الجهد الذي بذله في خدمة ما أخرج للناس من علم.

معرفتي به

تعود معرفتي بالدكتور عبد العظيم الديب إلىٰ نحو من عقد ونصف العقد من الزمن، أي ما يقرب من أربع عشرة سنة، تعددت فيها لقاءاتي شخصه الكريم، فاتضح لي عن قرب خصائص نفس عظيمة، ودودة، بارَّة، كريمة، وقد كان وفيًّا حسن العهد، يتعهدني في كل زيارة للقاهرة فيتصل بي، وأزوره وأجالسه الساعات الطويلة في منزله العامر رَحِمَهُ اللَّهُ بمدينة نصر، فيبسط في الحديث عن تاريخ طويل لم أكن من شهده، وعن رجالٍ كبارِ النفوس أثروا حياة الإسلام في العصر الحديث.

وأشهد الله تعالىٰ أنه- ومنذ سنة 2001م حتىٰ صدور تحقيق كتاب "نهاية المطلب" للجويني- دائم الاتصال من القاهرة ومن الدوحة، ومن لندن أحيانًا في بعض رحلاته العلاجية؛ مهمومًا بلغة الكتاب وببعض أساليبه، متنظرًا علىٰ الهاتف بالساعات مناقشًا ومستفسرًا، وباحثًا عن عبارة أو لفظة في عدد من المعجمات التي لم تكن متاحة لديه، وهو مَن هو علمًا وأستاذية.

وقد بلغ من بره وفضله وإخلاصه؛ أن جمع أسماء كثيرة فيما سماه الشكر الواجب لمن قال إنهم عاونوه بعض المعاونة في خدمة الكتاب الكبير "نهاية المطلب"، وأنت تعجب وتكبر نفسًا كان يحملها بين جنبيه عندما يشكر جمعًا عجيبًا من العلماء الكبار الأفذاذ من أمثال: الطناحي، والقرضاوي، وعنتر حشاد، ومحمد محمد مقلد، وعلي الكبيسي، وأكمل الدين إحسان أوغلو.

ولا ينسىٰ في هذا السياق أن يرفع من قدر عدد من شباب أهل العلم، فيذكرهم ليعطي درسًا في الإخلاص، وتقديم الدليل الرائع علىٰ تواضع النفس وتوريث العلم، عندما يشكر مصطفىٰ شاهدي، وإبراهيم الأنصاري، ومحمد المصلح، والدكتور

خالد فهمي على ما جاء في المقدمة 1/ 14؛ وهو الأمر الذي يبرهن على تبتل وديانة ظاهرة، وإخلاص رفيع في ترقية أبنائه.

وقد كانت فرحته بصدور هذا الكتاب غامرة، وقد استشعر بعده أنه يدنو من لقاء ربه على ما أخبرني به في زيارة له في السابع والعشرين من شهر رجب المحرم سنة 1429هـ الموافق الثلاثين من شهر يوليه سنة 2008م.

رحل عبد العظيم الفقيه والأصولي، والمحدث والمؤرخ والمفكر الإسلامي بعد أن ملأ الدنيا علمًا وفضلًا، لقد عاش الرجل وفيًّا لشيوخه، بارًّا بأصحاب الفضل عليه من شيوخه القدامي والمعاصرين، ومكث عمرًا طويلًا يقدم المثال الناصع على الدقة والأمانة العلمية، والصبر في محاريب التأليف والتحقيق منذ التحق بالعمل الجامعي سنة 1976م بجامعة قطر، مسهمًا في تقدمها، ومعليًا من منزلتها، مع آخرين من أصحاب القمم العلمية الراقية ممن قضى نحبهم، وممن بقي من الكرام.. مد الله في الخير أعمارهم.

رحم الله الدكتور عبد العظيم محمود الديب الذي كان بدرًا يضيء الطريق، رحل وخلف وراءه أقمارًا من مؤلفاته وتحقيقاته وبحوثه؛ مما نرجو الله تعالى أن تكون في ميزان حسناته، وأن يدوم أجرها له، وأن يكون سببًا لإكرامه عند ربه، رحل الرجل وقد نصح لأمته عالمًا ومعلمًا ومؤلفًا ومحققًا، اللهم ارحم أبا محمود، وارض عنه بمنك وكرمك، آمين.

أنور الجندي..
حياة مثمرة ورحيل هادئ

ربما يفوت الحياة أن تفيد من كنز حي حتىٰ يموت، فإذا كان ندم الناس ساعة لا يجدي الندم، ذلك صحيح إلىٰ حدٍّ بعيد، وإن كان يقلل من الأسىٰ بقاءُ نتاج هذا الذي رحل، وصدق الشاعر القديم عندما قال:

المرء ما دام حيًّا يُستهان به
ويعظم الرُّزءُ فيه حين يُفتقد

وقد افتُقد أنور الجندي، وربَّما صحَّ من غير مبالغة بعض معنىٰ ذلك الافتتاح. رحل أنور الجندي في هدوءٍ ربما فاق هدوء حياته في ليلة الاثنين الرابع عشر من ذي القعدة سنة 1422هـ الموافق الثامن والعشرين من يناير سنة 2002م.

ولد الراحل الكريم في سنة 1335هـ = 1917م في أسيوط، ولا شك أن لهذا المولد أثرًا في تكوينه الخلقي والنفسي والعلمي، ذلك أن أسيوط باعتبارها عاصمة الصعيد- كما تردد الأدبيات الإعلامية- كانت مسقط رأس، أو مقر عمل لأسماء معروفة في مجال العمل الإسلامي فكرًا وحركةً من أمثال: الباقوري، وسيد قطب، وحامد أبي النصر، وغيرهم.

بالإضافة إلىٰ أن الموقع جغرافيًّا وسياسيًّا كان له خصائصه المميزة بما فيه من مخزون قيمي تقليدي وسمات اجتماعية يمكن أن توصف بالقسوة.

وأما من ناحية التوقيت فيكفي أن سنة الميلاد كانت بداية الانتهاك غير المسبوق للحقوق الإسلامية في الأرض المقدسة بفلسطين: إذ كما هو معلوم، عام مولده هو عام مولد وعد بلفور، وقد كان والده تاجرًا ملمًّا بمجريات الأحداث، متفقًا بقدرٍ صالح للوعي بما يدور، وقد بدت علامات الاهتمام بالفكر العربي الإسلامي منذ سنٍ مبكرة، عندما نشر بحثًا عن حافظ إبراهيم ابن بلدته ديروط في مجلة أبولو سنة 1933م، وهو دون العشرين بثلاث سنين، ثم انتقل إلىٰ القاهرة، ثم واصل دراسته للغة الإنجليزية وآدابها

بالجامعة الأمريكية، وهو الأمر الذي مكّنه من تتبع شبهات المستشرقين وذيولهم، والرد عليها في واحد من أشهر الإسهامات التي قدمها للفكر الإسلامي المعاصر.

سمات أساسية...

إن قراءة سيرة حياة الراحل الكريم يُلحظ منها محطات أساسية، أو قل سمات رئيسية، أعانته ومكّنته من إتمام مشروعه الفكري، وإنتاج ذلك التراث الضخم الذي خلّفه، وهو ربما اقترب من مائة عنوان متفاوتة الحجم، متوزعة على جوانب الفكر الإسلامي وأعلامه المختلفة.

على أن أحدًا من المُطّلعين على نتاج الرجل لا يخطئ بصره حقيقةً ساطعة؛ مؤداها أن الرجل كان راهبًا في محراب الفكر الإسلامي، مجاهدًا يحمل سلاحه، رأسه وقلبه وقلمه ووقته وعزلته، منافحًا عن الله ورسوله ودينه، مُدركًا لجلالة المهمة التي يضطلع بها.

في ردٍّ على سؤالٍ له: من أنت؟

أجاب فيما نقله عنه الدكتور محمود خليل المذيع بإذاعة القرآن الكريم بمصر (انظر مقالته: أنور الجندي رائد الأصالة والتنوير ص 106 بمجلة المنار الجديد عدد 18 ربيع 2002م): "يقول العلامة الراحل حين سُئل من أنت؟ قال: أنا محامٍ في قضية الحكم بكتاب الله، ما زلتُ موكلًا فيها منذ بضع وأربعين سنة، منذ رفع هذه القضية الإمام الذي استشهد في سبيلها قبل خمسين عامًا للناس؛ حيث أُعدُّ لها الدفاع وأُقدمُ المذكرات بتكليفٍ وعقدٍ وبيعةٍ إلى الحق تبارك وتعالى، وعهدٍ على بيع النفس لله والجنة".

عطاء وافر...

يمكننا أن نقرر أن عطاء أنور الجندي- رحمه الله- تركز في المحاور التالية:

الأول: التعريف بالإسلام نقيًا غير مكدّر، والتعريف بمطالب الحركة الإسلامية الوليدة حيث يرى ذلك تكليفًا، وقراءة الكتب التالية أكبر دليل على ما نقرره، وبعض هذه الكتب هي:

البيت الإسلامي، والشخصية الإسلامية، والإسلام يزحف، والقرآن دستور الإنسانية.. إلى غيرها.

الثاني: مواجهة أفكار الغرب والاستشراق وتابعيه في الداخل، وتصحيح الأخطاء التي طالما أثارها خصوم الله وأعداء الإسلام والجاهلون بحضارته، وقد كانت مواجهة أنور الجندي لهذه الأفكار شاملةً مستوعبة، استغرقت كل العلوم العربية والإسلامية، فقهًا وتفسيرًا وشريعةً وشعرًا وأدبًا وتاريخًا إلىٰ غير ذلك، وقد كان ذلك بعض آثار التربية الإسلامية التي تربَّىٰ عليها في حضن جماعة الإخوان المسلمين التي تقرر ركنَ الشمول في حركتها بالإسلام.

الثالث: التصدي لرموز التغريب في الداخل، الذين انطلىٰ علىٰ كثيرٍ من أبناء المجتمعات الإسلامية كتاباتهم بفعل الآلة الإعلامية، ولقد كان رجلًا شجاعًا صريحًا قويًّا، يواجه الجميع دون النظر إلىٰ حجم ذلك الذي يواجهه، هادمًا ما يروِّج له، ومراجعة الأسماء التالية مبنية بذلك مؤكدة له:

الدكتور طه حسين الذي كان يرىٰ فيه "قمة أطروحة التغريب وأقوىٰ معاقلها"، ومن ثَمَّ أفرد له أكثر من كتابٍ، لعل أهمها وأخطرها "طه حسين في ميزان الإسلام"، ولطفي السيد وقاسم أمين وجرجي زيدان وغيرهم.

وهذه الأسماء وغيرها ليست لنكرات أو أغمار، لا. وإنما هي أوثان فكرية، التوجه لهدمها يحتاج إلىٰ تأهيلٍ وتسلحٍ واستعدادٍ من جانب، ويحتاج إلىٰ قلبٍ جسورٍ، وعقلٍ واعٍ، ونفسٍ علىٰ يقين مما تؤمن به وتدعو إليه من جانب آخر.

صفات فريدة

وقد ساعد أنور الجندي علىٰ إتمام رسالته؛ طبيعةٌ نفسيةٌ زاهدةٌ، لا تركن إلىٰ ترف الحياة أو حتىٰ قدرٍ من متطلباتها التي يرىٰ الكثيرون أنها من باب الضرورات، كما كان خفيف المسئولية؛ لم يرزقه الله سوىٰ بنت واحدة، هي الفاضلة الكريمة الأستاذة فايزة التي تزوجت منذ زمان مبكر، كما أنه عرف طبيعة الطريق، وأثَّر فيه تضييق النظام الناصري عليه، وعرف لذة الابتلاء في سبيل دينه عندما اعتُقل عامًا كاملًا.

كما أعانته سجيَّةٌ صبورة متحملة، يقول عن طبيعة جلوسه للعلم: "قرأتُ بطاقات دار الكتب وهي تربو علىٰ مليوني بطاقة، وأحصيتُ في كراريس بعض أسمائها، وراجعت فهارس المجلات الكبرىٰ، كالهلال والمقتطف والمشرق وغيرها.

وانظر إليه وهو يقول في أثناء إعداده لبعض كتبه: "لقد اضطررتُ وأنا أعدُّ الموسوعة الإسلامية العربية إلىٰ أن تكون لي قائمة تضم أسماء الكتب التي تلزمني وأرقامها، حتىٰ لا يضيع وقتٌ في البحث عن هذه الأرقام كل يوم [إذ كان يعتمد علىٰ مكتبة دار الكتب المصرية]، ومن ثم عكفتُ علىٰ دراسة ما يزيد علىٰ نصف مليون بطاقة، أخذتْ من الوقت أكثر من خمسة أشهر راجعت فيها بطاقات يحتويها أكثر من 180 صندوقًا، وأعددتُ من ذلك مجلدًا يحتوي علىٰ أكثر من خمسة آلاف كتابًا، بالإضافة إلىٰ الفهارس الضخمة للصحف والمجلات التي صدرت منذ عام 1871م حتىٰ اليوم".

هذا الذي يرويه الأستاذ أنور الجندي رَحِمَهُ اللهُ واحد من أهم مبادئ البحث العلمي المتمثلة في جمع المادة العلمية وفحصها ونقدها وتقويمها، وهو مبدأ ربما أغفله بعض من ينتمون إلىٰ دائرة البحث العلمي، ممن يتباهون بأنهم ينتهون من بحثٍ من بحوثهم في شهر لا غير! وبعض هؤلاء منتمٍ إلىٰ الجامعات عقل البحث العلمي! هذه الأخلاق لا يمكن تصورها إلا من رجلٍ صاحب رسالة وصاحب مشروع فكري علمي، وهل أعظم من مشروع ينضح وجه الإسلامي ويغسله وينافح عنه، ويبيض ساحته من كل رميات الحاقدين المعاندين؟!!

مدافع عن الإسلام

والحق قاضٍ بأن نقرر أن أعظم عطاء للرجل تمثَّل في مواجهة تحديات الاستعمار بشبهات التغريب، ومراجعة فهرس كتاب واحد من مكتبته التي خلَّفها مؤيدٌ لما نقرره ونقوله، ولنقف قليلًا أمام كتابه "الإسلام والثقافة الغربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب" (مطبعة الرسالة) يقول في افتتاحه: "منذ سنة 1960م وسَّعت أبعاد دراستي، فلم تعد قاصرة علىٰ الأدب العربي المعاصر والصحافة العربية: تاريخها وتطورها وأعلامها، وأوغلت في مجالٍ أوسع أُفقًا وأرحب، ذلك هو مجال الفكر العربي المعاصر في لقائه مع الفكر الغربي بشقَّيْه، ومن هنا أصبحت دراستي تضم الاجتماع والدين والفلسفة والحضارة والتراث".

بهذه الرؤية الشاملة- التي لا يصح تقييم عطاء أنور الجندي إلا في ضوئها- افتتح

الرجل واحدًا من كتبه التي تدل على منحى فكره، وتعامله مع قضايا الفكر الإسلامي.

لقد التفت الجندي إلى قدرة الفكر الإسلامي على إعادة هذه الأمة إلى مكانه الحق، والتفت إلى حقائق اتَّسم بها ذلك الفكر في مسيرة تاريخه الطويل مما كان، وظهر في تطبيقات الفكر الغربي الحديث من الاعتماد على البراهين والتجربة والمشاهدات.

وفي هذا الكتاب المرجع تناول أنور الجندي ما يلي:

1- تحديات الاستعمار وضرورة مقاومته، ووجوب التحديث، وفتح باب الاجتهاد؛ لنتمكن من المقاومة الرشيدة.

2- من الاستعمار إلى التغريب، فعالج حركة التبشير والاستشراق وحملة الغرب على الإسلام والعرب.

3- حركة التغريب تخطيطًا ودعاة، وفي هذا الفصل تناول كتابات أساطين الأدب والفكر الغربي من أمثال فولتير، وكرومر، وليوتي، ودانلوب، ورينان، وداركور، وهاناتو، وزويمر، ومارجليوث، ولورانس، وهنري لامنس، ولويس شيخو، ولويس برتران، ودويلكوكس، وفنسنك، وجلوب، وجولدتسيهر، وهذه الأسماء تغطي مساحات متنوعة من حملة الغرب على النبي- صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- وعلى القرآن الكريم، وعلى علوم الشريعة، وعلى تاريخ الأمة ولغتها وحضارتها.

4- شبهات التغريب، فردَّ ما يثار حول النبي الكريم- صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- من شبهات، وما يُثار حول الإسلام من شبهات، حول مدنيته وثقافته، والتقدم وحرية الفكر، والعالم والعلم، وحول عقيدته، وحول مسألة اضطهاد والفكر، والتصدير والرسم، والنفسية العربية، واستمداد الفكر الإسلامي من غيره.

كما دافع عن الشبهات المثارة حول السُّنَّة، وشبهة علاقة الفكر الروماني في مفهوم الشريعة الإسلامية، إلى غير ذلك من الشبهات، وقد استطاع أنور الجندي أن يُظهر أن الفكر العربي والإسلامي الحديث في مجال الدفاع عن مقوماته، يؤكد هذه الحقائق

القاضية بنقاء صفحة الإسلام، ونقاء تشريعاته ورجاله، وهو ينطلق من هذه الدفوع؛ لأنه مؤمن أنه في ظل الوضع الحضاري الراهن، وفي ظل الإيمان بقيمة المفاهيم (تقدم مبدأ الفهم أولًا قبل العمل) تبدو أهمية مواجهة تحديات الاستعمار، ومواجهة شبهات التغريب في مجال الإسلام والثقافة العربية، باعتبار تلك المواجهة سبيلًا إلىٰ تحرير الفكر العربي والإسلامي، وصولًا إلىٰ تحرير المؤمنين بهما، العاملين من أجل نصرتهما.

إن حمل أمانة هذا الدين، وأمانة هذه الأمة في سعيها لليقظة وحركتها للنهضة؛ لا يمكن أن يكون وفي نفس العاملين ما يفتُّ من قوتها، ويُضعف من عزمها، وينال من تقدمها؛ إذ النفس الواهنة المنهزمة المتحركة بإحساسٍ من العار والضَّعة والذِّلة لا يمكنها أن تقدم نهضة أو تشعل يقظة.

لهذا عاش أنور الجندي.. ولهذا صبر وضحىٰ.. وبمثل هذه الروح المؤمنة الآملة في قيمة الإسلام وفكره وقدرته علىٰ أن ينهض بالحياة، رابَطَ ما يزيد علىٰ ستين عامًا لم يتحول، مجاهدًا عن دينه وأمته، حتىٰ جفَّ مِدَادُ قلمه وما جفَّ!

أنيس منصور
رحيل يحتاج إلى وقفة !

1- مدخل: لا يصح أن يصرفنا البكاء عن البناء!

ليس تهويشًا أن يقرر أحد أن مصر اليوم في مرحلة فارقة من عمر حضارتها، وهي تستقبل تاريخًا جديدًا، وتستشرف أيامًا مغايرة في غدها.

وليس تهويشًا أن نقرر مع هذا الأحد أو ذلك أن مصر أشبه شيء بمريض خرج لتوه من عملية جراحية خطيرة، تحتاج إلىٰ مناخ خاص حتىٰ تتعافىٰ، وتسترد صحة غابت عنها زمانًا طويلًا.

وفق هذا السياق فإن أمانة العلم، وحرمة الكلمة، وشرف الطبابة تقتضي أن ننصح لمصر في كل ميادين الحياة: سياسة واجتماعًا وثقافة وفكرًا.

وإذا كان ما مر من زمان شهد اختلاطًا رهيبًا بين محددات الهوية الثقافية لمصر، و علا فيه صوت كثير من الأقلام الأدبية والفكرية ، وصدرت إلينا في حقبة السنين الممتدة قبل ثورة يناير بنحو نصف قرن علىٰ أنها رموز الحركة الثقافية لمصر، وعلىٰ أنها أعلام ثقافتها، وموجِّهو عقلها ووجدانها، و مشكِّلو تصوراتها فإن الأمر اليوم مختلف تمامًا ،وذلك أنه يلزم التنبه لخطر أي خلط في هذا المجال، ولا سيما ومصر تعيد اكتشاف نفسها، وتسترجع طريقها الذي طمرته مخلفات حقبة أرادت جرَّ مصر بعيدًا عن هويتها وشخصيتها، ولعل القارئ الكريم يتساءل عن سر هذا المفتتح، ومعه الحق ولعله يتساءل أيضًا عن سر الربط بين مسألة المقال وملامح المرحلة، و معه الحق أيضًا.

لقد فزعت عندما طالعت في غمرة البكاء علىٰ الرحيل الذي شمل الكاتب الأستاذ أنيس منصور (1924–2011م)وتعيينًا من بعض الذين استثمروا عنوان كتابه (وجع في قلب إسرائيل)– من يجعله مَعلمًا من معالم ثورة 25 يناير !

وفي هذا الذي كان من بعض من فعل هذا غفلة ظاهرة، علىٰ حسن الظن بهم، أو

تشويه للطريق، وتخليط على الناس، واستهانة بكرامة القلم، وحرمة العلم على حقيقة الأمر، إن قصدوا إلى ما قصدوا إليه، وهم عامدون، واعون لما يصنعون.

وهو الأمر الذي حملنا على أن نقرر أنه لا يصح أن يصرفنا بكاء من رحل عن حقيقة أمره، وسهمته في الفكر والثقافة المعاصرة ، ولا سيما ومصر تتطلع إلى البناء، بعد زمان طويل من التيه، والانصراف عن موقعها.

2- أنيس منصور صوت ضد هوية مصر!

كان مما علمه الناس، واستفاض أمره، وانتشر، وسجله الرجل بصوته وقلمه، عبارته الشهيرة "أنا مع التطبيع"!

وقد كان هذا الموقف كافيًا؛ ليؤخر رتبة هذا الكاتب، ويحيطه بسياج يجعله منبوذًا من الحس الوطني، خارجًا عن روح هذا الحس الوطني، مصادمًا للروح المصرية التي يسكنها رفض الكيان الصهيوني، والاشمئزاز من العلامات الصادرة عنه0

وقد كان هذا الموقف كافيًا أيضًا أن يضم الكاتب الراحل إلى القائمة السوداء لكتاب مصر، ومبدعيها؛ لأن الإيمان بالتطبيع، والدعوة إليه، والترويج لفكرته، والانتصار لها؛ خيانة لثقافته الأصلية، وخيانة للدم الطاهر الذي افتدى به شهداء مصر على مدى عقود طويلة؛ أرض هذا الوطن.

لقد دافع الرجل عن التطبيع، وحاول أن يخلع عليه منطقًا، وسافر إلى الكيان الصهيوني أكثر من مرة.

وهذا كله لا يستقيم مع ما أجمع عليه المثقفون الوطنيون، وأجمعت عليه المؤسسات الثقافية الوطنية في مصر.

وهذا كله يصادم هذه الضجة حول مكانة الكاتب الراحل، إن الموت حرفة، نعم!، ولكن العاطفة غير المنضبطة توشك أن تدخلنا مرة أخرى بيت التيه، بعد أن أوشكنا أن نخرج منه إلى طريق النور.

إن كل داعية إلى التطبيع، راض بالسفر إلى الكيان الصهيوني، مدافع بصوته وقلمه عنه، لا يستحق أن نبكيه، ولا أن نذرف دمعة واحدة عليه، فضلًا عن أن نجعله معلمًا،

أو هاديًا لجموع الجماهير في هذا الوقت الحرج من عمر الوطن.

3- أنيس منصور: عمر من الترسيخ لثقافة الخرافة!

علىٰ امتداد زمني طويل.. طويل، أصدر أنيس منصور عددًا كبيرًا من الكتابات، وقد كان المأمول منه أن يصدر فيما صدر عنه أن يعنىٰ بقضايا الفكر والأدب المنتمي، ولا سيما أنه ظهر في حقبة فاصلة في تاريخ مصر الحديث و المعاصر بعد رحيل الاحتلال الإنجليزي، وافتتاح مصر لحركة تحررها الوطني، وحاجة هذه المرحلة، وما يحيط بها إلىٰ فكر جاد يؤسس لقيم العقل والعمل معًا.

وهو الأمر الذي لم يكن من الرجل بحال، فعلىٰ العكس من ذلك يمكن أن يعد أنيس منصور واحدًا من أعمدة التأسيس لثقافة الخرافة، والوهم، وتوطين التفكير غير العقلاني، مع أنه كان دائم المفاخرة بأنه ابن بارٌّ بالفلسفة، وهي ضد هذا النمط من الثقافة.

لقد كتب أنيس منصور مجموعة من الكتب رسخت لهذا النمط المدمر من الثقافة، ولا سيما في أوساط كثير من الشباب مدفوعًا بالهالة الإعلامية التي طالما أحاطت بالراحل من قبل الإعلام الحكومي؛ بسبب من دفاعه عن التطبيع مع الكيان الصهيوني.

لقد كتب الرجل: (أرواح وأشباح)و(الذين عادوا إلىٰ السماء)و(الذين هبطوا من السماء) و(لعنة الفراعنة)، و هي جميعًا تخدم هذا الباب المدمر الذي يوشك أن يعالن بموقف معاد للقيد الإلهي المهيمن علىٰ الحياة.

ويؤازر ذلك ما خلفه الرجل من كتابات في أدب التسلية، وأدب التسلية بما هو أدب ترفيهي- قديم معروف، تاريخه عريق، وأهدافه النفسية والسياسية والاجتماعية والتعليمية معروفة أيضًا بما هو فرع من فروع شجرة الأدب الساخر.

ولكن ما خلفه أنيس منصور في هذا المجال، كان أشبه شيءٍ بقوائم النكات والمضحكات الخالية في الغالب من التخديم علىٰ القضايا النفسية والاجتماعية والسياسية، وغيرها.

لقد كتب الرجل (الكبار يضحكون) فكان عبارة عن قائمة مطولة تجمع نكات

عدد كبير من الشخصيات التي عرفها، والتقاها.

واجتماع الفكر الخرافي، وأدب التسلية الفاقد الهدف والقيمة لا يرقىٰ بصاحبه إلىٰ أن يكون كاتبًا كبيرًا، أو معلمًا للعقل المصري في هذه المرحلة تعيينًا.

4- ماذا يتبقىٰ من أنيس منصور؟!

إن ما مر من كون الراحل من أئمة المطبعين مع الكيان الصهيوني، ومن كونه من أعمدة من دعَّم ثقافة الخرافة والوهم؛ كان كافيًا بأن يسقط اسم أي كاتب، ولكن خدمة النظام السياسي، أتاحت للرجل حضورًا إعلاميًّا قدمه للناس مفكرًا ومبدعًا مرموقًا.

وقد ساند هذا النظام أو ذلك، وأعطىٰ للرجل الثمن علىٰ مناصرة مواقفه، فسبق إلىٰ الجائزة الأعلىٰ رسميًّا في مصر 2001م، وتدخلت الحكومة لتؤخر رتبة العلامة الراحل الدكتور / شوقي ضيف، وهو مثال علىٰ سرقة مصر، وإدخالها بيت التيه عن عمد!

ولكن ذلك كله لا يحملنا علىٰ ألا نكون منصفين، ولا سيما أننا نكتب وقد صار الرجل تاريخًا، وأننا نصدُر في تقييمنا لمنجزه الفكري عن تصور إسلامي، و هو التصور الذي يحرص علىٰ الإنصاف والموضوعية.

وبالإمكان أن نقرر أن ثمة أمورًا صالحة للبقاء من منجز الرجل، إذا ما تساءل المتسائلون عن الذي يمكن أن يتبقىٰ من الرجل وتراثه.

وفيما يلي محاولة لبيان بعض هذه الأمور:

أولًا: إسهامه في الترجمة إلىٰ العربية:

عُرف أنيس منصور بإتقانه عددًا من اللغات الأوروبية، والحق أنه نقل عددًا من الكتب المهمة عن هذه اللغات، وقد تركز غالبها في الفلسفة، ولا سيما في الفلسفة الحديثة والمعاصرة.

ولعل أهم ما نقله الرجل تمثَّل في ترجمته كتاب :(العظماء مئة وأعظمهم محمد ﷺ)، وهو نموذج جيد لما ينبغي أن ينشغل به المثقفون المنتمون. وفي هذا السياق يُثمِّن أبناء الصحوة الإسلامية، وعموم المثقفين المنتمين لهوية هذا الوطنِ العملَ

باعتباره علامة مضيئة في تاريخ الرجل الفكري والثقافي.

ولكنهم سيقفون طويلًا أمام رفضه ترجمة كتاب بروتوكولات زعماء صهيون؛ خوفًا أو خدمة للفكرة التطبيعية مع هذا الكيان المجرم.

ثانيًا: إسهامه في أدب الرحلات:

ترك أنيس منصور عددًا من الكتابات في أدب الرحلة من مثل: (حول العالم في 200 يوم) و (أعجب الرحلات) وغيرها.

وأدب الرحلات فن قديم استُثمِر قديمًا في خدمة السياسة الإسلامية، وصدرت أدبياته قديمًا عند المسلمين عن تصور إسلامي مدعوم بالدعوة إلىٰ السياحة في الأرض والسعي في مناكبها، واكتشافها، والتعارف علىٰ شعوبها.

وبعض من هذا ظاهر في المحاولات المعاصرة في هذا المجال، مضافًا إليها السعي نحو خدمة وظائف أخرىٰ متنوعة منها الوظائف المعرفية، والتعليمية، والوجدانية.

وكثير من كتابات الرجل في هذا الميدان لا تخلو من نفع، ولكنها عند مقارنتها بالمحاولات الموازية لها زمنيًّا يحكم عليها بتراجع قيمتها.

إن مقارنة ما كتبه إبراهيم عبد القادر المازني مثلًا في بعض رحلاته أعلىٰ قيمة مما كتبه أنيس منصور.

وإذا كانت فلسفة أنيس في الكتابة في أدب الرحلة عنده تعتمد قضية الإدهاش والإغراب مدخلًا لتحقيق المتعة النفسية والعقلية، فإن ما كتبه الدكتور/ محمد المخزنجي مثلًا علىٰ امتداد زمني طويل نسبيًّا، ثم جمعه في كتابه الممتع: (جنوبًا وشرقًا: رحلات ورؤىٰ) يوقفنا علىٰ فارق ما بين المثقف المنتمي للوطن الذي يستجلي أهدافًا ظاهرة النفع، وهو ما يظهر في حالة المخزنجي، وبين المثقف الذي يتغيًّا الإدهاش والإغراب بلا قيمة موجهة وهو ما يظهر في النموذج المقابل!

ثالثًا: التراجم للمعاصرين:

لقد كان لاقتراب أنيس منصور من النظام الحاكم في حقبة السادات ومن جاء بعده

بدرجة أقل- أثره في معرفة الرجل لعدد كبير من أعلام مصر في المجالات المختلفة.

و هذه المعرفة نافعة فيما قدمه من معلومات تاريخية حولها، تسهم في كثير من المجالات، ويمكن اعتبارها نوعًا من التراجم لهؤلاء الرجال، ولا سيما في ظل تراجع المصنفات في تراجم المعاصرين عمومًا.

لقد ترك الرجل الكتب التالية (عاشوا في حياتي)و (في صالون العقاد كانت لنا أيام) وهي كتب تراجم في بعض زوايا النظر إليها.

صحيح أن هذين الكتابين صدرا باعتبارهما من أدب السيرة الذاتية، ولكنهما نافعان فيما يقدمانه من معلومات حول عدد من المفكرين والمثقفين والعلماء والساسة المعاصرين، شريطة أن تصح مرويَّاته عنهم.

لقد رحل أنيس منصور، وخرج الإعلام علىٰ الناس ينعاه حاشدًا في هذا النعي أوصافًا كثيرة، أرجو أن يفحص أمرها السامعون، وألا يصرفهم أمر بكاء الرجل عن تقديره سهمته في الثقافة المصرية المعاصرة، ونحن نستقبل عصرًا جديدًا يحتاج إلىٰ الوقوف علىٰ حدود التمايز بين الرجال والمؤسسات والانتماءات.

ولا يصح بحال أن يصدر أنيس منصور إلينا علىٰ أنه من آباء الثورة المصرية، أو معلمًا لثوارها؛ لأنه عند النظر الصحيح يوشك أن يكون أبًا من آباء الثورة المضادة، أو علىٰ الأقل من معوقي تقدم مصر ثقافيًا وفكريًا.

توفيق الشاوي..
الوعي بفريضة الوحدة الإسلامية

لست أبالغ حين أقرر أنني لم أفهم كيف جاز للنفر الكرام من صحابة رسول الله ﷺ أن يتركوه مسجًّىٰ في بيت عائشة رضي الله عنها يوم انتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، وأن يتركوا أمر تجهيزه للدفن لبعضٍ من آل البيت، وأن يُسرعوا إلىٰ سقيفة بني ساعدة؛ منعًا لفتنة تقود إلىٰ أن ينفرط عقد وحدة الأمة لو لم ينتصب إمام ليخلف رسول الله ﷺ في قيادة الأمة؛ طلبًا لوحدة الصف.

لم أفهم هذا الذي حدث قديمًا عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهما من هما حبًّا وتعلُّقًا بالنبي الكريم ﷺ، إلا بعد أن قرأت توفيق الشاوي، وعكفت علىٰ جهوده العلمية والحركية لخدمة فريضة الوقت الغائبة في هذا العصر؛ ألا وهي فريضة الوحدة الإسلامية.

وتوفيق الشاوي مثال فذٌّ في وعيه وجهاده العلمي والحركي؛ توجُّهًا إلىٰ خدمة قضية الوحدة الإسلامية بحسبانها فريضةً أكثر من كل الفرائض، وبحسبانها ضرورةً يعلو شأنُها باعتبار الوقت المعاصر.

أنت لا يمكنك أن تخلي ذهنك من مشهد قرآني بديع، يرقىٰ بقيمة النظر إلىٰ الوحدة وتقديمها علىٰ غيرها في مقام تربية الشعوب وقيادة الأمة، وتقدير أمرها حق التقدير، وتثمين جهاد توفيق الشاوي في هذا الصدد، وهذا المشهد هو ما يواجهك في هذا الحوار بين موسىٰ وهارون عليهما السلام؛ بعد ما رجع من لقاء ربه ووجد بني إسرائيل قد وقعوا في خطيئة عبادة العجل، يقول رب العزة تبارك وتعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [سورة طه].

وهذا الذي تلوته عليك في هذه الآيات الكريمة لا تجد من يجسِّده في العصر الحديث تجسيدًا، كأنما صار ترجمةً صاغت كيان شخص وملكت عليه نفسه؛ كما

يمكن أن تجده في شخص توفيق الشاوي رحمه الله تعالىٰ.

ولقد توزَّع جهاد توفيق الشاوي في خدمته لهذه الفريضة الغائبة علىٰ محورين أساسيين، هما:

1- المحور الحركي.

2- المحور العلمي.

1- توفيق الشاوي.. مفاوضًا ومنسقًا من أجل الوحدة

إن الذين أتيح لهم أن يعرفوا جهاد "الشاوي" في ميدان خدمة قضية وحدة الأمة يلمحون عددًا مهمًّا من العلامات يمكن إجمالها مبدئيًّا فيما يلي:

أ- التفاوض مع كثير من وفود البلدان العربية والإسلامية منذ زمن طويل في جهادها ضد الاحتلال الأجنبي مفوَّضًا من قِبَل جماعة الإخوان المسلمين، وهو ما تجلَّىٰ بأعلىٰ صورة في خدمة قضايا التحرير لبلدان المغرب العربي، ولا سيما المغرب والجزائر من أيام دراسته للدكتوراه في فرنسا من خمسينيات القرن الماضي، وعلىٰ التعيين منذ 1945م سنة إيفاده مبعوثًا لدراسة القانون في باريس.

ب- التعاون مع المؤسسات والأحزاب والتكتلات المختلفة، وأيًّا ما كان توجهها، وهو ما تجلَّىٰ في المنزلة الراقية التي شغلها بجوار قيادة الجامعة العربية إبَّان بداياتها الأولىٰ، ولا سيما بجوار عبد الرحمن عزام الأمين العام الأول لها.

ج- ومخطئٌ من يتصور أن حركة الشاوي- رحمه الله- في هذا الميدان كانت حركة رجل هاوٍ، انتدب نفسه لخدمة قضية وحدة أمته؛ إحساسًا من ذات نفسه بخطر التمزق والتشرذم.. مخطئ من يتصور هذا فقط، وإنما كان يتحرك مدفوعًا بوعي تدعمه آليات التنظيم، ووفق خطط إستراتيجية حاكمة، انطلاقًا من التحاقه بالعمل في قسم الاتصال بالعالم الخارجي الإسلامي منذ 1937م علىٰ ما يقرر هو قائلًا (ص 15): "منذ عام 1937 عملت في قسم الاتصال بالعالم الإسلامي"، وهو النص الذي جاء محددًا التوقيت، بعد النص العام الذي قال فيه (ص12): "ولقد أيقنت- منذ بدأت كفاحي مع الإخوان المسلمين والعمل في قسم الاتصال بالعالم الإسلامي- أن أبناء أقطار إفريقيا الشمالية هم أقرب الشعوب العربية إلىٰ فكرة الوحدة الشاملة، كما

يؤمن بها الإخوان، ويعتبرونها هو هدفهم الإستراتيجي الذي يعني وحدةً تضم المسلمين عامةً دون تفرقة بين العربي وغير العربي".

وفضلًا عما في هذه الفقرة المنقولة من مفتتح مذاكراته من إجمال الإشارة إلىٰ حركته المنضبطة بتصورات الحركة الإسلامية؛ تراه يواجهك بقضية حياته التي ملكت عليه وجدانه، ووجَّهت تفكيره وحركته، وهي قضية الوحدة الإسلامية بما هي فريضة شرعية وضرورة واقعية.

د- التوجه إلىٰ دعم الاقتصاد الإسلامي، وهو ما ظهر في اشتراكه وإسهامه في تأسيس بنك فيصل الإسلامي المصري، والتعريف بنظامه الأساسي، ثم تأسيس البنك الإسلامي بجدة.

هـ- التوجه إلىٰ خدمة التعليم الإسلامي الدولي، وهو ما انعكس بالإسهام في إنشاء مدارس المنارات في المملكة السعودية، ابتداءً من 1971، ثم الإسهام في الاتحاد العالمي للمدارس الإسلامية الدولية الذي أنشئ بإشراف منظمة المؤتمر الإسلامي سنة 1976م.

وهذه المحاور الحركية تصبُّ جميعًا في خدمة قضية العصر وكل عصر، وهي قضية اعتبار الوحدة الإسلامية فريضةً بل أُمُّ الفرائض.

2- توفيق الشاوي.. منظِّرًا لقضايا الوحدة الإسلامية

إن الفاحص لأعمال الشاوي العلمية يلمح سيطرة فكرة الوحدة الإسلامية علىٰ كثير من أعماله الفكرية (مقالات أو كتب كاملة)، وهو ما ظهر في توقيت مبكر، في صورة مقالات تبشِّر بأمة العرب باعتبارها أمة المستقبل في ارتباطها بالفكرة الإسلامية، وهو ما تجد أثرًا له في كتاباته حول فكرة الوحدة العربية الإسلامية الشاملة في مجلة (الرسالة) منذ أربعينيات القرن الماضي، وفي (الأهرام)، وفي جريدة (الشرق الأوسط) متابعةً وتعليقًا علىٰ الكتابات المتعاطية مع هذه القضية، لكن أهم الأدلة علىٰ هذه العناية المتواترة عنده بهذه القضية يتمثل في:

أ- ترجمته وعنايته بكتاب الوحدة الإسلامية من منظور جديد، وهو المشروع الذي صاغه الدكتور عبد الرزاق السنهوري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب "الخلافة" الذي كان في

أصله أطروحةً للدكتوراه بفرنسا سنة 1936م، ثم مصاهرة للرجل، وهي المصاهرة التي تمَّت بزواجه من ابنة الدكتور السنهوري، الدكتورة نادية، وهي الترجمة التي أنجزها ونشرها أولًا 1989م بمشاركة زوجه الكريمة.

ب- عنايته بالتأليف في قضايا هذه الوحدة من الناحية الدستورية فيما كتبه في سِفْرِه الفذّ "فقه الشورىٰ والاستشارة" 1992م، وفي كتابه "سيادة الشريعة الإسلامية" 1986م.

إن هذا النشاط العلمي في هذا الميدان أنتج عددًا من الحقائق التي ترسَّخت بتضافر الأدلة عليها، ومنها:

1- المستقبل للوحدة الإسلامية.

2- المستقبل للشورىٰ الإسلامية.

3- طريق الجهاد من أجل الوحدة الإسلامية طريق طويل متعدد المراحل.

4- طريق الوحدة الإسلامية يحتاج إلىٰ تضحيات وتضامن شعبي في اتجاهات متنوعة، وهو ما قدَّم عليه الدليل تلو الدليل حركيًّا وعلميًّا، ودفع من أجله سنواتٍ من السجن في عهد عبد الناصر، وسنوات من الغربة الطويلة القاسية.

3- توفيق الشاوي.. وحصاد الختام

إن الوقوف أمام هذا الرحيل المحزن والمأساوي لتوفيق الشاوي يحتِّم علىٰ أبناء الحركة الإسلامية -ولا سيما الشباب منهم- أن يرصدوا ما يمكن أن يكون بمثابة الحساب الختامي لرحلة كفاح امتدَّت زمنًا طويلًا.. وطويلًا جدًّا، ويمكن أن نقف أمام ما يمكن أن يكون قد تبقىٰ من هذه الرحلة العامرة الميمونة، وهو ما يصح أن نصوغه فيما يلي:

- أثبتت تجربة الشاوي أنه ليس أمام شعوبنا في المستقبل إلا أن تبني وحدتها ومستقبلها؛ علىٰ أساس الوحدة الشاملة التي تذوب معها الحدود القُطرية.

- إن أية وحدة لا تقوم علىٰ أساسيات من العقيدة الإسلامية ومن التاريخ الإسلامي هي وحدة لن تكون، وإن قامت فلن تُكتب لها الحياة، ومن ثم فإن مستقبل الوحدة الإسلامية مرهون ومرتبط بوجود التيار الإسلامي وتنامي قوته، وازدياد مدِّه وعنفوانه.

- إن التعاطي مع أية قضية من القضايا الإسلامية هي في المحصلة الأخيرة فرع عن قضية النهضة الإسلامية الشاملة.

- أثبتت التجربة التاريخية أن العرب والمسلمين كلمتان مترادفتان، وهو ما يعكس ضرورة التحامها التحامًا حقيقيًّا، ولا سيما أن القوىٰ الغربية لا تراهما إلا من منظور واحد.

- أثبتت تجربة الشاوي أن أخطر المكاسب الوقتية العاجلة تمثَّلت في إغراء بعض الوطنيين والقوميين بالاستقلال القُطري لضرب الوحدة الشاملة، وهو ما كان مخطَّطًا له من قِبَل القوة الأجنبية لاستبعاد الإسلام ذاته من تحقيق الوحدة الشاملة بعد أن عرفته القيادات القطرية بعد وَهْم الاستقلال والتحرر من نير الاحتلال.

- ألحَّ الدكتور الشاوي رحمه الله في كل ما تركه وخلَّفه من تاريخ تجربته العميقة الأصلية ومن كل ما خلَّفه من تراث فكري علىٰ حقيقة مهمة جدًّا؛ تقرر أنّ أمتنا أصيلة عريقة، ستظل صامدةً مجاهدةً، وأن التحرر الشامل والسيادة الكاملة سيتحققان يقينًا عَبْر بوابة التيارات الإسلامي.

إنني توّاقٌ لأن أختم هذه المقالة في وداع الشاوي بقوله: "لقد قضيت حياتي كلها عاملًا في ميادين الكفاح الوطني ممثلًا للفكر الإسلامي، ساعيًا لتوثيق التعاون بين الإسلاميين وغيرهم من الوطنيين والقوميين، بل والاشتراكيين، ولم يتوقف تعاوني مع كثير منهم إلا أخيرًا، بعد أن كشفت لي الأحداث أن منهم مَن أصبح يتبرأً من الإسلام بل يعاديه بعد الاستقلال، ولا يتورَّع عن تنفيذ خطط أجنبية للقضاء علىٰ دعاته".

لقد بقي من توفيق الشاوي أن أيًّا من الدعوات والشعارات الوطنية والقومية والاشتراكية والديمقراطية، لا يمكن أن يكون بديلًا عن الانتماء الإسلامي بعقيدته وأصالته!.

رحم الله توفيق الشاوي، نموذجًا فذًّا للإيمان بتفرُّد التصور الإسلامي، ونموذجًا فريدًا علىٰ عمق الوعي واليقين بأن الوحدة شيء أكبر من خيال فقيه، بل أكبر من أي كلام.

حلمي القاعود.. روح تسكن المئذنة!

إن آية من آيات الوعي بخصوصية الأمة الإسلامية تلوح في فرح النفس المعاصرة بظهور الأقلام المنتمية الحريصة علىٰ نهضة الإسلام، ورقي أبنائه المعاصرين. ولعل واحدًا من الدواعي الأصيلة التي تدفعني دفعًا للكتابة عن رموز الجهاد الدعوي والعلمي من الأساتذة الكرام المعاصرين يكمن في تجليات هذا الوعي بتمايز الأمة المسلمة، وتفردها وقدرتها الذاتية الكامنة علىٰ تجديد شبابها، واستعادة مجدها، ولعل أهم آلات تحقيق هذا التجديد ماثل في جهاد هؤلاء الأعلام الكبار في ميادين الفكرة والحركة معًا.

ذلك جانب أصيل يدفع حتمًا إلىٰ العناية بأساتذة الوعي الإسلامي المعاصر الذين لا يقصرون في بنائه، ودعمه في النفوس العربية اليوم، ولا سيما في مواجهة طوفان من التغريب والغزو، وطمس الهوية والمعالم في أركان مختلفة من حياة الناس المعاصرين.

يعانق ذلك ما يؤازره من انضباط ووضوح ينسربان في إسهامات هؤلاء الأساتذة الكرام الذين ينطلقون في جهادهم الدعوي والعلمي من أرضية علمية/ أو أكاديمية تسلك سبيل المعالي البحثية المنضبطة في ارتباطها بهموم الجماهير بغية الارتقاء بوعيهم وتغذية وجدانهم، وإعادة توجيهه (أو برمجته) وفق مؤشر محكوم بمرجعية الأمة، مهتدية بهدىٰ تاريخها، وفكرتها فىٰ الحياة والسلوك.

وحلمي القاعود واحد من هؤلاء الأساتذة الكرام الذين يسهمون في بناء الوعي والوجدان الإسلامي في العصر الحديث عن طريق مسارات كثيرة ومتنوعة تجعله بلا مجاز أو مبالغة إمامًا من أئمة الجهاد العلمي والدعوي بحثًا وتأليفًا وإبداعًا وتوجيهًا للرأىٰ العام، وهو بسبب من كل هذا جدير بأن نقف أمام ملامح جهاده العلمي والدعوي نفحصه، ونستجلي قسمات صورته التي جعلته بحق إمامًا من أئمة بناء الوعي الإسلامي المعاصر، وهو الأمر الذي دفعني دفعًا إلىٰ أن أنعته بأنه روح تسكن

المئذنة، أو ليست المئذنة في التصور الإسلامي، هي صوت السماء، والداعية إلىٰ الخير كله؟!

(حلمي القاعود.. وآفاق جهاده العلمي والدعوي)

إن فحص سهمة حلمي القاعود في ترقية الوجدان والعقل العربي اليوم يعكس عناية بالغة بمحاور متنوعة من خدمة الفكرة الإسلامية والعربية بما هي أساس أصيل لا يمكن تجاوزه في بناء النفس المعاصرة بما يلزمها من الثقافة العربية بعدما أحاط بها من ينال من أصالتها، وشوهت من ارتباطها بالإسلام بفعل عوامل كثيرة داخلية وخارجية.

بالإمكان تصنيف إسهام حلمي القاعود في خدمة المعرفة العربية المعاصرة بمرجعية إسلامية ترعىٰ أمرين معًا، هما:

تأصيل الوعي المعاصر وفق الأصول الثابتة الإسلامية، ومقاومة علامات الغزو والتغريب واغتيال الوجدان العربي والإسلامي، وفيما يلي:

(1) محور التخصص العلمي (الأدب والنقد):

أسهم حلمي القاعود بما هو أستاذ (بروفيسور) لتخصص الأدب والنقد في الجامعات المصرية والعربية بعدد وافر دال علىٰ عدد مهم من العلامات التي نحن بصددها، وهي كما يلي (مرتبة ألفبائيًا):

- البلاغة القرآنية.
- الحداثة تعود.
- الرواية التاريخية في أدبنا الحديث: دراسة تطبيقية.
- الغروب المستحيل: سيرة كاتب (محمد عبد الحليم عبد الله).
- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث.
- محمد ﷺ في الشعر العربي الحديث.
- مدرسة البيان في النثر الحديث.
- موسم البحث عن هوية: دراسات في الرواية والقصة.

- الورد والهالوك: شعراء السبعينيات في مصر.

(2) محو الإبداع (الرواية والقصة):

وقد كتب لنا الدكتور حلمي القاعود بعضًا من النصوص الإبداعية المنتمية إلىٰ واحد من الأجناس الأدبية (ألا وهي الرواية والقصة) التي يعد علىٰ المستوىٰ النقدي، فقيها من كبار فقهائها المتخصصين، ومنها:

- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان).
- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية).

(3) محور الثقافة الإسلامية:

تعد الثقافة الإسلامية تخصصًا أصيلًا منتميًا إلىٰ علم الدعوة الإسلامية كما تشهد بذلك برامج كلياتها، وهو ما يعكس البعد الدعوي البارز من جهاد القاعود ؛ بحيث يصح أن نقرر في اعتزاز وتقدير أن نصف حلمي القاعود بأنه مئذنة في صورة قلم معاصر، ومما كتبه في هذا الميدان:

- الأقصىٰ في مواجهة أفيال أبرهة (قراءة أدبية في يوميات الانتفاضة).
- أهل الفن وتجار الغرائز.
- ثورة المساجد... حجارة من سجيل.
- جاهلية صدام وزلزال الخليج.
- حراس العقيدة.
- الحرب الصليبية العاشرة.
- الصحافة المهاجرة.. رؤية إسلامية.
- الصلح الأسود.. رؤية إسلامية لمبادرة السادات والطريق إلىٰ القدس.
- العودة إلىٰ الينابيع.. فصول عن الفكرة والحركة.
- مسلمون لا نخجل.
- هتلر الشرق وبلطجي العراق ولص بغداد.

(حلمي القاعود..بلال في العصر الحديث).

يظهر من خلف عنوانات هذه الكتب ومن وراء مادتها مجموعة كبيرة من العلامات والقيم تقودنا إلىٰ أن نصف القاعود بأنه بلال في العصر الحديث، والمقصود من وراء هذا الوصف أبعد مما قد يظهر من تركيبه اللغوي من مسحة مجازية بلاغية، ذلك أن قدرًا من الارتياح النفسي المتولد عن الفهم ونقاء الرؤية بأثر من كتابات الرجل واقع حقيقة، وهو ما يقترب به من دعوة النبي ﷺ بلالًا ليكون مفتاحًا للراحة بالنداء للصلاة، كما ورد في الحديث الصحيح:"أرحنا بها يا بلال" والقاعود بما يقدم مفتاح لهذا الارتياح بما يشيعه بكتاباته من الفهم وصحة الرؤية، وضبط الحركة علىٰ هديٍ من توجيه إسلامي راشد.

ويتجلىٰ من وراء هذه القائمة المتنوعة ما يلي:

أولًا: الإخلاص للفكرة الإسلامية تنظيرًا وتطبيقًا ودعوة وحركة، من منظور شامل ومُتَّزِن.

ثانيًا: الوعي الظاهر بما للإسلام من حضور في توجيه الحركة الأدبية والنقدية المعاصرة، بما يدل علىٰ أن الفكرة الإسلامية الموجهة للحياة لم تغب يومًا عن حياة المسلمين علىٰ امتداد التاريخ، وهو ما يظهر في أشكال تجلي المصطفىٰ ﷺ في الشعر المعاصر، ومن وجود ملاحم شعرية إسلامية سماها هو بالقصائد الإسلامية الطوال مثلًا.

ثالثًا: الفطنة الرائدة لأبعاد الخراب الثقافي والفكري المصاحب لتفشي الفكرة الحداثية في العالم العربي من دون التورط ابتداء في الانخداع بمقولاتها الفلسفية، وتطبيقاتها الإبداعية وما لازمها من حركة نقدية، وجهاز اصطلاحي مراوغ، وهو ما يعكسه كتابان من أهم ما كتب في فضح آثارها المدمرة، وهما الحداثة تعود، والورد والهالوك؛ وهذه التسمية (الهالوك) وصفٌ لجماعة الحداثيين اختيار موفق في مواجهة الورد، ذلك أن الهالوك:"نبات ينمو مع الأعشاب الضارة، ويلتف حول النبات المثمر والخصيب، مما يضطر الفلاحين والزراع إلىٰ استئصاله عند العزق وتطهير الأرض، فهو عالة علىٰ غيره، وعائق عن النمو والازدهار" علىٰ حد تعبيره (ص5) من كتابه هذا.

رابعًا: تنامي الإحساس بالقيمة العلمية الراقية لإنتاجه في التخصص العلمي ولا سيما في باب نقد الرواية والقصة ودراستهما علميًا.

خامسًا: ظهور واع بالغ لما للقرآن الكريم من تأثير في الآداب العربية، وهو ما ظهر في كتاب من كتبه الحديثة الخاصة بدرس البلاغة القرآنية، فضلًا عما توصل إليه في دراسة عن مدرسة البيان في النثر الحديث.

سادسًا: خدمة الوعي الإسلامي المعاصر من اتجاهات متنوعة تحيط بالعقيدة وترمي إلىٰ حراستها، وترعىٰ تصحيح الصورة الأصيلة للمسلم، وما ينبغي أن تكون عليه المؤسسة الإسلامية، كما يهتم حلمي القاعود في نشاطه الدعوي بالتوقف أمام القضايا الكبرىٰ التي تمثل بحق أعظم التحديات في وجه الإسلام في العصر الحديث خارجيًّا و داخليًّا، بما يظهر من وعيه بعدم انقطاع الحروب الصليبية، وإن تغير شكلها في النسخة المعاصرة، ووعيه كذلك بمخاطر الكيان الصهيوني وتغلغله السام في النسيج الإسلامي، وتحذيره من مخاطر المصالحة معه، وتثمين المقاومة الإسلامية في مواجهته، والإشادة برموز انتفاضة الأقصىٰ، والتعاطي مع يومياتها.

سابعًا: الفطنة إلىٰ قيمة توجيه الواقع علىٰ هدىٰ من الينابيع الأولىٰ الصافية من ثوابت الأمة ، علىٰ مستوىٰ الفكرة وتوجيه العقل والوجدان، وعلىٰ مستوىٰ الحركة، وترشيد النشاط وتقويمه.

ثامنًا: رعاية تواصل الأجيال العاملة للإسلام، وهو ما يظهر في رعاية أمر مدرسة البيان في النثر الحديث وأعلام القصيدة الإسلامية الطويلة.

إن إفساح المجال لتأمل العلامات البادية من خلف إسهام القاعود في خدمة الفكرة الإسلامية علميًّا و دعويًّا قائد إلىٰ تضخم قائمة الملاحظات، ولكن الذي أوردناه هنا دال علىٰ روح بارزة تلهمه في كل إسهام وإنتاج، وهي روح رمزها الأعلىٰ المئذنة بكل ما تمثله من تمايز حضاري في مواجهة لأشكال الموازية عن غير المسلمين، و بما تبثه من أجواء الارتياح والأمان النفسي، و بما تشيعه من أجواء النداوة والمتعة، و بما يتعانق معها بعد إعلاء قيوميته وتعاليه عن كل ما في الوجود.

إن حلمي القاعود بجهاده العلمي والدعوي مئذنة في صورة معاصرة دعوة إلىٰ الخير، وشموخًا نحو العلا.

الدكتور رمضان عبد التواب: النهر يغيض ماؤه!

موت العالم ليس كموت آحاد الناس أو أغمارهم.

هذه حقيقة ناصعة في وضوحها؛ وربما لا تحتاج إلىٰ التدليل علىٰ صدقها؛ لأنه بموت العالم يموت خلق كثيرون، وتنتزع قطعة ثمينة من كيان العلم لا تعود أبدًا، وتحرمنا من خير كان منعقدًا بعقل هذا الراحل أو ذاك.

سقط جبل علم كنا نؤمل بقاءه فينا زمانًا طويلًا، يخدم لغة العرب، ويفسر ظواهرها، ويحقق من نصوص تراثها ما يعد مقدمة ضرورية لنهضة الأمة، ويربي أبناء من العلماء علىٰ مناهج دراسة هذه اللغة.

كان رمضان عبد التواب أحد أهم رموز الدراسات اللغوية والإسلامية في العالم كله، وليس في ذلك أدنىٰ مبالغة، فللرجل نظرياته اللغوية التي تخطت حاجز الإقليمية إلىٰ العالمية.

مات رجل نبيل كنا نجتمع بسبب من حياته نناقشه وننهل من علم غزير كان يمتلكه، ومن عقل عرك الحياة وجمع من الخبرات ما يندر أن يجتمع في أحد. وهو رجل كريم كانت أخص سماته في حياته وعلمه: تبسط يجذب رأي متعلم أو أي مجالس له، ودقة متناهية ربما تشعرك بالعجز، وتسلبك كثيرًا من توازنك، كان يعيش مع أبنائه وطلابه واحدًا منهم يؤاكلهم، ويسامرهم، ويتزاور معهم، ويحضر حفلات زواجهم وعقائق ولدانهم، ويعزيهم في مصابهم.

إنه رمضان عبد التواب الذي نذر عمره لخدمة العربية، لغة كتاب الله سبحانه وتعالىٰ، الذي كان يقرر في كل موطن أنه لولا القرآن ما كانت العربية.

وتتلخص سمات منهج الراحل الكريم في دراسة العربية في مسارات محددة، يحكمها جميعًا القانون الذي قدمناه بين يدي هذه السطور، وهو أن القرآن محورُ أي دراسة لغوية أو غير لغوية عند المسلمين، وكانت هذه المسارات التي كتب فيها، ودرب طلابه عليها هي كما يلي:

1 ـ تحقيق التراث على المنهج العلمي الصارم هو بوابة أي نهضة مرجوة لعالمنا، ومن ثم حقق كثيرًا من عيون التراث اللغوي والتاريخي والإسلامي من مثل: الغريب المصنف، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، وهو أول معجم موضوعي في تاريخ اللغة العربية، كما حقق الخطب والمواعظ له أيضًا، وهو كتاب يجمع عددًا من وصايا السابقين من الأنبياء الكرام والصحابة، وغيرهم.

ودرب عددًا من تلاميذه على هذا المنهج العلمي الصارم الذي يقوم على: احترام تراث الأمة، والتدقيق في خدمته، والشك في النفس قبل الإقدام على الشك في النص، ومراجعة ما يحققه المحقق على نصوصه الأصلية.

2 ـ دراسة الجهود اللغوية للعلماء العرب والمسلمين في ضوء منجزات العلم الحديث؛ لتقويم هذا التراث، وبيان ثماره، ومنجزاته، وكتبه، من مثل: فصول في فقه العربية، وبحوث ومقالات في اللغة، ودراسات وتعليقات في اللغة، شاهدة على ما نقول من مزجه التراث بالمعاصرة؛ ليحيي ما يستحق الإحياء من تراث أمتنا.

3 ـ دراسة النظريات اللغوية الحديثة الغربية لبيان ما لا يلائم لغتنا فيها، وما يلائمها للإفادة منه والتنبيه عليه، وتحليل آراء المستشرقين في دراستها، وترجمة ذلك، والتعليق عليه.

4 ـ الإصرار على دراسة العربية في ضوء أخواتها الساميات، من مثل: السريانية، والعبرية، والحبشية، والأكادية؛ لأنه كان يؤمن بأن دراسة الفرد في محيط أسرته وراثيًّا واجتماعيًّا يبشر بنتائج مذهلة، وعالية.

الدكتور أحمد العسال.. روح تسكن المحراب

العالم الزاهد الدكتور أحمد العسال، أحد أئمة الدعوة الإسلامية المعاصرة بعد جهاد فكري ودعوي وحركي ممتد.

وأحمد العسال رحمه الله كان رجلًا زاهدًا ومتواضعًا جدًّا، ولم يمنعه زهده ولا تواضعه أن يعمل للأمة الإسلامية بما هي كيان عالمي تحوطه وترعاه وتجمع شمله عقيدة واحدة، وفكرة واحدة.

رحل هناك في الإسكندرية، وشُيِّع إلىٰ مثواه الأخير في مدينة السادس من أكتوبر بعد أن صُليَ عليه في أشهر مساجدها مسجد القارئ الراحل الشيخ الحصري رحمه الله.

وهذه الورقة/ تطمح أن تقف لتستجلي عددًا من الملامح الحية للراحل الكريم، داعيةً المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أن يتغمده في الصالحين من خلال ما يلي:

(1) أحمد العسال.. حدود الموقع الفكري والدعوي

يوشك الذين يعرفون الراحل الكريم أن يتوقفوا أمام محاور ثلاثة مهمة تحكم سيطرتها علىٰ صورة شخصيته الفريدة، فقد كان العسال أزهريًّا، صحب عددًا من الأئمة الأزهريين المعاصرين، والتحم معهم في عددٍ من أنشطة الحركة الطلابية علىٰ ما يحكي رفيق عمره الدكتور يوسف القرضاوي في مذكراته (ابن القرية والكتاب). ثم كان العسال لندنيًّا بما حازه من درجة الدكتوراه من إنجلترا، ثم كان أستاذًا جامعيًّا في عددٍ من الجامعات العربية، ولا سيما في المملكة العربية السعودية، وكان من أوائل من اضطلع بتعريف الدوائر الأكاديمية العربية بمبادئ الاقتصاد الإسلامي، وكتابه في الاقتصاد الإسلامي الذي كان من أوائل أدبيات هذا الفرع الشاهد علىٰ عطاء الصحوة الإسلامية هو دليل حي علىٰ ما أقرره.

ثم اختتم حياته العملية والعلمية مديرًا أو رئيسًا للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، وقد تركت المحطات الأربع ملامح بارزة لوجه أحمد العسال في

الأوساط الفكرية الإسلامية، يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- شهرته عالمًا وداعيةً وأكاديميًّا بارزًا معروفًا بمنزلته الإسلامية التي تجاوزت الحدود والإقليمية لتغطي الجغرافية الإسلامية كلها.

ب- تقدير دوره الوطني والقومي؛ وهو الأمر الذي تجلىٰ في عودته إلىٰ مصر، وإيثاره البقاء فيها بعد إنجاز مهمته العلمية والدعوية في الخارج.

ج- استمرار قيامه بعبء الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ بقلمه وحركته، وتقديره لأعلام المفكرين الدعاة، وقد كنت شاهدًا علىٰ اشتراكه في فعاليات المؤتمر التكريمي الذي أقامه مركز الإعلام العربي بالقاهرة للاحتفال بعطاء الدكتور حسن الشافعي رئيسًا للجلسة الأولىٰ في هذه الفعاليات من نحو عامين فقط.

صحيح أن العسال كان يؤثر البقاء في الظل بعيدًا عن الأضواء التي فتنت الكثيرين، لكنه لم يكن يصمت أمام أمر يرىٰ فيه خطرًا أو بعض خطر علىٰ الفكرة الإسلامية، وهو ما يتجلىٰ مثلًا في اتصاله بالأستاذ فهمي هويدي، عندما بدا من بعض الكتابات محاولات لإعلاء تقدير منجز أتاتورك في تركيا، ليقرر أن الأمة لطالما أضيرت من جرائم أتاتورك، يقول فهمي هويدي: "وأبرز الذين اتصلوا بي العالم الزاهد الدكتور أحمد العسال" هذا الاستمرار في الدفاع عن دين الله تعالىٰ والدعوة إليه دليلٌ علىٰ ما ينبغي أن يفهم من زهده الإيجابي غير الانعزالي.

(2) حركة العسال ضابطها هموم الأمة لا جراح الذات

والمتأمل لحركة العسال رَحِمَهُ اللهُ وكتاباته وحواراته مع الآخرين التي حملت عددًا من المراجعات والردود يقف علىٰ أمر مهم في فقه الدعوة الإسلامية سار عليه الراحل الكريم يمكن تلخيصه في العبارة التي تصدرت عنوانًا هنا لتكون موجزًا يلخص رؤيته، ويوثق طبيعة موقفه بهموم الأمة، وبقضية رفعتها وتقدمها ورقيها، ومراجعة حواره مع فهمي هويدي مثلًا حول أتاتورك تركز علىٰ أمرين، هما:

1- تعداد ما ارتكبه أتاتورك بحق الإسلام.

2- تعداد ما ارتكبه أتاتورك بحق المسلمين.

كان هويدي في مقاله "درس في الموازنـات" سعيدًا بفـارق مـا ظهـر مـن أمرٍ مهـم، يتعلق بإعادة تقييم منجز عبـد الناصـر؛ مـا يؤكـد أن العـسال كـان يتحـرك بفقـه دعـوي يحمل عنوانًا مهمًا هو أن جراح الذات ليست عاملًا محوريًا.

ضبط حركة الداعية الإسلامي

لقد اصطلىٰ العسال وكثير من إخوانه أبنـاء حركـة الإخـوان المـسلمين بنيـران عبـد الناصـر، لكـن هـذه الجـراح لـم تكـن المحـرك الفاعـل في مراجعـات العـسال لفهمـي هويدي أو غيره، وهو بعض ما ورثته الحركة الإسـلامية المعاصـرة مـن ميـراث النبـوة الكريم الذي يظهر تعاليًا ظاهرًا علىٰ جراح الذات في لحظات التمكـين بعـد فـتح مكـة مثلًا.

لقد كان مفهومًا أن يتحرك العسال في بعض مراجعاته لمـا دعـا إليـه فهمـي هويـدي (لو حدث) بوحي من جراح الذات التي نكأهـا عبـد الناصـر، لكـن شـيئًا مـن ذلـك لـم يكن، وهو الأمر الذي يرقىٰ بتجربة العسال الفكريـة والدعويـة، وتقـترب بمنهجـه مـن الدائرة السنية السلفية بمعناها المتابع للسلوك النبوي الكريم نحـو خـصومه في فـترات التمكين.

الدعوة قيام بحق الله ولو خالفـت طبيعـة الـنفس ومـا تهـواه، لقـد أجمـع كـل الـذين عرفوا الراحل المرحوم الدكتور أحمد العـسال أنـه يـؤثر العزلـة، ويحـب الابتعـاد عـن الأضواء، ويهوىٰ الزهد، وهو ما يبدو أنه كان طبيعة خلقية مـستقرة، لكـن هـذا الإيثـار للظل بما هو سجية لـم يمنعـه مـن الحركـة للإسـهام قـدر طاقتـه في الـدفاع عـن ديـن الله والدعوة إليه، وهو ما يدلل علىٰ مخالفة هـذه الطبيعـة أو الجبلـة أو الـسجية المـؤثرة؛ للابتعاد عن أجواء الـشهرة والأضـواء عنـدما يفـرض الواجـب الـدعوي الخـروج مـن دوائر الظل والسعي والاتصال والكتابة والحوار والمراجعة.

وهو منطلق دال علىٰ أن الدوران مع متطلبات الدعوة لا حـول حظـوظ الـنفس هـو الأصل الحاكم لعمل الداعية، وهو أمر يعكس وعيًا حقيقيًـا بطبيعـة الفكـرة الإيمانيـة، وهو بعض ما يمكن استنباطه مـن شـهرة أبـي بكـر الـصديق رضـي الله عنـه في مواجهـة المرتدين مع ملاحظة رقة قلبه، وخفوت صوته من آثار هذه الرقـة، وهـو مـا يفـسر لنـا

كذلك لين عمر في غير ما موقف من تاريخ الإسلام حتىٰ قيل له يومًا: "أجبار في الجاهلية، خوَّار في الإسلام يا عمر"!.

المسألة هي الدوران مع واجبات الدعوة والدفاع عن الله ودينه ورسوله ﷺ والقيام بعبء البلاغ عن الله تعالىٰ، يستوي في ذلك موافقة هذا الدوران لطبيعة النفس أو عاندها وخالف هواها.

لقد كان أحمد العسال عالمًا دينيًّا مهمومًا بعالمية الفكرة الإسلامية عاملًا لها، يؤذيه أن يشوش عليها أو علىٰ رموزها، كان مؤثرًا للصمت والزهد والبعد هناك في الظل إلا أن يشعر بمخاطر تتهدد الفكرة أو الحركة الإسلامية، فيكسر صمته ويقطع عزلته.

رحل واحد من العلماء الربانيين، والدعاة الكرام، وصورته البريئة الزاهدة الهادئة باقية بيننا.

رحل جسم طالما براه الصمت وهدَّه التعبد، وأنحفه زهد ظاهر، وبقيت روحه تحلق في محراب الدعوة إلىٰ الله، رحم الله العسال وأكرم نزله في أعز جوار.

سعد مصلوح.. عبقرية الإبداع والإتقان

وجه مضيء حين تلقاه، وتلقىٰ الكرامة والندىٰ والجودا..

هذا مفتتح طفر علىٰ لساني، دليلًا علىٰ ما استكنَّ في القلب نحو واحدٍ من ألمع اللسانيين العرب المعاصرين علىٰ الإطلاق، إن لم يكن من أعظم المفكرين العرب المعاصرين، وهو الدكتور سعد مصلوح؛ أستاذ علم اللغة بكلية الآداب بجامعة الكويت، وهذا الذي صغته في افتتاح هذه المقالة شيءٌ قليلٌ لا يفيه حقَّه لمَن عرفه، ولا يقوم بواجب تحيته بعدما حملت الأنباء خبر حصوله علىٰ جائزة الشيخ زايد للترجمة، عن ترجمته الفذَّة لكتاب غينتسلر (في نظرية الترجمة.. اتجاهات معاصرة)، وهو الكتاب الذي صدرت ترجمته سنة 2007م عن المنظمة العربية للترجمة بمدينة بيروت العربية، وهو الخبر الذي فتح لنا بابًا من القول لنحيِّي فيه هذه القامة العلمية الرفيعة، وهي تدلِف نحو ختام الخامسة والستين من عمرها.

سعد مصلوح أستاذ مصري من مواليد منسفيس من أعمال محافظة المنيا بصعيد مصر، تلقَّىٰ تعليمه في كلية دار العلوم، وحصل منها علىٰ درجة الماجستير في علم اللغة، بإشراف واحد من أثبت علماء اللغة العرب المعاصرين، وهو الدكتور عبد الرحمن أيوب، ثم حصل علىٰ درجة الدكتوراه من موسكو في علم اللغة في واحدٍ من الموضوعات المهمة جدًّا عن صوتيات القافية، وقد عمل مصلوح في جامعات كثيرة، من مثل جامعة القاهرة وجامعة الخرطوم وجامعة الملك عبد العزيز، ثم استقرَّ منذ فترة في جامعة الكويت.

والنظر إلىٰ سعد مصلوح محكومٌ بمنظور ثلاثي لا ينفكُّ أحدها عن الآخر، وهي جميعًا وجوه متآلفة لا يسع أحد أن يتخطىٰ وجهًا منها؛ فسعدٌ إنسان تتفجر قيم الإنسانية من جنباته، وضاءة وجه، وسماحة نفس، وندىٰ كف، ونبل ضمير، فهو بوجهه المضيء وحفوه وصدق لهجته وتوقُّد ذهنه ولسانه ومروءته، وهي كلها ملامح لا شبهةَ لمَجاز فيها، ولا شبهة لمبالغة في إقرارها، تُبرهن علىٰ أن النسق

التعليمي الذي كان فاشيًا في حقبة ما قبل ما سُمِّي بثورة يوليو سنة 1952م كان أمرًا جديرًا بالتأمل وإعادة النظر إلىٰ مفرداته، وهو لا يزال شيئًا مخبوءًا بفعل ممارسات أدبيات هذه الحركة ضد كل ما كان قبلها.

وسعد مصلوح الذي استحق هذه الجائزة المرموقة علىٰ الرغم من حداثة عمرها معجون غني جدًّا بمنظار النظر المعرفي والعلمي، يصح- بل لا يصح غيره- أن يوصف إجمالًا بأنه عبقرية تتحرك علىٰ عمادين من الإبداع والإتقان. وفحصُ ما قدَّمه لحركة العلم المعاصر قائدٌ لمَن تأمَّله أن يدرك ذلك أتمَّ إدراك؛ من خلال محاور أساسية يمكن إجمالها ابتداءً في المحاور التالية:

أولًا: الطرق الكثيرة التي افتتحها من غير سابق تمهيد من أحد، وهو ما يتجلَّىٰ في كثيرٍ من المناطق التي ارتادها في الدرس العلمي في اللسانيات المعاصرة (اللغويات)، ومن الأدلة علىٰ ما نقول ما يلي:

1- يعدُّ الدكتور سعد مصلوح من أوائل مَن بشَّروا بعلم لغة النص الذي يسمَّىٰ أحيانًا باسم (نحو النص)، وهو العلم الذي تقوم مبادئه علىٰ الدعوة إلىٰ أن نحو الجملة- وهو النحو التقليدي- قاصرٌ وغير قادر علىٰ الوفاء بما تتطلبه النصوص العربية من خدمة، وغير قادر علىٰ تفجير عطاءات هذه النصوص المكتنزة بالحكمة. ودعوة سعد مصلوح المبكِّرة لاستثمار علم لغة النص باعتباره علمًا متداخلَ الاختصاصات مستثمرَ كل إمكانات النصوص، لغويةً وغير لغوية، فيما هو معروف من مبادئه السبعة الشهيرة؛ يعكس وجهًا من وجوه هذه الريادة، وللقارئ الكريم أن يدرك هذه العبقرية في ارتياد هذه الطريق؛ من خلال ما شاع الآن من سيطرة هذا الاتجاه علىٰ دراسات كثير من الدارسين اللسانيين المعاصرين؛ بسبب من جهود كثيرين من العلماء.

2- يعدُّ الدكتور سعد مصلوح من أوائل- إن لم يكن الأول بإطلاق- مَن بشَّروا بالدرس الأسلوبي، ولا سيما في منحاه الإحصائي تنظيرًا وتطبيقًا في غير ما كتاب وبحث، حتىٰ غدا ما كتبه عن الأسلوبية مصادر أساسية مركزية لا يمكن تجاوزها علىٰ الإطلاق، وغدت عنوانات مفردة من مثل: التشخيص الأسلوبي للاستفادة،

واستثمار الأسلوبية في الكشف عن الثابت والمنسوب من شعر الشعراء، والكشف عن منازل الانفعال باستعمال معادلات قياسية، عن طريق قياس نسبة الصفة إلى الفعل فيما هو مشهور من معادلة بوزيمان (ن ف ص)- محاورَ أساسيةً، يرجع إليه الفضل الأساسي في إذاعة أمرها في الأوساط العلمية العربية.

3- يعدُّ سعد مصلوح أول عالم عربي يفتح آفاقًا جديدةً لعلمٍ بِكر؛ هو علم البلاغة المقارنة، بما سطَّره في كتابه الفذّ (البلاغة واللسانيات الأسلوبية)، ولا سيما بحثه في البلاغة المقارنة؛ الذي طبَّق فيه طرحَه هذا على القرآن الكريم بين العربية وترجماته في الإنجليزية والروسية؛ ليعكس ملمحًا جديدًا من ملامح إعجاز الكتاب العزيز، من خلال فحص كفاءة النص العربي.

4- كما يعدُّ سعد مصلوح من أكثر العلماء اللغويين المعاصرين الذين التفتوا إلى قيمة البحوث اللغوية البينية؛ التي تدرس مشكل الظواهر اللغوية، في تشابكاتها مع العلوم المختلفة، ليبشر بمناطق بِكر، لم يكتب فيها أحد من الدارسين العرب شيئًا من مثل "الجغرافيا الأسلوبية".

ثانيًا: الترجمات التي تختط منهجًا فريدًا يرعى جانب القارئ الهدف بمصطلحات نظرية الترجمة، وهو القارئ العربي هنا، لقد تجلَّت هذه الرعاية في ترجمته لكتاب "إرست بلوجرام" عن التصوير الطيفي للكلام، وفيما قام به من ترجمته كتاب غينتسلر عن الاتجاهات المعاصرة في نظرية الترجمة، وفيما راجعه من ترجمات من مثل مراجعته لترجمة الدكتور محمد بدوي لكتاب جان جاك لوسيركل عن عنف اللغة، وهي نصوص (نماذج)، يشعر معها قارئها كأنما أُلِّفت يوم أُلِّفت بلسان عربي مبين، من دون مبالغة من جانبنا.

ثالثًا: وسعد مصلوح من جانب مهم جدًّا هو أحد أعظم العلماء العرب المعاصرين الذين رفعوا راية الحسبة العلمية، وهو تعبير صكَّه في كثير من مراجعاته اللغوية لدارسين أعلام ولدارسين خاضوا في غير مياههم، وفحص ما كتبه في مراجعاته لأسماء من مثل: عبد المقصود شاهين وكمال أبي ديب وصلاح فضل وعبد السلام المسدي من أعلام الدارسين في مجالات الأصوات والبنية العربية

والأسلوبية والعروض والبنية الإيقاعية؛ من أعظم الدليل على ما نقول ونقرر. لقد صدر سعد مصلوح في كثير من هذه المراجعات النقدية عن روح إسلامية أصلية، تدعو إلى ما سمَّاه هو بـ"الحسبة العلمية"، وتنقية الأوساط المعرفية من كثير من الدخن والغش.

ولعل أهم ما يفاجئك وأنت تقرأ ما صدر عنه من علم وفكر؛ هو هذا التزاوج العجيب حقًّا بين الإبداع المبهر والإتقان المعجِب، إبداع الفكرة وإتقان المعالجة منهجيًّا وجمعًا للمادة، وتقسيمًا وتوزيعًا للمطالب، ومع ذلك كله يواجهك بلسان يضرب في العمق من الأسلوب العربي العريق؛ في امتدادٍ عجيبٍ مثمرٍ لمدرسة المنفلوطي وشاكر، ولكن بذائقة جديدة، يرفدها نهرٌ من لسان الشعراء القدماء ذاب في لسانه، ويغذِّيه نهر من لسان الأصوليِّين ومحكم منطقهم اختمر في ذاته، فتجلَّى على لسانه ومعالجاته.

في عقل سعد روافد عمرها ستة عشر قرنًا هي مدة المعلوم من تراث العربية، وفي عقل سعد روافد من علوم الغرب من مناطق شتى من علوم الإنسان وعلوم التجربة، من فيزياء وتشريع وإحصاء؛ في تناغم عجيب جعلت من قلمه نموذجًا فريدًا. لقد أذن لي في زياتي له في الأسبوع الأول من فبراير 2009م أن أطَّلع على شيء مما بثَّه على الورق مما سمَّاه بمرحلة إعادة الانضباط، ولا سيما في قسمها العملي واليومي؛ مما أرجو ألاَّ يعذلني بسبب من إذاعته.

لقد رأيت هذا العَلَم المرموق وهو يدوِّن بمداد أخضر أنه يرجو أن يزيد من راتب القرآن الكريم يوميًّا، وأنه يرجو أن يزيد من حرصه على النوافل، وهو وجه حاكم جليل في قراءة النفس الزكيَّة الطاهرة التي يتحرك بها بين الناس.

خالص التحية لهذا الوجه المضيء، وخالص التهنئة للجائزة التي شرفَت بحصوله عليها.

صلاح سلطان والوعي الدعوي المعاصر

في رحلة الحياة ومهما كانت قسوة بعض مراحلها؛ فإن رحمة الله تعالىٰ دائمًا ما تتجلىٰ، فتمد روافدها ببعضٍ من ينابيع الخير، يحفظون توازنها، ويقيمون حاجزًا في مواجهة طغيان الشر، ويقفون برزخًا مانعًا من اغتيال الخير؛ لتظل سنة التدافع الحضاري قائمة تبرهن علىٰ دوام قيام طوائف عديدة في ميادين مختلفة، يظاهرون الحق وينتصرون له في بقاع مختلفة من أرض الله سبحانه.

ولعل من أخطر الميادين التي يحتاج إليها الإسلام المعاصر بما لابس أبناءه من تردُّ وغربةٍ ووحشة وشبه يأسٍ من تعدل أحوالهم؛ يظهر في قيمة ظهور دعاة مؤمنين برسالتهم ومؤهلين تأهيلًا علميًا وعمليًا ونفسيًا، يستجدونه من تكوين هو معجون كثيف من المواهب الربانية ابتداءً مخلوطًا بتحصيلٍ متدفق عجيب لا يتوقف انتهاءً، وفيما بينهما تقف سمات نفسية ووجدانية وبدنية يمكن استجماعها في وصفٍ جامعٍ؛ هو أنهم يتمتعون بصلابة نفسية ظاهرة.

وأنا أحبُّ من باب إعلاء هذه القيمة المعاصرة، أن أقف عند واحدٍ من أئمة الدعاة المعاصرين الذين فرضوا أنفسهم، بما أحرزه من مواهب وما حازه من مكاسب واستجمعه من معارف، وهو الأخ الكريم الأستاذ الدكتور صلاح سلطان أستاذ الشريعة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

وأنا إذْ أدعو إلىٰ تأمل ملامح التكوين العلمي والنفسي الذي تقدَّم بصلاح سلطان في ميادين الدعوة المختلفة؛ إنما أدعو إلىٰ قيمة إسلامية خالصة، لا شبهةَ فيها لإطراء كاذب ولا لمجاملة عارية من الحق، وإنما هي خارجة من رحم الدلالة علىٰ فضل الله الموصول علىٰ الأرض، ومن باب ضرورة تقديم بعض نماذج الدعاة من أبناء التيار الوسطي، الذين يخففون إلىٰ حد كبير من شيوع نغمة اليأس التي تظهر بين الحين والآخر.

وفيما يلي مسوغات هذه الوقفة متمثلةً في هذا الإنتاج العلمي الذي يضرب بجذور عميقة في أصول العلوم الشرعية؛ مما يبرهن علىٰ التكوين المتين الذي ينطلق

صلاح سلطان منه، ثم في هذا الإنتاج الدعوي الذي يعكس انضباطًا وجدانيًا ومعرفيًا يُترجم عن عمق هذا التكوين المواهبي والمكاسبي الذي أشرنا إليه.

أولاً: الإنتاج العلمي في علوم الشريعة.. تكوين عميق

1- الأدلة الاجتهادية بين الغلو والإنكار.

2- سلطة ولي الأمر في الشريعة الإسلامية.

3- امتياز المرأة على الرجل في الميراث والنفقة في الشريعة الإسلامية.

4- الميراث والوصية بين الشريعة والقانون.

5- الوصية الواجبة في القوانين العربية.. دراسة فقهية نقدية.

6- مشاركة المسلمين في الانتخابات الأمريكية.. وجوبها وضوابطها الشرعية.

7- توسيع وقت رمي الجمرات.. ضرورة شرعية معاصرة.

8- أحكام الحج والعمرة الفقيهة وآثارها التربوية.

9- الضوابط المنهجية للاجتهاد في فقه الأقليات المسلمة.

10- المواطنة بين التأصيل الشرعي وتعدد الولاءات الدينية والطائفية والعرقية.

11- الشفاعة وأنواعها في القرآن والسنة النبوية.. رد على الدكتور مصطفى محمود.

12- منهج الشيخ ابن ميثم البحراني في شرح نهج البلاغة.

13- الضوابط المنهجية لاتباع الرسول ﷺ.

14- رد على مفتي مصر في حل التجارة في الخمور والقمار والربا في بلاد الغرب.

15- فتاوى فقهية للمسلمين في الغرب.

ملاحظات على قائمة التأليف العلمي لصلاح سلطان:

لعل أظهر ما يتبدّى له عنوانات هذه القائمة ابتداءً من عمليه المُركَّزين للدكتوراه والماجستير (1/ 2) هو الانطلاق من أرضية شديدة الصلابة من العناية بعلمي أصول الفقه والفقه الإسلاميين، بما هما علمان بالأدلة الكلية من جانب واستنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية.

أضف إلىٰ ذلك هذا التنوع الخلَّاق في التعاطي مع قضايا الواقع الإسلامي المعاصرة، ولا سيما في القضايا التي تثور بسببٍ من اشتباك الحالة الإسلامية مع عددٍ من أفكار التيارات الأخرىٰ، كما يتجلىٰ مثلًا في كتاباتٍ عن المواطنة وتأصيلها الشرعي، وفي بيان امتياز المرأة في قضيتي الميراث والنفقة، والرد علىٰ مَن أنكر شفاعة الرسول المصطفىٰ ﷺ.

من جانبٍ آخر فقد كان لمعاناة صلاح سلطان ومعايشته لمشكلات الواقع الإسلامي في بلدان الغرب (أوروبا وأمريكا) تجلياتها الظاهرة في عددٍ من الإسهامات العلمية المنضبطة؛ مما نجد له أمثلة في مشاركة المسلمين في الانتخابات الأمريكية وجوبها وضوابطها الشرعية، وفي الضوابط المنهجية في فقه الأقليات المسلمة، وفي رده علىٰ فضيلة مفتي مصر في حله تجارة مسلمي الغرب في الخمور والقمار والربا، وهو ما أتمَّه بشكلٍ عملي في عددٍ من الفتاوىٰ المهمة التي صدرت عنه لمسلمي الغرب.

إن صلاح سلطان الفقيه والأصولي يبرز وجهًا متوازنًا يجمع بين التأصيل الأكاديمي الموصول بإرادة خدمة الجماهير المسلمة، وهو في كلٍّ يصدر عن علمٍ يرعىٰ فقه الواقع موصولًا بفقه النص، غير معزولٍ ولا مفصولٍ عن التحديات الكبرىٰ التي تواجه الإسلام والمسلمين في بلدان العالم الإسلامي أو في خارجه في البلدان الغربية.

وهو في سعيه للتعاطي مع المشكلات التي تُفجِّرها هذه التحديات يُدرك طبيعة المرحلة المعاصرة وطبيعة الخصومات التي تنطلق في أحيانٍ غير قليلة من مواقف غير شرعية وغير نبيلة، وهو في الوقت نفسه مدركٌ تمامًا لطبيعة الرسالة الإسلامية وعالمية فكرتها وانقطاع الوحي بها إلىٰ الأرض.

إن هَمًّا مركزيًّا يبدو ملحًّا خلف هذه القائمة المتميزة من إنتاجه العلمي؛ وهو هَمُّ وحدة المسلمين ووحدة آمالهم ومتابعة قضاياهم، والسعي نحو حل مشكلاتهم من بوابة مراقبة مبادئ التيسير، مهتديةً بروح مقاصدية غير خافية، مما يظهر وعيًا فقهيًّا وأصوليًّا معاصرًا لم يزل يواجه شيئًا من عدم الانتشار.

ثانيًا: قائمة الإنتاج التربوي والدعوي (الوعي بقيمة التزكية):

وإذا كان عددٌ من الأصوليين المعاصرين من مثل الدكتور طه جابر العلواني يرون في التزكية الضلع الثالث المركزي للمقاصد الإسلامية، وهو الضلع المتمم لضلعي التوكيد والعمران، فإن هذا المقصد يظهر ظهورًا مستعلنًا ومستفيضًا في قائمة مؤلفات صلاح سلطان التربوية والدعوية المنطلقة من الأصول الكبرىٰ للإسلام، متمثلةً في الاهتداء بالنصّ القرآني العزيز وسنة المصطفىٰ ﷺ، كما يلي:

1- سورة الكهف: منهجيات في الإصلاح والتغيير.. دراسة تأصيلية تطبيقية.

2- (ورتل).. أحكام التجويد للمعلمين والمتعلمين مع تطبيقٍ علىٰ كل آيةٍ من جزء عم.

3- الحياة الزوجية في الواقع المعاصر.. مشكلات واقعية وحلول عملية.

4- مخاطر العولمة علىٰ الأسرة عالميًّا وإسلاميًّا وحبل الوقاية والعلاج.

5- الأسرة آلام وآمال.

6- مفاتيح الحب القلبي بين الزوجين.

7- الألفة بين الزوجين.. خطوات عملية.

8- نصيحة عملية في حقوق الأبناء علىٰ الآباء.

9- نصيحة عملية في حقوق الآباء علىٰ الأبناء.

10- المقاصد التربوية للعبادات في الفرد.

11- هجرة الدعاة أم الرعاة؟

12- الصراع مع الشيطان.

13- قبلتنا بين أمة راكدة ورائدة.

14- الإسراء والمعراج: مقدمات- أحداث- نتائج.

15- الصيام مدرسة التغيير.

16- الصيام لجام الشهوات الأربع.

17- ثوابت الإيمان بعد رمضان.

18- التكوين العلمي والفكري للقرضاوي.

19- التيسير في الحج والعمرة.

20- الأمن الاجتماعي في الإسلام بين الأهمية والمسئولية.

21- مخاطر الأمية علىٰ الأمن الاجتماعي ودور الأئمة والمساجد في معالجتها.

22- أولاد حارتنا.. قراءة نقدية.

23- في ألمانيا أصابت امرأة وأخطأ البابا.

ملاحظات على قائمة الإنتاج الدعوي والتربوي

المتأمل لهذه القائمة التربوية والدعوية يلمس عددًا مهمًّا من العلامات المؤثرة جدًّا في حركة النهوض بالأمة الإسلامية، يأتي في قمتها هذا الوعي المقاصدي البارز في نوعين من المعالجة إجماليةً وتفصيلية، فهو يجمل مقاصد العبادات، ثم يعود فيُفصِّل القول في مقاصد عبادات مخصوصة بمردودها الاجتماعي كالصيام تعيينًا. وتتوزع عنايته التربوية والدعوية علىٰ محاور بناء الفرد وتزكية نفسه وبناء عقله والارتقاء بوجدانه، عبر بوابة (ورتل) وعبر بوابة أهل الكهف، وما حازه من مؤهلات التكوين والتزكية، ثم تتدرج العناية لتبلغ قمتها السامية عند أعتاب مرحلة البناء المركزي المتمثل في الأسرة المسلمة، فيوسعها بأصناف العناية كما يتضح من المؤلفات من رقم (3- 9)، مهتمًا بالحياة الزوجية في اشتباكها مع الواقع المعاصر من رؤيةٍ واقعيةٍ تسعىٰ لإيجاد حلول عملية غير مغرقة في التعجيز أو المثالية غير المتحققة، ثم في رصدٍ لمخاطر العولمة والهيمنة الغربية علىٰ بنائها، وترسيم الطريق للخلاص من سلبيتها، مع عناية بمفاتيح الحب بين قلبي مؤسسي الأسرة، ومحددًا في خطوات عملية صناعة الألفة بين الزوجين، ثم بيان الحقوق العملية المتبادلة للأبناء علىٰ الآباء، وبالعكس، في توازنٍ هو واحد من كل المدرسة التربوية والدعوية التي ترعرع سلطان في أكنافها.

وصلاح سلطان ينطلق في معالجته لتزكية الإنسان ومقاصد الإسلام في بناء الأسرة من أساسٍ مهم يرعىٰ بعدًا مهمًّا في رعايةٍ وإتمام تأهيل المجتمع إسلاميًّا؛ فيقرر أهمية الأمن المجتمعي والمخاطر التي تتهدده من عددٍ من المشكلات المتفشية في

المجتمعات المسلمة كالأمية، وهو في كل أطروحاته لا يتوقف عند أعتابِ التشخيص ورصد الداء، وإنما يواصل في إيجابيةٍ هي واحدة من أهم سماته التكوينية وضع الحلول ورسم سبل العلاج.

صلاح سلطان نموذج للداعية الموهوب، والمؤهل الذي يملؤه اليقين في قدرات الإسلام علىٰ تخطي مشكلات الواقع المعاصر ومعاناة المسلمين في أجوائه، وهو نموذج نقدمه ونُلقي الضوء عليه من باب أن ذلك ضرورة وقت لاعتباراتٍ كثيرة غير خافية علىٰ المتابعين لحال الدعوة المعاصرة في الداخل الإسلامي وفي الخارج العربي.

صمت الكروان..
تمهيد لقراءة جابر قميحة

1- مدخل.. لا حدود للحزن

صعب أن يمسك أحد بالقلم ليحيا مع قامة في حجم جابر قميحة، بحساب ما قدمه للثقافة الإسلامية المعاصرة وللآداب المنتمية المعاصرة وللحركة الإسلامية بوجه عام.

ثم هو صعب جدًّا أن يكتب الابن عن أب بحجم جابر قميحة، ولا سيما إذا كانت أبوة جابر قميحة أبوة تعليم واكتشاف وتدريب وفتح آفاق.

ثم هو محزن جدًّا أن يرحل رجل طالما وهب من وهج عقله ودم مهجته ما غذَّىٰ به شجرة الفكرة الإسلامية المعاصرة، في ميدانٍ طالما شغب عليه الخصوم، وأطالوا لسانهم باتهام الحركة الإسلامية من خلاله، وهو ميدان الإبداع الأدبي، شعرًا ومسرحًا بوجه خاص.

2- أبوة عقل

تعود علاقتي بالراحل الكريم جابر قميحة إلىٰ نحو من ربع قرن أو يزيد، عندما التقيته في قسم اللغة العربية بكلية الألسن بجامعة عين شمس في نهاية الثمانينيات، ودام اتصالي به والتردد عليه في بيته؛ الذي كان كعبة أعلام كبار رجال الثقافة والفكر والآداب.

وقد كانوا قديمًا يقررون أن أبوة العقل كأبوة الرحم، وربما رجحتها في الميزان، وأنا أشهد الله عز وجل أن أبوة الراحل لطالما منحت كثيرًا من أبناء الحركة الإسلامية من الشعراء والنقاد زادًا ضخمًا، تعريفًا بمنجزهم ودعمًا لمسيرتهم وتبشيرًا بطاقاتهم الإبداعية في المجالات المختلفة.

وفي هذا السياق؛ فإن الحق باعث علىٰ أن أعترف أن قدرًا من فضل الله عليَّ في خدمة الثقافة الإسلامية المعاصرة راجع إلىٰ ما قدمه الرجل لي من رعاية تجاوزت

حدود المؤازرة إلىٰ أجواء الدعم والتعريف بي، وخلق مساحات لنشر ما أكتب في داخل مصر وخارجها.

لقد كان جابر قميحة أنموذجًا فريدًا ومثالًا فذًّا للإخلاص، فرحًا بظهور الأقلام الخادمة للفكرة الإسلامية المعاصرة في ميدان اللغة والآداب والفكر والإبداع.

3- طاقات الإبداع في حجم اتساع النهر

وليست المنزلة السامقة التي تبوَّأها جابر قميحة راجعةً إلىٰ أبوته القادرة ولا إلىٰ أستاذيته الفريدة أكاديميًّا فقط، ولكن تستمد وجودها من طاقاته الإبداعية واسعة المجال؛ فقد كان الرجل واحدًا من أكبر الرواد في ميدان الأدب الرسالي؛ أي الخادم للفكرة الإسلامية علىٰ امتداد الميادين التالية:

أ- الإبداع الشعري.. إنشاءً وترجمةً

ب- الإبداع المسرحي

ج- الإبداع النقدي.

د- الدراسات الأدبية النقدية.

هـ- الدراسات الأكاديمية في ميدان اللغة العربية والثقافة الإسلامية

وهذا الاتساع في ميادين الثقافة؛ جعله رائدًا وأستاذًا حقيقيًّا لعدد من أجيال الأدباء والنقاد الإسلاميين، واتسم عطاؤه في هذه الميادين بالخصائص التالية:

أولًا: التنوع الأجناسي:

وذلك أن الرجل أبدع في عدد من الأجناس الأدبية المختلفة، شعرًا ونثرًا ومسرحية وسيرة.

ثانيًا: الاتساع الكمي والكيفي للمنجز:

إن قراءة منجز جابر قميحة دالٌّ علىٰ وفرٍ كميٍّ وغنًىٰ كيفيٍّ، يعطي الدليل علىٰ عكوف عجيب علىٰ خدمة الأدب والفكر والثقافة المعاصرة من منظور إسلامي.

ثالثًا: الرقي الفني والجمالي:

ومع ذلك المنجز الكمي؛ فقد كان الرجل أديبًا رفيع المستوىٰ بالنظر إلىٰ القيم الفنية والجمالية، إذ كتب الرجل فكشف عن شاعرية حقيقية حائزة لمقامات فنية

وجمالية تجاوزت إلىٰ ابتكار علىٰ مستوىٰ معمار الأعمال الأدبية.

رحيل جابر قميحة خسارة فادحة إنسانيًا وإسلاميًا وثقافيًا وحركيًا:

إن صوت البلبل الذي طالما أمتع ونافح عن الإسلام... يصمت الآن، وإني لأرجو أن يبعث صوته القديم في أوساط الحركة الإسلامية؛ نشرًا لما كتبه واحتفاء بما خلفه.. رحم الله ذلك الصوت رحمةً واسعةً.

عبد الصبور شاهين.. الموسوعة الهادرة

يوشك المتابع لمسيرة الفكر الإسلامي واللغوي المعاصر أن يضع عبد الصبور شاهين رَحِمَهُ اللَّهُ الذي رحل بعد ما يزيد عن ثمانين سنة ملأ الدنيا خلالها علمًا وحركة- يضعه في طليعة رواد هذين المجالين المركزيين في دوحة الثقافة العربية المنتمية، وهذا كلام حق لا شبهة للمجاز فيه، ولا لمقام الفقد والرثاء أثر في مجافاته للحقيقة. رحل مجمع ثقافي حقيقي ترافدت عليه تكوينات معرفية متنوعة، تكاملت في نفسه وعقله ووجدانه، من الأزهر ابتداءً ثم من دار العلوم التي تخرج منها سنة 1956م، متأخرًا عن دفعته بسبب من آثار استبداد هذه المرحلة التاريخية من حياة مصر المسلمة، ثم من الثقافة الفرنسية التي أتقنها قراءة وكتابة وخطابة وترجمة، فعملت هذه الروافد الثلاثة عملها الجبار في عقل واحد من جبابرة عقول العصر الحديث في الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة.

(1) ملامح التكوين: روح النحلة

الذين عرفوا عبد الصبور شاهين رَحِمَهُ اللَّهُ يسهل عليهم إدراك الأبعاد الثلاثة التي شكلت ملامح صورته وترسيم شخصيته من دون عناء ظاهر، وهي الأبعاد الثلاثية التي ستحكم آثار جهاده العلمي والحركي مدة حياته علىٰ هذه الأرض، فهو رجل تراثي كان مخزنًا للحكمة العريقة التي غذّته من أعرق معاهد العلم الإسلامية ممثلة في الأزهر الشريف، ثم ما نمَّا هذه التغذية بما امتد إليها وآزرها بما حصّله من أعرق معاهد العلم بالعربية في العالم العربي المعاصر، متمثلًا في كلية دار العلوم التي تخرَّج فيها سنة 1956م في دفعة برز من أبنائها فيما بعد العلامة اللغوي الراحل رمضان عبد التواب رَحِمَهُ اللَّهُ 2001م، والعلامة الأصولي الراحل عبد العظيم الديب رَحِمَهُ اللَّهُ 2010م، ثم واصل تلمذته علىٰ يد أكبر رواد الدرس اللغوي في العصر الحديث، وهو العلامة الرائد إبراهيم أنيس، ثم كان الرافد الثالث ممثلًا في الثقافة الفرنسية التي حصّلها وأبدع فيما نقله عنها من غير وفادة إلىٰ هذه البلاد، بل باجتهاد شخصي يُظهر مدىٰ العزيمة التي لا تعرف الضعف.

يُضاف إلىٰ هذه الروافد الكبرىٰ التي غذَّت تكوينه فاستحصد وقوي واشتد عودًا، رافد آخر مهم جدًّا تمثّل في صحبته لأعلام المفكرين الذين عاصرهم في فترة ممتدة من عمر القرن الميلادي المنصرم، ولا سيما صحبته لمالك بن نبي رَحِمَهُ اللهُ سنة 1973م المفكر الجزائري الإصلاحي العملاق، ومحمود محمد شاكر علامة العصر في غير ما ميدان بلا منازع رَحِمَهُ اللهُ 1996م، والدكتور محمود قاسم ومحمد فؤاد عبد الباقي رحمهما الله تعالىٰ.

وهي أسماء كبرىٰ تَدُلُّك علىٰ عظم ما يمكن أن يكون قد تسرَّب إلىٰ نفس عبد الصبور شاهين وعقله من هذه الصحبة التي أثمرت في غير ما مجال من مجالات الارتقاء بالراحل الكريم.

هذه بالإضافة إلىٰ أعلام الثوار الجزائريين الذين صحبهم مدة في مصر، وخطب فيهم محيِّيًا جهودهم في مقاومة المحتل الفرنسي نيابةً عن بعض المحافل المصرية، ولك أن تستشعر أثر هذه الصحبة في نماء عقل عبد الصبور شاهين من هذا الشكر الذي صدَّر به ترجمته للكاتب الماتع الذي ألفه مالك بن نبي – رحمه الله تعالىٰ – بالفرنسية، وترجمة الراحل الكريم قائلًا: "كان من فضل الله أن تولىٰ أستاذنا الكبير محمود محمد شاكر تقديم كتاب "الظاهرة القرآنية" إلىٰ القراء، هذا التقديم الثمين الذي يعد بحق أروع ما كُتب في مسألة اتصال بيان العرب في الجاهلية بقضية إعجاز القرآن، وإني لأتقدم بالشكر إلىٰ الأستاذ الدكتور محمود قاسم رئيس قسم الدراسات الفلسفية بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة علىٰ توجيهاته التي أفدت منها الكثير، وإلىٰ الأستاذ المحدث محمد فؤاد عبد الباقي علىٰ تفضله بتحقيق ما عسر عليَّ تحقيقه من أحاديث الكتاب."

ففي هذا الشكر العابر تجلية لآثار رافد مهم جدًّا غذَّىٰ وجدان الراحل الكريم وعقله.

(2) ثمرات الجهاد الطويل، بحار من الأحبار المضيئة

وقد أثمرت هذه الروافد الأربعة التي شكلت الكيان الضخم الذي حمل اسم عبد الصبور شاهين حتىٰ صيره جبلًا من جبال العلم في هذا العصر الذي نحياه، أثمرت

ثمرات يانعة عديدة يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: ثمرات في الترجمة.

ثانيًا: ثمرات في الدرس اللغوي.

ثالثًا: ثمرات في الفكر الإسلامي.

كان عبد الصبور شاهين بحكم المهنة والتخصص الذي خدمه طيلة ما يقرب من ستة عقود كاملة، خادمًا لفرع له سطوته وحضوره المركزي في العصر الحديث، ألا وهو فرع الدراسات اللغوية أو العلوم اللغوية، أو التي شاع واستقر تسميتها باسم اللسانيات، وعبد الصبور شاهين فيما سنورده من علامات أخرجها في هذا الميدان المهم ابنٌ بار لروافد تكوينه جميعًا، ولعل أشهر ما تركه في هذا المجال العلمي يكمن فيما يلي:

1- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث 1966م.

2- أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: أبو عمرو بن العلاء 1987م.

3- عربية القرآن 1997م.

4- في علم اللغة العام 1990م.

5- في التطور اللغوي 1991م.

6- العربية لغة العلوم والتقنية 1982م.

7- دراسات لغوية 1976م.

8- المنهج الصوتي للبنية العربية: رؤية جديدة للصرف العربي 1977م.

وأنت واجد في هذه القائمة لمجمل إنتاجه المهني ملاحظات دالة وفارقة، يهيمن عليها شعور جارف بما حققه الدوران حول الذكر الحكيم من ارتقاء بالدرس اللساني العربي خلال تاريخه الطويل، وهو ما ظهر في عنوانات الكتب الثلاثة الأولىٰ تعيينًا، أضف إلىٰ ذلك سعي دائب نحو الدفاع الإيجابي عن قدرات العربية في مواجهة دعاوىٰ اتهامها بالضعف، ولاسيما علىٰ ما يظهر في كتابه الرائد "العربية لغة العلوم والتقنية"، وهذه العلامات دالة في المقام الأول علىٰ فريضة الانتماء التي خدمها بما

تخصص فيه، فجعل المهنة في خدمة الأمة.

ثم كان عبد الصبور شاهين باعتبار الرافد الأجنبي ممتلكًا ناصية اللسان الفرنسي منتجًا ومؤثرًا، بما ترجمه عن هذه اللغة التي تعلمها بجد واجتهاد دالين علىٰ عزيمة وإرادة لا تلين، وقد توزع إنتاجه في ميدان الترجمة عن الفرنسية علىٰ ميدانين هما: ميدان التخصص في علم اللغة، وميدان الفكرة الإسلامية التي وهبها عمره، وما ترجمه في حقل التخصص:

1- العربية الفصحىٰ: دراسة في البناء اللغوي سنة 1966م لهنري فليش اليسوعي، ولك أن تعلم أنه ترجمه وهو لم يزل بعد معيدًا في دار العلوم علىٰ ما يقرر هو في مقدمة الطبعة الرابعة للكتاب ص5 (1997م)؛ حيث يقول: لقد كنت حين ترجمت هذا الكتاب في أوائل الستينيات ما أزال معيدًا بكلية دار العلوم!

2- علم الأصوات: لبرتيل، لمبرج 1984م، ولعله أول مَن عرف الأوساط الدراسية اللغوية في العالم العربي بهذا اللساني السويدي المعاصر.

لكن أهم سهمة في الحقيقة لعبد الصبور شاهين في الثقافة المعاصرة، تتمثل فيما نقله من عيون أدبيات الفترة الإسلامية التي كتبها مفكرون إسلاميون معاصرون بالفرنسية لاعتبارات مختلفة، وأنا شاهد في يوم صحبت فيه الراحل الكريم من القاهرة إلىٰ طنطا ذهابًا وإيابًا وكنت ثالث ثلاثة معه ومع الراحل الكريم رمضان عبد التواب من نحو خمسة عشر عامًا، عندما قال: إن أعظم عمل يرجو من الله سبحانه أن يقبله ويثيبه عليه هو ترجمته للدراسة الرائدة التي كانت في أصلها أطروحة الدكتوراه للعالم الرباني الراحل محمد عبد الله دراز رحمه الله "دستور الأخلاق في القرآن الكريم"... والثقافة العربية المعاصرة مَدينَة لعبد الصبور بما ترجمه من مؤلفات المفكر الجزائري المسلم مالك بن نبي، ومن أشهر هذه الترجمات:

1- دستور الأخلاق في القرآن الكريم لمحمد عبد الله دراز، سنة 1973م.

2- الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي 1958م.

3- وجهة العالم الإسلامي 1981م.

4- فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج 1957م.

5- مشكلة الثقافة 1959م.

6- ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، الطبعة الأولىٰ بلا تاريخ، والثانية 1962م، والثالثة 1986م.

7- شروط النهضة، (بمشاركة عمر كامل مسقاوي) 1960م.

وهذا الانشغال بترجمة مالك بن نبي يعكس الدور الجبار الذي أسهم به الراحل الكريم في خدمة قضايا التحرر الوطني الذي قاده قادة الفكرة الإسلامية في العالم العربي، وهو بعض ما يكشف عن أثر تربية مدرسة الإخوان المسلمين في هذا البناء الشامخ الذي رحل عنا.

(3) عبد الصبور شاهين: ملامح شخصيته

إن الذين عرفوا الراحل الكريم يلفتهم إليه أمور كثيرة تحدد قسمات صورته وترسم أبعاد شخصيته؛ ذلك أنه مسلم حقيقي آمن بفريضة العمل للإسلام، فكانت حياته كلها هبة لهذا الإيمان عملًا علميًّا، كما تجلىٰ فيما خلفه من معرفة مؤلفة أو مترجمة، وحركة دائبة معرِّفًا بأهداف الثورة الجزائرية، ومواجهًا لاستبداد النظام في الستينيات وموجِّهًا لأجيال الصحوة المعاصرة، بدءًا من جيل السبعينيات بما تراكم علىٰ يديه من آثار خطابته في أقدم مساجد مصر وإفريقيا؛ حيث ظل زمنًا طويلًا خطيب مسجد عمرو بن العاص، ومشتبكًا مع الشأن العام إعلاميًّا وسياسيًّا بنشاط تشهد به أروقة مجلس الشورىٰ المصري.

والذين يعرفون عبد الصبور شاهين يعرفون رجلًا يهدر كالطوفان علمًا وحركة، ويهدر كالطوفان دعابةً صادقةً دالة علىٰ مروءة نفس ونقاء سريرة. لقد كان صوته من أعذب الأصوات وأصدقها في خدمة الفكرة الإسلامية وصَمَت طوفان هادر كان يملأ الدنيا بما ينفع ويوجِّه الحياة نحو الرشاد، لكن آثاره الجبارة ستظل شاهدة علىٰ عطاء، نسأل الله تعالىٰ أن يكون قائده إلىٰ الجنة.

الدكتور عبد العظيم المطعني..
الموسوعية المجاهدة

لم أجد وأنا أراجع سيرة الدكتور عبد العظيم المطعني في خدمة العلم إلا قول أبي عبد الله، أحمد بن حنبل في وصف شيخه الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي يقول فيه: كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس.

وعبد العظيم المطعني- يعلم الله تعالىٰ- كان في بعض ما قدَّمه لدينه وأمته شمسًا وسط ظلامٍ دامسٍ مُطبِّق، وعافية وسط أمراض جسام هجمت علىٰ أمتنا.

ولقد كنت- وهو من أخطائي القديمة التي مَنَّ الله عليَّ بتصحيحها- أنظر إلىٰ الدكتور عبد العظيم المطعني من زاوية تخصصه العلمي الدقيق، وهو البلاغة العربية وهو العلم الذي ظهر أول ما ظهر، وغايته الكشف عن إعجاز الكتاب العزيز.

وكنت أقف أمام دراسته الجبارة "المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع.. عرض وتحليل ونقد" مجلًّا ومكبرًا ومثمنًا هذا الصبر والدأب والعلم، ثم أعود فأقول: هذا نموذج بديع لما ينبغي أن يكون عليه البحث والدرس، استقصاءً وعرضًا وعدم خضوع لما شاع من أقوال، ومقاومة سطوة هذا الشائع، وأدبًا في التناول وتقديرًا لجهدِ من سبق.

وقد كانت عينه طامحة صوب العقيدة النقية، مدركًا اشتباك البلاغة العربية في دراستها لمشكل المجاز بالاعتقاد، واللغة والفرق والتاريخ، وإلخ.

ولو لم يكن للدكتور عبد العظيم المطعني غير هذا السفر الكبير الماتع لكفاه، ولارتقىٰ بمنزلته إلىٰ درجة سامقة، بما توافر فيها من إتقان وضبط وكشوف، كان منها أن إنكار المجاز في اللغة قبل ابن تيمية لم ينسب إلا إلىٰ رجل واحدٍ مع ضعف مستنده وضعف النسبة إليه، وأن إنكار المجاز في الذكر الحكيم لَم يصح فيه دليل واحد منذ قال به داود بن علي الظاهري، إلىٰ أن قبل كل ما يمكن أن يقال فيه علىٰ يدي الإمامين ابن تيمية وابن القيم، حتىٰ صح عنده بعد هذه الضجة العارمة، أن

ظاهرة إنكار المجاز في اللغة، وفي القرآن العظيم إنما هي مجرَّد شبهة كتبت لها الشهرة، ولم يكتب لها النجاح!.

وكان لواقع الأمة أثره في جهاد الدكتور عبد العظيم المطعني العلمي، حتىٰ استوىٰ فيه مسارات عديدة تسعىٰ نحو الانتصار لهذه الأمة ومقاومة عوامل النخر التي تسعىٰ إلىٰ إسقاطها وتدميرها، ويمكن إجمال مسارات جهاده العلمي والدعوي فيما يلي:

1- الندوات والمؤتمرات المشتبكة مع القضايا الإسلامية.

2- الاشتباك مع أعداء الفكرة الإسلامية من العلمانيين وغيرهم من أصحاب الملل الأخرىٰ.

3- مواجهة شبهات المشككين ببيان حقائق الإسلام المشرقة المنيرة.

4- الفتاوىٰ المشتبكة مع ثوابت الأمة.

5- التدريس الجامعي والإشراف العلمي.

6-التأليف المتخصص في البلاغة، ولقد صاحبته في كثير جدًّا من الندوات التي كان يُدعىٰ إليها فيسعىٰ ملبيًا مضحيًا غير عابئ بظروف سن متقدمة، ولا عابئ بظروف مرضية ضاغطة، وكانت "آفاق عربية" ونقابة الصحفيين وغيرهما من المواقع؛ شاهدةً علىٰ هذا الجهاد العلمي ضد هجمات دنيئة من قِبل خصوم الإسلام.

ولقد كان أول التفات مني إلىٰ موسوعيته الإسلامية الفذة التي تذكر بتاريخ أئمتنا العظام- ما رأيته من توقيع له علىٰ الرد علىٰ مفتي في فتواه بحل ربا البنوك أمام الرقم (27) وهو ما ترىٰ صورة ضوئية له ملحقة بآخر كتاب فوائد البنوك هي الربا الحرام للدكتور يوسف القرضاوي مكتبة وهبة بالقاهرة عام 1419هـ= 1999 م، ص 197. وهو ما استوقفني أمام مجموعة من العلامات المهمة جدًّا في هذا السياق الذي يتأمل الموقف العلمي لجيلٍ من أساتذة مصر ممن انتموا إلىٰ الأزهر الشريف؛ حيث توظف المعارف والعلوم الشرعية والعربية لخدمة دين الأمة، وأن من الأخطاء الكبرىٰ التي نجح غيرنا في تصديرها إلينا التفريق بين ما يسمىٰ عقيدة وما يسمىٰ عبادة

وما يسمىٰ معاملات، والأولىٰ أن يسمىٰ كل ذلك دينًا وشريعةً، وهو ما تجلىٰ تجليًا بديعًا في فتاوىٰ الدكتور عبد العظيم المطعني، وهو أهم ما يميز ما صدر منه من فتاوىٰ تقديره الخطير للواقع الذي تمر به الأمة.

لقد كانت الفتوىٰ عنده بنتًا بارةً لما يُسمَّىٰ بفقه النوازل، يقرأ ما وراء الأحداث في اشتباكه مع الهجمة علىٰ أمتنا، ثم يفضح محاولات جرنا إلىٰ ما سمي زمانًا باسم حوار الأديان، حتىٰ كان يحرِّمه في الملابسات القائمة الراهنة، ولعل مراعاة واقع الأمة وما يُدبَّر ضدها لاستمرار إضعافها والسعي نحو اقتلاعها من الوجود؛ هو أهم ما يميز ما صدر عنه من آراء وفتاوىٰ.

ثم يأتي مظهر آخر من أهم ما أسهم به الدكتور المطعني في حركة الجهاد العلمي والدعوي انتصارًا لدين الأمة، من كتاباتٍ ترد علىٰ شبهات المشككين من خصوم الأمة الإسلامية، وهو ما يعكس الوجه المشرق لما سميناه الموسوعية المجاهدة، وفي القائمة التالية ما يعكس هذا الذي نقرره حيث رد علىٰ الشبهات التي أُثيرت وتعلَّقت بما يلي:

1- جمع القرآن.

2- تعدد مصاحف القرآن.

3- تعدد قراءات القرآن.

4- الكلام الأعجمي فيه.

5- التناقض.

6- التفكك.

7- التكرار.

8- النسخ.

9- الغريب.

10- المنقول عن غيره.

11- مجموعة مما سمي عند خصوم القرآن باسم المخالفات اللغوية والنحوية من نصب الفاعل وتذكير خبر الاسم المؤنث.. إلخ.

12- مجموعة من الشبهات المتعلقة بمقام النبوة الكريمة من مثل: دعوىٰ خلو الكتب السابقة من البشارة برسول الإسلام، إلىٰ غير ذلك من الاتهامات المغرضة التي نفث في نارها خصوم هذه الأمة وأعداؤها، وهي كما ترىٰ في الأمثلة السابقة موزعة علىٰ كثير من أبواب العلوم الشرعية والعربية المختلفة، وقد تميز منهجه في هذا الباب الخطير من أبواب العلم بمجموعة من السمات والمميزات منها:

1- إيراد الشبهة واضحة.

2- الرد علىٰ الشبهة تفصيلًا.

3- استقصاء الآراء السابقة واستثمارها في بيان الرد علىٰ الشبهة.

4- استثمار المعرفة المتخصصة في مصادرها الأصيلة في الموضوع مثار الشبهة، ومن الأمثلة التي تجلي منهجه في الرد علىٰ الشبهات ما كتبه في دحض دعوىٰ تقول كيف يكون القرآن عربيًّا مبينًا وبه كلمات أعجمية.

5- بيان الرأي في موقف المشككين في وضوحه.

وفي سبيل تفنيدها يقرر الحقائق التالية:

أ- أن وجود مفردات غير عربية الأصل أمر أقره علماء الأمة.

ب- العجمة المقررة تتعلق بمفردات كثير منها أسماء أعلام.

ج- لا سبيل لوجود جملة غير عربية في القرآن وبالنظام النحوي؛ يحكم علىٰ نص ما بأصالته اللغوية من عدمها.

د- أن وجود كلمات أجنبية في أي لغة لا يخرج بها عن أصالتها.

هـ- ثمة إسراف عند مروجي هذه الشبهة حتىٰ قالوا بعجمة ألفاظ لا سبيل إلىٰ القول بعجمتها كالزكاة والحور والله والسكينة.. إلخ.

و- إغفال ما يسمىٰ بالألفاظ العربية بالاستعمال، مما كان قبل الإسلام أعجميًّا عرَّبه العرب، ثم أخضعوه لمقاييس اللفظ العربي.

لقد كان الدكتور عبد العظيم المطعني رجلًا يذكرك سمته بسلفنا الصالح، ويذكرك كذلك بحجم ما سكن النفس المسلمة في تلبسها بالعلم من قوة عجيبة

تشدها إلى جذورها، ومن يقين جارف بصحة هذه الشريعة مما يعلي من حاجز المقاومة والصمود والمواجهة، ثم كان الدكتور عبد العظيم المطعني فقيهًا مخلصًا لفكرة استنقاذ الأمة من براثن هجوم مروع ضارٍ يشنه خصوم غير شرفاء، ثم كان الدكتور عبد العظيم المطعني مفكرًا سامي المنزلة، يقدر فارق ما بين أجواء النهضة التي ولَّت وأجواء النازلة التي حلت بالأمة، وهو ما قاده إلى مواجهة اتهامات المشككين والتصدي لفتاوى المغرضين ومقاومة عبث العابثين.

عبده الراجحي : وجه عربي مشرق بالانتماء :

يمثل الدكتور عبده الراجحي رحلة عطاء طويلة ومشرِّفة في خدمة العربية، بما هي لغة الكتاب العزيز،والدكتور عبده الراجحي نموذجٌ فذٌّ من الجيل الثاني المؤسس للمعرفة اللغوية في الجامعات المصرية والعربية، وهو الجيل الذي تسلَّم الراية من الجيل الأول، جيل الرواد الذي بعث في العلم بلغة العرب روحًا جديدةً عصريةً مرتكزةً على المناهج الحديثة؛ التي سعت إلى إحياء مجد الدراسات اللغوية أو اللسانية العربية، وفحص منجز اللغويين العرب في الميادين كافةً، وعلى اختلاف المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية، وبشكل لم يهمل في الوقت نفسه إخلاص درس الظواهر والمسائل والقضايا المتعلقة بتاريخ علم اللغة عند العرب، والفلسفات الموجهة له، والحاكمة على مسيرته، ومسيرة أعلام الكبار، ومصنفاته المركزية؛ التي تمثل علاماتٍ أساسيةً على طريق دراسة العربية وفقه لغتها دراسةً علميةً منضبطةً.

عبده الراجحي.. سيرة حياة موجزة

هو عبده علي الراجحي، وُلد في أكتوبر سنة 1937م بمحافظة الدقهلية بالوجه البحري المصري، درس اللغة العربية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، وتخرج منها حاصلًا علىٰ الدرجة العلمية الأولىٰ (الليسانس) بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف سنة 1959م.

ثم واصل دراساته العليا فحصل من الجامعة نفسها علىٰ درجة الماجستير في العلوم اللغوية سنة 1963م، بأطروحته عن كتاب "المحتسب" لابن جني، ثم حصل علىٰ الدكتوراه سنة 1967م عن اللهجات العربية في القراءات القرآنية، وعقب تخرُّجه عُيِّن معيدًا سنة 1961م بكليته التي تخرج منها، وظل فيها حتىٰ لقي ربه الكريم أستاذًا غير متفرغ، بعد خدمة علمية استمرت ما يقرب من خمسين عامًا.

وكان الراحل الكريم قد شغل مناصب علمية وإدارية متعددة، أستاذًا ورئيسًا لقسمَي اللغة العربية وقسم الصوتيات بجامعة الإسكندرية، ووكيلًا وعميدًا، وعرفته الجامعات العربية والعالمية أستاذًا مرموقًا في الدراسات اللغوية، ولا سيما في فرع تأهيل غير الناطقين في ميدان تعلُّم العربية، كما كان واحدًا من أهم الأساتذة الذين عُنُوا بتحكيم أعمال الأساتذة وترقيتهم في الجامعات المصرية والعربية.

وقد كان لهذا العطاء العلمي رفيع المستوىٰ أثره في اختياره عضوًا في عدد من المؤتمرات العلمية العالمية في اليونان 1979، والرباط 1981م، والكويت 1985م، وماليزيا سنة 1990م، وهو الأمر الذي تُرجم ترجمةً واضحةً في انتخابه عضوًا عاملًا في مجمع الخالدين، مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 2003م، وغيره من المجامع والاتحادات العلمية واللجان.

وفحص المنجز العلمي للدكتور عبده الراجحي يوقفنا علىٰ عدد من علامات التميز المهمة جدًّا في هذا السياق، قائدةً إلىٰ الإقرار بأنه أحد أهمِّ علماء اللغة المعاصرين في مصر والعالم العربي والإسلامي، ليس فقط، وإنما هو واحد من أهمِّ أصوات علم اللغة إدراكًا لحجم الرابطة بين علم اللغة وخدمة القرآن الكريم، وهو الأمر الذي يتبدَّىٰ خلف أطروحتيه الأساسيتين للماجستير والدكتوراه، ويمكن توزيع إنتاجه العلمي علىٰ المحاور التالية:

أولًا: الدراسات في ميدان علم اللغة، وهو الميدان العلمي الأكبر، الذي مثَّل مساحة جهاده وإنتاجه وحركته العلمية، وقد خلَّف لنا من هذه الدراسات في هذا الميدان ما يلي:

1- منهج ابن جني في كتابه "المحتسب"، الإسكندرية 1959م.

2- اللهجات العربية في القراءات، القاهرة 1968م، وطبعات أخرىٰ كثيرة بالإسكندرية.

3- التطبيق النحوي، بيروت 1972م.

4- التطبيق الصرفي، بيروت 1973م.

5- فقه اللغة في الكتب العربية، بيروت 1974م.

6- دروس في شروح الألفية، بيروت 1978م.

7- اللغة وعلوم المجتمع، بيروت 1979م.

8- دروس في المذاهب النحوية، بيروت 1978م.

9- النحو العربي والدرس الحديث، بيروت 1979م.

10- علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، الرياض 1990م.

وتظهر من هذه القائمة عنايته الظاهرة بالمنجز التراثي في علم اللغة، وإدراكه الواضح للارتباط العضوي بين دراسات علم اللغة والقرآن الكريم بقراءاته المختلفة وهو ما يظهر في (1، 2) فضلًا عن تقديره الواضح لما قدمه علماؤنا من

خدمة اللسان العربي، وهو ما تجلَّىٰ في تعليقاته وتحليلاته لعدد من عيوب مذاهبهم وآرائهم ومصنَّفاتهم علىٰ ما يظهر في (5، 6، 8)، ثم عنايته بالتواصل من المنجز العصري وما توصلت إليه المنهجيات المعاصرة في خدمة علم اللغة، وهو ملمحٌ أصيلٌ في الاتجاه الذي تمثله المدرسة الفكرية العربية الإسلامية المنتمية؛ التي لا تتنكَّر للتراث، ولا تهمل المنجز الحديث، وهو ما نراه واضحًا في (7، 9، 10).

علىٰ أن التدليل علىٰ مسألة انتمائه للمعرفة الإسلامية من بوابة خدمته لعلوم اللسان العربي تظهر - بالإضافة إلىٰ ما مرَّ من دراسات توصل لهذا المنحنىٰ - في دراسات أخرىٰ تظهر هذا الوجه علىٰ صورة صريحة لا تخطئها عين دارس لجهود عبده الراجحي في هذا الميدان، وهو ما نلحظه في المقالات العلمية (وهي بحوث مطولة):

أ- النحو العربي وأرسطو، اليونان 1979م.

ب- التراث العربي ومناهج علم اللغة، الرباط 1981م.

ج- التحيز في الدرس اللغوي، وهو واحدٌ من أهم بحوث الكتاب الجامع عن إشكالية التحيز، الذي حرَّره المرحوم عبد الوهاب المسيري.

هذه الثلاثة، مع ما سبق الإشارة إليه هنا، دليلٌ قاطعٌ علىٰ الروح الإسلامية التي حكمت توجهات عبده الراجحي الإسلامية.

ثانيًا: الكتب العلمية في ميدان تيسير تعليم العربية لأبنائها ولغير أبنائها ، وهناك ملمحٌ أصيلٌ ظاهرٌ جدًّا علىٰ عطاء الدكتور عبده الراجحي العلمي، وهو إسهامه المتميز في ميدان تيسير تعليم العربية، وهو يترجم عنه بكتابيه الشائعيْن: التطبيق النحوي والتطبيق الصرفي، وهما (3، 4) في البند (أولًا)، وهو الأمر الذي واصل خدمته تأليفًا في كتابه رقم (10)، بالإضافة إلىٰ ترجمته كتاب "أسس تعليم اللغات وتعلمها"، الذي نشره سنة 1994م، ثم عاد ونشر منه فصلًا مستقلًّا في كتابه "فصول في علم اللغة" 1999م، بالإضافة إلىٰ بعض بحوثه في الميدان نفسه، من مثل بحثه

"النحو في تعليم العربية لغير الناطقين بها"، ماليزيا 1990م.

ثالثًا: مصنفاته في خدمة الفكرة الإسلامية والعربية ، ومن الحق أن نقرر أنه صحيح أن الدكتور عبده الراجحي عُرف أستاذًا مرموقًا لعلم اللغة في غير ما ميدان من ميادينها، وهو الوجه البارز المعلن لكل من عرف جهاد الراحل الكريم، ولكنَّ وجهًا آخر زامن بداياته العلمية، تمثل في خدمته للفكرة العربية والإسلامية الساعية إلىٰ تأصيل الهوية، ولا سيما في حقبة تاريخية كان الصراع فيها مع الصهيونية العالمية شديدًا وعنيفًا، وهو ما يمكن أن نلحظه في كتابيه:

أ- الشخصية الإسرائيلية، وهو الذي ظهر بعد أعقاب هزيمة يونيه 1967م، ونشرته دار المعارف بالقاهرة 1968م.

ب- عبد الله بن مسعود، طبعة دار الشعب 1970م.

وهذان المثالان يُظهران الوجه الحقيقي الذي لم يختفِ للمرحوم الدكتور عبده الراجحي رحمه الله، عالمًا لغويًّا منتميًا ومتميزًا، ومفكرًا عربيًّا وإسلاميًّا، أنتج ما يدل علىٰ اشتباكه مع واقع أمته في غير ما لحظة حرجة من تاريخها المعاصر.

عبده الراجحي.. إنسانية راقية

والذين يعرفون الراحل الكريم يقدِّرون فيه أبوَّته الحانية، وإنسانيته المتدفِّقة، يعرفها كل من تعامل معه، أو عاش في الجو والوسط الجامعي المصري، ومما يُعرف عنه حَدَبه وحنوّه مثلًا علىٰ الدكتور الطناحي أيام أزمة ترقِّيه أستاذًا، حتىٰ كتب- وقد كان أحد فاحصي إنتاجه- إنه يقف من أعمال الطناحي (وهو الطالب المتقدم للترقية) موقف التلميذ الذي يتعلم (وهذا موقف أستاذ يحكم)، وهو نبلٌ نادرًا ما نقف علىٰ مثال له.

ولقد عرفته أنا شخصيًّا من نحو خمس عشرة سنة، وتوطدت علاقتي به من يوم أن ناقشني لدرجة الدكتوراه، وقد كان حفيًّا ودودًا منقذًا من بعض الشر الذي أُريد بي، وقد كان مقررًا أن أشاركه مناقشة رسالة علمية بكلية الآداب بجامعة جنوب الوادي بقنا، بدعوة من الصديق الكريم الأستاذ الدكتور حمدي بخيت عمران، إلا أنه منذ ما

يقرب من شهر؛ هاتف الدكتور حمدي واعتذر له عن عـدم استطاعته مناقشة الطالبة بعدما وصلته الرسالة واستعدَّ لها، لكنه لظروف طارئة لـم يـشأْ أن يعطِّلها، في واحدة مـن دلائـل إنـسانيته وشـفافيته في الوقـت معًـا، رحـم الله الراجحـي أسـتاذًا وعالمًـا ومجاهدًا وإنسانًا راقيًا ونبيلًا.

أحمد المجدوب :
وإعادة الاعتبار للبحث الاجتماعي من منظور الانتماء

إنا إذًا حطمة حتّت لنا ورقًا .... نمارس العود حتىٰ ينبت الورق

هذا بيت قديمٌ جدًّا جاهليٌّ، دالٌّ علىٰ صدق التجربة، قائد إلىٰ اكتشاف الحق وإثباته وعدم الخُلف فيه، وهو بيت يُضرَبُ مثلًا - أو يكاد - عندما يقبل الجدب ويعزُّ العيش وتقسو أيام الحياة؛ حتىٰ يضيق صدر المرء ويغشاه الضجر، ويركبه الهمُّ من كل مكان، ولا يجد السبيل أمامه إلا الصبر يتجرَّعه، والحطمة: الأمر الشديد يقع فيحطم كل شيء، ويحتّ ويقشر الورق الذي هو عنوان الحياة ودليل الازدهار وإقبال الربيع، فإذا ما كانت مارَسَ الحرُّ النبيلُ مَواطنَ الإثمار، وعالج أمرها ورعاها؛ عساها تورق من جديد.

عرفت الدكتور أحمد المجدوب كما عرفه كثيرون غيري من خلال كتاباته القوية التي كان يشرح فيها مواطن الخلل في بنية المجتمع المصري المعاصر، ولا سيما في ممارسات النظام القائدة إلىٰ تدمير خلايا كثيرة في جسم المجتمع المصري، وهو ما سوف نقف أمامه قليلًا فيما بعد، ثم توطَّدت علاقتي به من خلال مشاركتي له في عدد من اللقاءات في منزله العامر قريبًا من شارع جامعة الدول العربية، وفي كثير من الندوات في جريدة (آفاق عربية) قبل اغتيالها، وكان آخر لقاء مطوَّل معه عندما شرُفت بمشاركته في ندوة موسَّعة مطوَّلة عن مشكلات الأسرة المصرية مع الأستاذة الفاضلة وفاء سعداوي في صيف عام 2006م.

كان المجدوب أبًا رحيمًا، فاضت أبوَّته علىٰ كلِّ مَن عرفه، ولعلَّ نعمة الله سبحانه عليه التي تمثلت في حرمانه الولد جعلته أبًا حقيقيًّا لكثير ممن عرفه والتقاه. لقد كان أبًا في التقاطه الظواهر الاجتماعية التي أرَّقت ضميره العلمي، وكان لها أثرها الطاغي في تشكيل المجتمع المصري المعاصر، ولعل عمله الطويل في مركز البحوث الاجتماعية والجنائية أستاذًا مرموقًا، مكَّنه من إدراك كثير من المشكلات التي نخرت

في العمود الفقري للمجتمع المصري، وهو ما تلمسه في رصده الآثارَ المدمرة لكثير مما ظهر من الأمراض المجتمعية، ولا سيما فيما عالجه من بحوث حول ما تعرَّضت له الأسرة المصرية من تفكُّكٍ وانهيارٍ؛ بسبب طغيان الثقافة المادية، وتقديم المادة والعناية بها، والاغتراب من أجل جمعها؛ مما أنت واجدٌ له أمثلةً ظاهرةً.. في مثل بحوثه حول "زنا المحارم"!!

لقد استطاع أحمد المجدوب أن يرصد أنّ الانقلاب في ترتيب أولويات الأسرة المصرية أدَّىٰ- في كثير من المجتمعات الإقليمية في مصر علىٰ وجه التحديد- إلىٰ ما يشبه الكارثة.

وفيما يلي يمكننا أن ندلِّل علىٰ ذلك:

1- خلل العلاقة بين الأمن السياسي والأمن الاجتماعي في ممارسات النظام المصري المعاصر؛ إذ يرىٰ المرحوم الدكتور أحمد المجدوب أن انشغال النظام المصري بتأمين استقراره في الحكم، وحماية الأسباب القائدة إلىٰ ذلك، والالتفات إلىٰ كل ما مِن شأنه أن يمسَّ هذا الاستقرار والمبالغة في رعاية هذا الجانب، أفضىٰ إلىٰ إهمال مروِّع في كل نواحي ما يمكن أن نسمِّيَه "الأمن الاجتماعي" حتىٰ غدا الاعتداء علىٰ العرض أهونَ بدرجات جبَّارة من مجرد إشاعة تصل إلىٰ الجهاز الأمني عن بعض ما يسمَّىٰ بالمظاهر الإرهابية.

وفي هذا السياق حكىٰ لي مرةً حكايةً دالَّةً؛ مُحزنةً في الوقت نفسه؛ أنه اضطُرَّ مرةً عندما حاول أحد المجرمين الاعتداء الجنسي علىٰ بعض الفتيات في إحدىٰ عمارات الحي الذي كان يسكن فيه، وحاول الناس مرارًا الاتصال بجهاز الشرطة؛ لينقذوا سكان البناية من بلطجة هذا الشاب، لكن محاولات المتصلين باءت بالفشل، فاتصل الدكتور أحمد المجدوب بالشرطة مدعيًا أن شابًّا معه متفجِّراتٌ يهدِّد بعض المحالّ؛ الأمر الذي حرَّك الجهاز الأمني ليصل في دقائق قليلة إلىٰ المكان!!

في هذا المثال البسيط الذي كان دائمًا ما يحكيه ما يدلِّل علىٰ أن ثمةَ تفسيرًا مهمًّا لكثير من المشكلات الاجتماعية عائدًا إلىٰ غياب الأمن، وانشغاله بالأمن السياسي من دون غيره.

ومن هنا، فإن بالإمكان أن نفسِّر حالة الانفلات في الشارع المصري علىٰ مستوىٰ المرور وما يحدث في الأحياء الفقيرة، من استغلال المواطنين الفقراء من قِبَل سائقي الميكروباص مثلًا؛ مما يتمثل في تقسيم المسافات، ورفع الأجرة ليلًا، ونردَّها إلىٰ ما يمكن أن نسمِّيَه الآن بمرحلة "غياب الدولة"، وهو التطور الطبيعي لما كان اقترحه الأستاذ الدكتور جلال أمين وجعله عنوانًا لبعض كتبه، وهو مصطلح "الدولة الرخوة".

وبالإمكان أن نفسِّر كذلك كثيرًا من مظاهر الانفلات في جنبات المجتمع المصري، في الأسواق والمؤسسات التعليمية والإعلامية وغيرها، بخلل هذه العلاقة بين الأمن السياسي المتقدِّم في أولويات النظام، والأمن الاجتماعي المعدوم أو المفقود أو المؤخر جدًّا في أحسن الأحوال.

إن المجتمع المصري في خطر حقيقي؛ بسبب من خلل هذه العلاقة، هذا هو صوت أحمد المجدوب الذي لا يصحَّ أن يغيب أو يخفت!!

2- خطورة تبنِّي خيار العنف من قبل النظام في مواجهة المعارضة: كان أحمد المجدوب قريبًا من الدوائر الأمنية بحكم اضطلاعه بالتدريس والتدريب في أكاديمية الشرطة، وكان من أئمة الداعين إلىٰ تبنِّي خيار المواجهة الفكرية في مواجهة ظاهرة العنف التي اجتاحت المجتمع المصري، وكان مركزها الصعيد المصري، وكان يرىٰ أن إهمال قراءة واقع هذا المجتمع الإقليمي- بما سكنه من عادات الأخذ بالثأر، وتجاهل منجزات علم اجتماع القرية في أثناء المعالجة الأمنية- هو الذي أدَّىٰ إلىٰ انفجار الوضع في كثير من الأحيان، وكان يرىٰ أن التصفية الجسدية من أكثر الخيارات خطأً.

كان المجدوب يرىٰ أن ظاهرة العنف كانت وليدةَ أسباب متداخلة: اقتصادية تمثلت في حالة الفقر المروِّع التي سقط فيها المجتمع المصري عمومًا والجنوب منه خصوصًا، وتعليمية بسبب تهميش تدريس الدين، واجتماعية في حالة تُشعِر بمساندة الفساد الأخلاقي من قِبَل النظام في مواجهة ضرب مظاهر التديُّن، علىٰ ما يظهر في ملاحقة المحجبات، ومنعهن من الظهور في الإعلام المرئي.

3- خطيئة تهميش الدين : كان أحمد المجدوب كثيرًا ما يقرِّر أن واحدةً من خطايا نظام عبد الناصر تمثَّلت في التحوُّل في النظر إلىٰ مادة الدين في مراحل التعليم العام، وإهمال التعامل معها علىٰ أنها مادة مجموع، في سابقةٍ لم تحدث في النظام التعليمي المصري، وكان يقرِّر أن تراكم التعامل بهذا الشكل كان من العوامل المؤثِّرة جدًّا في تنامي ظاهرة العنف والانحراف الفكري الذي اصطلىٰ المجتمع المصري والنظام الحاكم علىٰ حدٍّ سواء بنيرانه.

وفي الإطار نفسه كان يقرِّر أن محاصرة الإسلام المعتدل الوسطي- ممثلًا في معاداة النظام لفكر الإخوان المسلمين بعد صبغِه بدوافع سياسية- أدَّىٰ إلىٰ تنامي ظهور الجماعات المسلَّحة التي ركنت إلىٰ خيار مقاومة النظام عسكريًّا.

ولعل المراجعات الفكرية التي تدعو إليها بعضُ الأصوات المنتمية إلىٰ جماعات العنف اليوم، تقتضي أن يتحلىٰ أصحابُها بالشجاعة الكافية ليعودوا إلىٰ الدرجة الصفر التي انفصلوا فيها عن تيار الإسلامِ الوسطيِّ، الذي كان يمثِّله لحظةَ تَوجُّه هذه الفصائل ناحية العنف في جماعة الإخوان المسلمين.

إن الاعتبارات التي يسوق بها النظامُ الحاكم في مصر لتكريس التعامل مع الدين باعتباره مادةً مهمَّشةً ساذجةً وتافهةً، كان ذلك صوت المجدوب الذي ما زال هو الصوت الجدير بالصمت أمامه؛ ليتأمله القائمون علىٰ أمر التعليم في مصر، بعدما امتلأت السلال بثمار الحصاد المُرّ والدَّامي لمسيرة خمسين عامًا من عمر تهميش تدريس الدين في مصر، وتهميش ومحاصرة الإخوان وفكرهم!!

4- انهيار مصر.. طريق انهيار الأسرة المصرية: لقيت البحوث المتعلقة بمشكلات الأسرة المصرية عنايةً بالغةً من الجهود العلمية والفكرية التي بذلها الدكتور أحمد المجدوب؛ الأمر الذي قادَه إلىٰ أن يقرِّرَ أن كثيرًا من الأمراض التي تنخر في جسد مصر مردُّه إلىٰ الخلل في ترتيب الأولويات في اهتمامات الآباء والأمهات، تمثل فيما يلي:

أ- ارتقاء العناية بالمادة؛ مما قاد إلىٰ انتشار الثقافة المادية والثقافة الاستهلاكية، وتفشِّي ظاهرة السفر والاغتراب، وترك الأسرة من غير رقابة ولا عناية.

ب- الإهمال في تربية الأبناء وفق منظومة القيم الإسلامية، والتهاون في مراقبة الأبناء من قِبَل الآباء ومتابعتهم.

كان الدكتور أحمد المجدوب جرَّاحًا ماهرًا، طالما أمسك بالمِبْضَع؛ ليستأصل أورامًا تُوشك أن تهدم بنيان مصر، وكان ظهوره أشبه بظهور القمر، يتبعه مدٌّ عملاقٌ في بحر العناية بمشكلات المجتمع المصري، تحليلًا وتشخيصًا وعلاجًا، وبغياب هذا القمر وقع الجزر والانحسار؛ مما يؤذن بخطر محدق بنا في مجال خطير جدًّا، وفي سياق مؤلم جدًّا.

غاب أحمد المجدوب فغابت أقمار هادية، وانهدَّت قلاع حامية، وصمتت أجراس طالما دقَّت تحذيرًا وتنبيهًا.. سقط مؤذن عملاق، فمن يعتلي المئذنة ليرفع الأذان؟!

مصطفى الشكعة.. رحلة مع الحضارة الإسلامية

العالم الجليل الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة صاحب جهادٍ علمي وفكري وإداري غطى مساحةً كبيرةً من عمرٍ مديدٍ امتد من سنة 1917م إلى سنة 2011م.

خريطة فكر الشكعة:

إن الذين يقيِّمون أقدار الرجال مدعُوّون إلى أن يقفوا أمام رجلٍ من وزن نفيس، ومن معدن كريم، استوهبه من جهاد معرض أصيل توزع على مجموعة متقاربة ومترابطة من المحاور المنتمية بعمق علوم الأمة المسلمة، وهي المحاور التي يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: الدراسات الأدبية لتراث الأمة العربية الإبداعي شعرًا ونثرًا، وافتتاح الرجل حياته العلمية بدراسة النثر العربي أمر دال في هذا المجال؛ ذلك أن دراسات النثر العربي تغذي أمرين معًا، هما أمر الذائقة الجمالية بما أن النثر الفني جنس فني يقوم كسائر فنون القول معتمدًا على معايير جمالية على مستوى التصوير والإيقاع، هذا جانب، وأمر الفكرة العميقة التي تلازم النثر عادةً، ويقوم بعبء حملها إلى الإفهام وهذا جانب آخر، هو الأمر الذي يعكس عنايته المبكر بدراسة بديع الزمان الهمذاني بما هو واحدٌ من الناثرين العظام الذين وطدوا أركان دولة النثر في مواجهة إمبراطورية الشعر العربي.

ثانيًا: دراسات الحضارة الإسلامية تعيينًا، وهو الملمح الأظهر في إنتاج الراجل الكريم.

وفي هذا المقام يرد كتابة الأشهر "معالم الحضارة الإسلامية" شاهدًا على ما نقرره، مضمونًا إليه كتابة الأشهر الآخر "إسلام بلا مذاهب" ليعكس حلم الوسطية، ويبرز المخاطر التي تهدد بنية الاتحاد من جرَّاء التفرق والتشتت.

ثالثًا: دراسات إنتاج الأعلام الكبار الذين غذوا شجرة حضارة الإسلام، وأسهموا في تشييد صلاح هذه الحضارة، وهو ما تترجمه كتبه من بديع الزمان، وجلال الدين

السيوطي، ومحمد الغزالي، وتعد دراسته الكبيرة "البيان المحمدي" تتويجًا لمفهوم العناية بالعلم القدوة الذي ينبغي أن تتأسىٰ به الأمة جميعًا، وهذه المحاور الثلاثة بما خدمها به من التأليف والتحقيق كانت ترجمةً واضحةً لما سكن قلب الرجل علىٰ امتداد عمره.

(3) الوعي بحضارة الإسلام هي مفتاح فهم الشكعة

ليس مبالغةً إن قررتُ مستبقًا أن الوعي بحضارة الإسلام ومنجزه علىٰ الأرض هو المفتاح لفهم عقل الشكعة ووجدانه رَحِمَهُ اللَّهُ فلقد رأىٰ الرجل أن الإسلام هو جذوة النار التي أشعلت كل منابر النور في الأجواء العربية ثم العالمية، ومن أجل ذلك كانت الحضارة إسلامية بحكم النظر إلىٰ عناصر التفجير والتأسيس والميلاد، وهو نفسه يقرر أن الحضارة عندما "تسمىٰ إسلامية ما دام كان الجوهر والمنطلق إسلاميين"، وهو بهذا لا يرفض وصف الحضارة بالعربية، ولكنه يضع هذا الوصف في مكانه الطبيعي غير متصدر؛ لأن الحقيقة والواقع يقرران أن جوهر انطلاق هذه الحضارة كان هو الفكرة الإسلامية، بما سكنها من أصول:

أ- التوحيد.

ب- تقدير إنسانية الإنسان.

ج- الحضارة بالعلم والتعلم.

وتصور الحضارة الإسلامية في منجز مصطفىٰ الشكعة يتجاوز حدود الوقوف علىٰ ما درج المؤلفون عليه من إظهار إسهامات المسلمين في خدمة المنشآت والمخترعات، والمستحدثات الحضارية في الآلات والمؤسسات والمكتبات وغيرها، ولكنه وقف أمام عدد من العلامات الفكرية التي تمثل منارات أو مبادئ أو أصول أو معالم، تبقىٰ مع كل جيل وتدفعه للإنتاج المادي علىٰ هدًىٰ من تأملها وفهمها وفقهها.

وتصور معالم الحضارة الإسلامية التي انبثقت من رحم الفكرة الإسلامية جاء راميًا بالمبادئ التالية:

1- الحكم في الإسلام أصل يرعىٰ الفكرة التوحيدية، ويسوس الناس بالعدل

والمساواة من خلال المؤسسات التي أبدعها النظر في فلسفة الحكم عند المسلمين في صورة مؤسسات الخلافة أو الإمامة والقضاء والحسبة وديوان المظالم بما يوفر للمجتمع المسلم أعلىٰ صور تحقيق العدل والكفاية.

2- الفكر في الإسلام أصل جامع يميز هذه الحضارة الجبارة بما أبدعته ابتداء مما هو من خصائصها التي جاءت بها، وبما نقلته وحفظته للعالم من الثقافات الأخرىٰ، شاهدًا علىٰ قدرتها علىٰ قبول الآخر، وتقدير منجزه الإنساني الفكري طالما أنه صالح.

3- الإنسان المفكر صمام أمان لهذه الحضارة، وهو الأصل البارز في إنتاج الشكعة الفكري، بما ترجم في صورة مؤلفات مستقلة عن عددٍ من العلماء الكبار كما مر بنا، وإن في صورة فصول منجمة عن العطاء الفكري لعددٍ آخر من العلماء في مسيرة نهضة الأمة وترقيها في مدارج الكمال من أمثال الكنبي، وأبي حنيفة الدينوري، وأبي زيد البلخي، والفارابي، وأبي حيان التوحيدي، وابن مسكويه.

4- الكتابة العربية ثمرة الحضارة الإسلامية، وفي أصل رابع مهم جدًّا يقرر الشكعة أن الإسلام تغلغل في نفوس أتباعه لدرجة صبغت إنتاجه الفكري والنثري والشعري.

وقد برزت في كتابات الشكعة غاية تكاد تكون مما انفرد به، تتمثل في تأكيد أدب الحضارة الإسلامية، وهو ما يظهر في عددٍ من كتاباته الجوهرية في هذا الميدان من مثل:

أ- ما كتبه عن أدب الحضارة الإسلامية في بعض مؤلفاته من مثل الباب الذي كتبه عن هذا في معالم الحضارة الإسلامية وغيره.

ب- ما كتبه من كتب كبيرة مستقلة ولا سيما ما جاء في كتابه "الأدب في موكب الحضارة"، وما جاء في كتابه "مناهج التأليف عند العلماء العرب".

لقد تنبَّه الشكعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن الإسلام بفكرته وأصوله اختلط ببنية شعوبه، لدرجة ظهرت في أنواع كتاباتهم المختلفة بشكل ظاهر جدًّا؛ فوجد من الشعر العربي ما يصنف ملامح هذه الحضارة ومنجزاتها وسماتها من الحفاوة بالكتب والأقلام وأدوات العلم، ووجد من الشعر ما تغلغل في الحياة العامة، ووظف الشعر لينهض في

سابقةٍ حضاريةٍ بمهمة التعليم، لدرجة جاءت معها المنظومات التعليمية لتمثل واحدًا من المعالم التي تكاد تنفرد بها الحضارة الإسلامية، وهذه الأمور جميعًا هي التي رشحت الآداب الإسلامية والعربية لكي تؤثر في الآداب العالمية الشرقية والغربية، في إنتاجهما الشعري والنثري معًا.

لقد كان الشكعة من أكثر من حنا وعطف على الحضارة الإسلامية من خلال دراسة أبعادها وأعلامها وأفكارها ومؤسساتها، ولم يقف الأمر عند هذه الحدود من الكتابة والتأليف والكشف، وإنما استطاع بجهاد متواصل أن يؤصل لفكرة.. أن دراسات الحضارة الإسلامية جزء أصيل وجوهري في عصب تصور دراسة علوم اللسان العربي في الجامعات والأقسام العلمية المختلفة.

ومثّل لزمان طويل صمامَ أمان في قسم اللغة العربية بجامعة عين شمس يهبه وجهًا مشرقًا، وصنع الشكعة بما أسسه من دراسة علمية أشرف من خلالها على عدد كبير من الرسائل الجامعية العليا، ملامح مدرسة علمية قامت على خدمة المحاور التالية:

أولًا: دراسة أصول ارتقاء الحضارات وانهيارها من خلال فحص ما ورد من الذكر الحكيم والسنة المطهرة.

ثانيًا: دراسة إسهام علماء الإسلام الكبار.. كشفها وتحليلاتها وتقييمها.

ثالثًا: دراسة جهود المفسرين وعلماء السنة، ومفكري الإسلام في جمع القرآن وتفاسيره، وجمع السنة وشروحها، ومناهج التأليف.

رابعًا: دراسة الأبعاد السياسية والفكرية والاجتماعية التي تحقق وحدة الأمة، وتعكسها.

ومن مجموع هذه الآفاق؛ يمكننا أن نضع أيدينا على أعلى ما يميز الراحل الكريم في ميدان خدمة الأمة المسلمة المعاصرة.

استقلال الجامعة: موقف تاريخي:

وإذا كان ثمة دعوات كثيرة إلى استقلال الجامعات لا تخطئها عين، يراها الليبراليون في عطاء أحمد لطفي السيد، ويراها غيرهم في نشاط حركة 9 مارس، فإن المتابع المنصف لا يسعه إلا أن يقدر للشكعة- ومن منطلق إسلامي (يرعى مبادئ

المساواة والعدل، ومحاربة استغلال النفوذ، وهيمنة السلطة)؛ دوره البارز في خدمة قضية استقلال الجامعة في مصر منذ زمن طويل، ومواجهته أعلىٰ سلطة في البلاد. والواعون يرجعون بذاكرتهم إلىٰ عصر السادات، ويعرفون رفض الشكعة لمحاربة كلية الآداب بجامعة عين شمس أن تتميز زوجُ الحاكم يومئذٍ؛ عندما أرادت أن تلحق بهذه الكلية علىٰ أن تمتحن بشكل يظهر تميزها عن بقية الطلاب، فرفض وتمسك بالرفض حتىٰ انتقلت الطالبة جيهان السادات لتواصل دراستها للآداب بعيدًا عن آداب عين شمس علىٰ الضفة الأخرىٰ من النهر، كان ذلك نموذجًا مُشرِّفًا يعكس شرف المنصب وشرف تقدير الزملاء والذين منحوه ثقتهم، ويعكس طبيعة النفس العالمة التي تثق في عطاء هذه الحضارة البديعة.

مروءات الرجال

ويحار المرء في التدليل علىٰ ما سكن ضمير هذا الرجل من علاقات المروءة الظاهرة التي تحكي بها في مسيرة عمره رَحِمَهُ اللهُ ومن الممكن التوقف أمام بعضها؛ للتذكير بمقام فريد تميز به ولازمة في حياته:

1- يتذكر الجميع موقف الدكتور الشكعة من إرادة الإفساد والمجون، التي كان يتولىٰ كبرها جهات التليفزيون المصري، في إصرار الشكعة علىٰ مقاضاة هذه الجهات من أجل وقف العبث الإعلامي الداعي إلىٰ إفساد منظومة القيم في المجتمع المصري الإسلامي، وهو ما روج به إعلاميًّا وقتها بقضية فوازير رمضان في شكل من أشكال اختزال المسألة، وهو الأمر الدال علىٰ عظم تأثيرات النظر لهذه الحضارة الإسلامية في واحدة من أهم خصائصها وفوائدها وعطاءاتها الإنسانية، ألا وهي المنظومة الحضارية.

2- مواقفه في نصرة الأستاذ الجامعي، وتأصيل مكانته في نفوس المتعلمين خصوصًا، ونفوس المجتمع عمومًا، وأذكر مما أذكره له تدخله الحاسم في الانتصار لأستاذٍ تجرأ بعض الطلاب الذين يرون في أنفسهم الوصاية علىٰ الإسلام ممن كانوا يرون في أنفسهم دعاة سلفيين، وسيطرتهم علىٰ مسجد الكلية واحتكاره، فكان رده قاطعًا حاسمًا في سوء أدب هذا الطالب، وضرورة تأديبه.

3- مواقفه من تقدير الطلاب، وحفوه عليهم والتواصل معهم بأشكال مختلفة معنوية ومادية، والبحث عن سر العبقرية وراء ذلك كله كامن في انخراطه المبكرة في صندوق الحركة الإسلامية.

رحم الله العالم الجليل الدكتور الشكعة علمًا ومفكرًا وإنسانًا نبيلًا.

هل سقطت مطرقة القاضي
مدخل إلى قراءة فكر المستشار علي جريشة

الدكتور علىٰ محمد جريشة واحد من أخلص رموز الاسلام المعاصر فكرًا وحركة.

فمنذ فترة بعيدة أدرك الدكتور علي محمد جريشة رحمه الله خطر التشويه، وخطر المحو والاقتلاع؛ الذي يستهدف هذه الأمة، من خلال التعرض للقنوات المؤسسة لهويَّتها، وهو ما دفعه دفعًا إلىٰ العكوف علىٰ خدمة قضية الثقافة الإسلامية، حتىٰ غدا واحدًا من أكبر خادميها المتخصصين فيها، درسًا وتدريسًا، وتنظيرًا وتخطيطًا، وكتابةً وتصنيفًا.

(1) بداية الطريق وافتتاحه.. أين كلمة السر؟!

كانت المحنة التي عصفت بالرجل علىٰ امتداد اثنتي عشرة سنة أو يزيد بسببٍ من دينه، ثم كانت المحنة الأخرىٰ بالإخراج من الأرض التي درج عليها بسببٍ من استبداد الطغاة؛ سببًا مباشرًا في اختيار الطريق التي سار فيها مختارًا واعيًا بضرورة حمل المصباح؛ لينير الطريق أمام أبناء الأجيال التي تلته؛ تحذيرًا من المخاطر التي تحدق بالإسلام، وتراثه، وثقافته، ودعوته، ورجاله، ومستقبله.

وقد تبدَّىٰ ذلك في بعض الكتابات المبكرة جدًّا من عمره الفكري والدعوي، نذكر منها:

أ- عندما يحكم الطغاة، القاهرة سنة 1975م.

ب- في الزنزانة، القاهرة سنة 1976م.

وتأمل العنوانين وما جاء تحتهما، تدرك الأثر الإيجابي للمحن التي تعرَّض لها بسبب من انتمائه للحركة الإسلامية التي وفقها الله تعالىٰ للتصدِّي للهجوم الفاجر علىٰ الإسلام؛ بما هو منهج شامل لقيادة الحياة، كما تمثل في دعوة الإخوان المسلمين.

وربما أمكن أن ينظر إلىٰ هـذين الكتابين- تعيينًا- علىٰ أنهما أشبه شيء بسيرته الذاتية التي تجيب عن السؤال المضمر حول كلمة السر التي فتحت الآفاق واسعةً أمام اختياره وحركته علىٰ طريق خدمة الإسلام العظيم.

كان الانخراط في صفوف العاملين للإسلام في أعرق الجماعات العاملة لرفعته، والتعرض لمناهجها التربوية والفكرية والدعوية؛ هي كلمة السر العبقرية في تقييم جهاد علي محمد جريشة الفكري، وتقديره وما أسهم به في هذا المجال، كانت حركة الإخوان هي نقطة الضوء في حياته.

(2) الوعي بطبيعة الفكرة الإسلامية

والذين يقرءون آثار الراحل الكريم الفكرية يدركون عمق الأثر الذي تركه الفهم الشامل للفكرة الإسلامية فيها، يراها ويقدمها كما تربَّىٰ عليها، وهذه الرعاية لمفهوم شمول الإسلام واحد من مناطق الجهاد الكبرىٰ التي اضطلع بعبء النهوض بها الحركة المجددة في هذا العصر الذي نعيشه، وانخرط الرجل في صفوف رجالها، وأصبح واحدًا من أشهر رموزها الفكرية والدعوية علىٰ امتداد نصف قرن تقريبًا، وقد تبدَّت ملامح الوعي بطبيعة الفكرة الإسلامية بما هي فكرة شاملة، ومتوازنة معًا في الكتابات التالية:

أ- الإيمان الحق: شهادة، وعقيدة، وعبادة، القاهرة سنة 1975م.

ب- شريعة الله حاكمة.. ليس بالحدود وحدها، القاهرة "مكتبة وهبة" سنة 1985م، عوائق في طريق الشريعة- القاهرة سنة 1990م.

ج- أصول الشريعة الإسلامية.. مضمونها وخصائصها، مكتبة وهبة سنة 1985م.

د- أركان الشريعة الإسلامية.. حدودها وآثارها، مكتبة وهبة سنة 1985م.

ولعل الذين يفحصون أمثال هذه الكتابات يدركون أن جزءًا مما تواجهه الحركة الإسلامية من خصومة وتشويه؛ أمرٌ يبدو مستقرًّا، وكأنه إستراتيجية ثابتة لهؤلاء الخصوم جميعًا.

أدرك جريشة سعة الشريعة، ومرونتها، وعالميتها، وإنسانيتها، وقبل كل ذلك أدرك ربانيتها وهو الملمح الآمن العاصم المانع من كل مخاوف القوم.

وقد نهضت هذه الكتابات إلىٰ بيان أن الشريعة لا يمكن اختزالها في حدود القانون الجنائي أو (فقه الحدود)؛ ذلك أنها أوسع من ذلك بكثير.

ولعل بعض اللغط الدائر اليوم حول إسلامية الدولة يجترُّ هذه المخاوف من جديد، وهو بعض دليل علىٰ ثبات إستراتيجية الخصومة التي تواجه بها الحركة الإسلامية منذ فترة طويلة جدًّا.

(3) جريشة القاضي خادمًا للفكرة الإسلامية

علىٰ أن أهم جوانب عطاء الدكتور علي محمد جريشة الفكري والثقافي والدعوي ماثلٌ في جهوده في التأصيل للدستور الإسلامي؛ الذي يمثل صمام الأمان للأمة والدولة، وهي المحطة الجهادية التي نذر قدرًا كبيرًا من حياته لخدمتها ورعايتها. واستثمر علي جريشة ثقافته وتخصصه القانوني، بما هو مستشار سابق في واحدة من أعرق مؤسسات القضاء المصري الشامخ؛ ألا وهي مؤسسة مجلس الدولة المصري، المعروف برصانة رجاله، وتبتلهم الفكري والعلمي.

استثمر الرجل كل ذلك، وهو ما أنتج مجموعةً من الإسهامات لا يمكن إهمالها في هذا السياق المعاصر.

كتب علي جريشة في هذا المجال ما يلي:

أ- القرآن فوق الدستور، مكتبة وهبة سنة 1406هـ= 1986م.

ب- مصادر الشريعة الإسلامية مقارنةً بالمصادر الدستورية، مكتبة وهبة سنة 1980م.

وقد كان الرجل حاسمًا وصارمًا في هذا الميدان؛ لأنه أهم أعمدة البناء الإسلامي علىٰ الإطلاق.

كان الرجل واضحًا في أن إعجاز الذكر الحكيم لا يمكن أن يكون في نطاقه البلاغي فقط، ولكنَّ أصرح نطاقاته كامنٌ في إعجازه التشريعي، وهو الملمح الخطير الذي أولاه الإخوان المسلمون عنايةً بالغةً عبر ما قدمه أبناؤها من أطروحات، من مثل الرسالة الفذة حول القضية هذه للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، أكرمه الله. كان الرجل واضحًا وهو يقرر أن الشريعة ليست ولا يمكن أن تكون الحدود وحدها،

كان الرجل واضحًا وهو يقرر بطريق علمية لا دعائيةَ فيها أن القرآن دستورنا، وهو الشعار العبقري الذي أطلقه الإمام الشهيد، وقام علىٰ العناية بتأصيله قانونيًّا وقضائيًّا هذا المفكر الراحل، رَحِمَهُ اللَّهُ .

ثم كان واضحًا حاسمًا ملهمًا، عندما قرر- من دون شبهة تقليل من قيمة الشعار الذي مر بين يديك- أن القرآن فوق الدستور؛ لأن الدساتير تتغير، والكتاب الكريم لا يتغير؛ ولأن الدستور من وضع الجماعة الوطنية في كل بلد، والذكر الحكيم من عند رب البشر سبحانه؛ ولأن الدساتير صناعة سياسية بامتياز ترعىٰ تنظيم العلاقات بين السلطات في نظام الدول، أما القرآن فمنهاج شامل يرعىٰ الحياة الإنسانية في جوانبها كافةً.

والأمة اليوم مطالبةٌ باستحياء هذا الشعار ليكون إمامها في معركتها الراهنة، والحق أننا مأمورون وفاءً للفكرة، ووفاءً لمن أفنوا أعمارهم في خدمتها أن نعيد تصدير هذا الشعار من جديد؛ ليكون بحق: "القرآن فوق الدستور"وتأمل عطاء علي محمد جريشة يلمح المناطق المتنوعة التي ارتادها أعلام الحركة الإسلامية في جنبات العمل المختلفة له.

ومن الحق أن نقرر أن ميدان العمل القانوني والقضائي يشهد علىٰ جهاد فكري وعلمي متميز خادم لفكرة إسلامية الدولة المصرية، وهي الفكرة التي أسهمت في إنجاب أمثال عبد الرازق السنهوري وطارق البشري وعلي محمد جريشة، وغيرهم.

(4) المئذنة الشامخة.. صوت الدعوة في فكر الدكتور علي جريشة

وإذا كانت مهمة جريشة رَحِمَهُ اللَّهُ الكبرىٰ ماثلةً في خدمة التأصيل العلمي والقانوني في الملامح الفكرية الإسلامية في بعدها الدستوري، وهو أمرٌ صحيحٌ إلىٰ أبعد حدٍّ؛ فإنَّ ذلك لا يعني أنها المهمة الوحيدة في رحلة جهاده الممتدة رَحِمَهُ اللَّهُ .

لقد احتلت قضية الدعوة الإسلامية تأريخًا، وترشيدًا، وتفنيدًا لما قابلها من معوِّقات، وما أثير في طرقها من شبهات- مكانًا بارزًا علىٰ خريطة عطائه الفكري نلمحه جليًّا فيما يلي:

أ- أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي (بمشاركة محمد شريف الزيبق)- دار

الاعتصام سنة 1978م.

ب- الدعوة الإسلامية في القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجري، مكتبة السلام العالمية القاهرة سنة 1981م.

جـ- دعاة لا جباة، دار الوفاء القاهرة سنة 1985م.

د- علىٰ هامش فقه الدعوة، دار البشير القاهرة سنة 1980م.

وأبناء الحركة الإسلامية مدينون جميعًا للتأثير الإيجابي الهائل لكتاب أساليب الغزو الفكري؛ بما فضح فيه وعرَّىٰ ممارسات الاتجاهات التغريبية علىٰ الأبنية التعليمية والقانونية والإعلامية.

وهم مدينون له بما كشف فيه من تصور أصاب بعض الحركات العاملة للإسلام، في مواجهة شمول دعوة الإخوان واعتمادها علىٰ التربية المتوازنة، وعالمية دعوتها، وبما رصده من آمال علىٰ طريق مستقبلها.

صحيحٌ أن اليد التي طالما أمسكت بمطرقة القاضي سعيًا للتحذير والإنذار والتعليم توقفت طاعةً لمشيئة الله تعالىٰ الآن، لكنَّ صدىٰ طرقاتها ما تزال باقيةً في الأصوات التي أطلقتها، وحملتها كتاباته المهمة في عمق خدمة العمل للإسلام.. رحم الله الراحل الكريم.

أعلام معاصرون في الأدب والفكر

محمود شيت خطاب.. فارسًا ومؤرخًا

حديثنا اليوم عن قائد شرَّف أمته في الميدان مهمومًا بهموم أمته الإسلامية وقضاياها المصيرية، والمخاطر التي تعرضت لها في كل العصور، هو اللواء الركن محمود شيت خطاب الذي نشأ في أسرة شريفة في الموصل، حفظ نصف القرآن، وألمَّ بتاريخ وطنه وشغف بالتاريخ حبًّا، وبالمؤرخ العظيم عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير الجزري المؤرخ، الذي ينتمي إلىٰ موطنه "الموصل" صاحب كتاب "الكامل في التاريخ" من أشهر كتب التاريخ الإسلامي العام علىٰ الإطلاق، وكان هذا الكتاب أوَّل كتب التاريخ التي طالعها محمود شيت خطاب حديثنا في السطور التالية، الذي خدم أمته فارسًا، إذ اشترك مقاتلًا في حرب فلسطين سنة 1948، وفي ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941، التي اندلعت في وجه المستعمر البريطاني في العراق، وحاول أن يستكمل الطريق بتعريف الأجيال الشابة بمجد الأمة الإسلامية في حروبها وفتوحاتها وأمجادها، فأخذ ينبش في كتب التاريخ ذرعًا يلتقط الدرر المزدحمة بها، مخلفًا العشرات من الكتب في العسكرية والفتوحات الإسلامية التي أضافت إلىٰ المكتبة العربية الكثير، نتذكره اليوم بعد 15 عامًا من الرحيل.

وُلد (محمود بن شيت خطاب) في مدينة الموصل، شمالي العراق، سنة (1337هـ – 1919م)، ونشأ في أسرة كريمة الأصل، شريفة النسب، فأبوه ينتهي نسبه إلىٰ "الحسن بن عليّ بن أبي طالب"، وأمه بنت الشيخ مصطفىٰ بن خليل، من علماء الموصل، وقد احتضنته جدته لوالده، وتعهدت بتربيته، وكانت امرأةً صالحةً تقوم الليل، وتعطف علىٰ الفقراء، وتجود عليهم بما تملك، وتغشىٰ المساجد للصلاة وسماع دروس العلم، وكان لهذه النشأة الكريمة أثرها في نفس الطفل الصغير؛ فشب مفطورًا علىٰ الصلاح محبًّا للخير، وتلقىٰ تعليمه الأوليّ في إحدىٰ الكتاتيب؛ حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ نصف القرآن الكريم، ثم انتقل إلىٰ المدارس النظامية، فأتم المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وحرص في العطلات

الدراسية على دراسة اللغة العربية والعلوم الشرعية على ألمع شيوخ الموصل في المساجد[1].

وبعد أن أنهى دراسته الثانوية التحق بالكلية العسكرية العراقية سنة (1356هـ-1937)، وتخرّج فيها في العام التالي برتبة ملازم، وعمل ضابطًا في سلاح الفرسان، وعندما اشتعلت ثورة "رشيد عالي الكيلاني" ضد الإنجليز سنة (1360هـ-1941م) اشترك في الثورة العارمة، وشارك فيها مشاركة فعالة، وجُرح في تلك المعارك جروحًا بالغةً كادت تقضي على مستقبله العسكري، لكن الله سلَّم، ثم التحق بكلية الأركان والقيادة، وتخرج فيها سنة (1367هـ - 1947م) برتبة نقيب ركن، وشارك في حروب سنة (1368هـ - 1948م) ضد اليهود في فلسطين بطلب منه قدمه إلى قادته؛ ليكون ضمن القوات العراقية المتجهة إلى فلسطين، وقد شارك في عدة معارك، وضرب أروع الأمثلة في الشجاعة وحسن التصرف، ومكث في جنين أكثر من عام، ثم جاءت الأوامر بعودة الجيش العراقي!، فعاد معه[2].

ثم التحق بكلية الضباط الأقدمين في العراق، ونال شهادتها سنة (1374هـ - 1954م)، ثم أُوفد إلى بريطانيا سنة (1375هـ1955- م) في بعثة دراسية عسكرية عليا، وكان الأول على من معه من الدارسين في هذه البعثة، وكانوا نحو مائة ضابط من جنسيات مختلفة[3].

مواقف إيمانية مبكرة:

ولأنه نشأ في بيئة علم وفقه وقرآن؛ فقد ثبت على هذا طوال حياته، وتجلى هذا عندما ذهب إلى بريطانيا طُلب منه أن يجاري صفات العسكريين في هذا التوقيت، فكان رده الحاسم مما حكاه:" لما ذهبت للدراسة في الكلية العسكرية بلندن، سألني عميد الكلية: لماذا قدمت؟ قلت: لتجديد معلوماتي العسكرية، ولتلقي أي جديد في العلم. فعقب العميد على كلامي: بل قدمت لتتعلم مغازلة الفتيات. فكظمت غيظي،

---

(1) عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية، دار البشير 2008، ج2 ص 1094
(2) مرجع سابق ص 1095.
(3) مرجع سابق ص 1095.

وقلت في نفسي: إن هذا لا يلقي كلامه جزافًا، وإنما يحكم علي بما شاهده في سواي. ولما ذهبت إلىٰ السكن المخصص لي، وجدت فرَّاشًا وفتاة تعمل علىٰ ترتيب غرفة نومي، فانتظرت في البهو دون أن أعيرها اهتمامًا، حتىٰ إذا خرجت تسألني: هل لديك توجيهات؟ قلت: شيء واحد، هو أن تحضري لأداء مهمتك حين لا أكون موجودًا"[1].

ويروي أيضا فيقول:" بعد تخرجي ضابطًا سنة 1937م، كان من تقاليد الجيش أن تولم وليمة للضباط الجدد، وشهدت الحفلة مع زملائي، فجاء قائد الكتيبة وقد ملأ كأسًا من الخمر، وأمرني أن أبدأ حياتي بشرب الخمر، وكان الليل قد أرخىٰ سدوله، وكانت السماء صافية تتلألأ فيها النجوم، وكان قائد الكتيبة برتبة عقيد يحمل علىٰ كتفيه رتبته العسكرية، وهي بحساب النجوم اثنتا عشرة نجمة، فقلت له:

إني أطيعك في أوامرك العسكرية، وأطيع الله في أوامره، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنك تحمل علىٰ كتفيك اثنتي عشرة نجمة، فانظر إلىٰ سماء الله لترىٰ كم تحمل من النجوم. فبهت القائد وردد: السماء! السماء. نجوم السماء! ومضىٰ غضبان أسفًا، وشعرت بأن موقفي هذا ليس مصاولة بيني وبين القائد، ولكنها مباراة بين إرادته بشرًا، وبين إرادة الله خالق البشر"[2].

ويقول:" إن الدعوة التي تبناها المبشرون وعملاء الاستعمار وأذنابهم في إبعاد الدين الإسلامي عن الحياة، دعوة مريبة، هدفها إبعاد العرب عن الناحية المعنوية في حياتهم، فالعرب جسم الإسلام وروحه، ولا بقاء للجسم بدون الروح[3].

إن قوىٰ هائلة تعمل علىٰ تحطيم هذا الجيل، وتفتيت قدراته، وكانت قبل مقصورة علىٰ العدو الخارجي، أما اليوم فقد وجدت لها مرتكزات لا تحصىٰ في الداخل، وإن ارتباط مستقبل هذا الجيل صعودًا أو هبوطًا بمدىٰ التزامه هداية الإسلام، أو إعراضه عنه. إن المسلمين اليوم في حاجة ماسة إلىٰ قادة كخالد والمثنىٰ، وغيرهم، إلا أن

---

(1) محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف، 1992 ج1 ص 331 .
(2) محمد المجذوب مرجع سابق ص 332 .
(3) عبد الله محمود: اللواء الركن محمود شيث خطاب - دار القلم - دمشق - 1422 هـ = 2001م.

حاجتهم إلىٰ العلماء العاملين أمسُّ وأشدّ. هناك أزمة ثقة بين الشيوخ والشباب؛ ومرد ذلك إلىٰ فقدان عنصر القدوة الصالحة في معظم الذين يعدون في الشيوخ، ويظنون أن كل ما عليهم هو أن يحسنوا عرض الموعظة السطحية ولو كان سلوكهم الشخصي أبعد ما يكون عما يدعون إليه" (1).

خلف القضبان في عهد الطاغية:

تولّىٰ (محمود شيت خطاب) مختلف المناصب القيادية والأركان حتىٰ وصل إلىٰ رتبة لواء ركن، وظل طوال هذه الفترة ضابطًا ملتزمًا متمسكًا بأخلاق الإسلام والمثل العليا الكريمة، جادًّا في عمله، بعيدًا عن مواطن الشبهات التي كان كثير من زملائه يقعون فيها، وكان الاحتلال الإنجليزي قد أفسد حياة الجندية في الجيش العراق، وسرّب إليه قيمًا فاسدةً، ولم يكن من الضباط من يستطيع مقاومةَ هذا الانحلال إلا من كان مُزودًا بالحصانة القادرة علىٰ الثبات في وجه الأعاصير.

وفي أثناء المد الشيوعي خلال حكم "عبد الكريم قاسم" تصدَّي (محمود شيت خطاب) للشيوعيين، وحال بينهم وبين التنكيل بالناس، والتعدي علىٰ الحقوق والأعراض، فأغضبهم ذلك، ووشَوا به إلىٰ "عبد الكريم قاسم"، فأمر باعتقاله سنة (1379 هـ - 1959م)، وتعذيبه في السجن، وبقي في السجن عامًا ونصف، ذاق خلالهما صنوفًا من العذاب الوحشي، وتكسرت عظامه، فأخرجوه من السجن وهم لا يشكون أنه هالك لا محالةَ، لكنَّ اللهَ عافاه، وعاد إلىٰ ما كان عليه من قوة وفتوة.(2).

فكره:

لم يكن اللواء الركن محمود شيت خطاب رجلًا عسكريًا يهوىٰ الدراسات التاريخية والعسكرية، بل كان مفكرًا نافذَ العقل علىٰ بصيرة من أمره، مُلمًّا بقضايا أمته؛ لذلك كانت له مشاركاتٌ شتّىٰ في مختلف مناحي الحياة.

وكانت صفة الجندية تغلب عليه، وهي تعني الانضباط والالتزام ونجدة الملهوف، ومد يد العون إلىٰ من يحتاج إلىٰ مؤازرةٍ ومعاونة، فوقف إلىٰ جانب دعاة

---

(1) مرجع سابق

(2) محمد المجذوب، مرجع سابق، ص 338

الإسلام في محنتهم، فسعىٰ إلىٰ الرئيس "عارف" أن يتدخل لدىٰ "جمال عبد الناصر" للإفراج عن صاحب الظلال "سيد قطب"، ونجحت مساعيه الكريمة في الإفراج عنه، وزاره اللواء الركن في السجن وبشره بخبر الإفراج عنه، فخرج "سيد قطب" من السجن، ثم عاد إليه مرة أخرىٰ بعد فترة قصيرة؛ حيث قضىٰ نحبه شهيدًا علىٰ أعواد المشانق.

وكان اللواء الركن يحذر من استعمال اللهجات المحلية، ويراها تقف حاجزًا دون الوحدة الفكرية بين العرب، وهاجم دعاتها هجومًا عنيفًا، وقرن بين الدعوة إلىٰ استخدام العامية والدعوة إلىٰ استخدام الشعر الحر، وكان يرىٰ أن "الشعر الموزون المقفَّىٰ هو من دعائم اللغة العربية، والدعوة إلىٰ الشعر الحر أصلها صهيوني.."، وكان يرىٰ أن اللغة العربية عالميةٌ متغلغلةٌ في العالم شرقًا وغربًا، وقد دخلت في كثير من لغات العالم، كالروسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية، فضلًا عن اللغات الإسلامية كالتركية والفارسية، وهاجم الدعوة إلىٰ كتابة العربية بالحروف اللاتينية تحت أية ذريعة؛ لأن في ذلك قطعَ صلة المسلمين بقرآنهم.

ودعا إلىٰ الوحدة العربية "فالوحدة قدر، والقدر أقوىٰ من البشر، بها يكون العرب كلَّ شيء، وبدونها يكون العرب لا شيء، وهي سلاح يقضي علىٰ إسرائيل، والتفرقة سلاح يقضي علىٰ العرب، وآمن أن الإسلام هو الحل لسائر قضايا الأمة السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، فنحن أمة أعزنا الله بالإسلام، فإذا طلبنا العزة بغيره أذلنا الله[1].

آثاره:

كان اللواء الركن (محمود شيت خطاب) كاتبًا غزير الإنتاج عميق الفكر، قدّم للمكتبة العربية والإسلامية سلسلةَ كتب لتراجم قادة الفتح الإسلامي، مدفوعًا برسالة حملها في نفسه، بعد أن لمس أن هؤلاء القادة علىٰ عظمتهم وقيمة تضحياتهم لا تُعرف حتىٰ أسماء أكثرهم، وما يُعرف عن بعضهم لا يتجاوز بعض المعلومات

(1) د. أكرم عبد الرزاق المشهداني، اللواء محمود شيت خطاب 1919 ـ 1998، مقال بمجلة الزمان، بتاريخ 2/ 6/ 2013

السطحية، فنهض لهذه المهمة، وقدم نحو عشرين كتابًا في هذا المضمار، منها: "

- الرسول القائد.
- الصديق القائد.
- خالد بن الوليد المخزومي.
- قادة النبي ﷺ.
- سفراء النبي ﷺ.
- قادة فتح العراق والجزيرة.
- قادة فتح بلاد فارس.
- قادة فتح بلاد المغرب العربي.
- قادة فتح السند وأفغانستان.

وقدّم في الدراسات العسكرية نحو ثلاثين كتابًا، منها:

- بين العقيدة والقيادة.
- إرادة القتال في الجهاد الإسلامي.
- جيش النبي ﷺ.
- أهداف إسرائيل التوسعية.
- دراسات في الوحدة العسكرية العربية.
- العدو الصهيوني والأسلحة المتطورة.
- الأيام الحاسمة قبل معركة المصير.

وقد صدر هذا الكتاب في بغداد سنة 1967م، وهو مجموعة من الدراسات العسكرية كتبها ونشرها بين يومي 30 من شهر مايو، والخامس من شهر يونيه سنة 1967م، وفي هذا الكتاب حدّد اليوم الذي ستقع فيه المواجهة بين العرب واليهود، بعد أن استعرض استعداد القوات الإسرائيلية وحلّل خطتها، وأعلن هذا في عبارة دقيقة واضحة في المقالة التي نشرها قبل اندلاع الحرب بستة أيام، قال: "أما متىٰ تبدأ

الحرب؟ فالنفير الإسرائيلي يكمُل خلال أسبوعين، وقد بدأت بتنفيذ خطة نفيرها بتاريخ 23/ 5/ 1967م، وينتهي نفيرها يوم 5/ 6/ 1967م، وفي خلال هذه الفترة يمكن إنجاز خطط الحركات والخطط الإدارية، وخطط التنقل، وخطط تعيين القيادات وإصدار الأوامر إليها، وعلىٰ ذلك ستهاجم إسرائيل القوات العربية يوم 5/ 6/ 1967م".

وفي مجال المعاجم اللغوية المتخصصة قدّم عددًا من الأعمال تشهد علىٰ تضلعه باللغة العربية، يشهد علىٰ ذلك عضويته في المجامع اللغوية العربية، ومن هذه الأعمال:

- المعجم العسكري الموحد (عربي - إنجليزي).
- المعجم العسكري الموحد (إنجليزي - عربي).
- المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم.

وإلىٰ جانب هذه المؤلفات، كان اللواء (خطاب) يكتب دراسات ومقالات متنوعة في عدد من الصحف والمحلات العربية والدوريات الرفيعة المستوىٰ، مثل مجلة مجمع اللغة العربية بمصر، ومجلة الأزهر، ومحلة العربي، والوعي الإسلامي، ومجلة معهد البحوث والدراسات العربية، ومجلة المجمع العلمي العراقي، وغيرها، وقدم أحاديث في الإذاعة المسموعة والمرئية عن التاريخ الإسلامي العسكري[1].

في الهيئات والمجامع العلمية:

كان اللواء محمود شيت خطاب معروفًا في الأوساط العلمية، كما هو معروف في الأوساط العسكرية والسياسية، فسعت إليه المجامع العلمية بعضويتها، فكان عضوًا في المجمع العلمي العراقي منذ سنة (1383هـ-1963م)، واختير عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر سنة (1388هـ - 1968م)، وهي الهيئة التي أنشئت بديلًا عن هيئة كبار العلماء بالأزهر، واختير عضوًا مراسلًا في مجمع اللغة العربية المصري سنة (1386هـ - 1966م) ومجمع اللغة العربية بدمشق في السنة نفسها، ثم اختير عضوًا

(1) محمد فاروق البطل، اللواء الركن محمود شيت خطاب، مقال بموقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، 30/ 8/ 2009.

في مجمع اللغة العربية الأردني سنة (1400هـ - 1979م)، وكان عضوًا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وفي المجلس الأعلىٰ للمساجد بمكة المكرمة من سنة (1395هـ - 1975م)، ثم انضم إلىٰ أعضاء المجمع الفقهي بعد ذلك بعامين بمكة، وهو المجمع الذي يضم أساطين الفقه في العالم الإسلامي[1].

وفاته:

قضىٰ اللواء الركن حياته في خدمة العروبة والإسلام، وشارك في التنوير والوعي وكشف اللثام عن جوانب مع تاريخنا المشرق، وقدّم نماذج وضاءة من أعلام التاريخ الإسلامي، وشاء الله له أن تمتد حياته، ويرىٰ ما حلّ بالعراق من مصائب، وما أصابه من تدمير بعد غزو الكويت، وما نزل به من ظلم وحيف بعد الحصار الظالم الذي فرضته دول الظلم الكبرىٰ، حتىٰ لقي الله وقلبه مخزون من أحوال أمته المتردية في صباح يوم (23 من شعبان 1419 هـ - 13 من ديسمبر 1998م) دون أن يشكو من مرض أو علة[2].

---

(1) محمد فاروق البطل، مرجع سابق.

(2) إبراهيم العلاف، محمود شيت خطاب عسكريًا وباحثًا وإنسانًا، مقال بموقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب.

حسين مؤنس.. أديب المؤرخين ومؤرخ الأدباء

حديثنا اليوم عن علم من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، الدكتور حسين مؤنس المتحمس دومًا لأي مجال ولَجَهُ وأضاف إليه، في الأدب، والتاريخ، والتحقيق، والترجمة، فالعلاقة بينه وبين العلم علاقة حب وعشق، هذه العلاقة التي خلفت عشرات الكتب الفريدة في التاريخ؛ حيث تطرق لكافة عصور التاريخ في الشرق والغرب، وفي القديم والحديث، وكانت مصر في خاطره دومًا لم يتركها حتىٰ فارق الحياة، يتعامل مع مشاكلها ويطرح الرؤىٰ والحلول، نتذكره اليوم حتىٰ نضع نموذجه للناشئة، يتعلمون منه الصبر والمثابرة والإخلاص للعلم.

والدكتور حسين مؤنس نموذجًا للمؤرخ الأديب والأديب المؤرخ، فهو راجع أولًا إلىٰ نشأته وكتاباته في مجلة الاثنين التي كانت تصدرها دار الهلال في الثلاثينيات، وكان يكتب بها موضوعات شيقة بأسلوب أدبي رائع، والأمر الثاني إلىٰ تأثره بمؤرخي الأندلس الذين كانوا في الأساس أدباء مؤرخين، فلو أخذنا "ابن سعيد" في كتابه "المغرب في حلىٰ المغرب" لوجدنا أديبًا يترجم للرجال بأسلوب أدبي رائع، ولو أخذنا "ابن عذارىٰ المراكشي" في كتابه "المعجب في تاريخ المغرب" أو غيرهم، لرأيناهم امتلكوا ناصية البيان، وهم يتحدثون عن التاريخ وعن الأحداث بأسلوب أدبي رائع، كل هذه العوامل والأسباب أثرت فيه وهو يؤرخ لأحداث تاريخية متعددة في الشرق والغرب.

ولد حسين مؤنس في مدينة السويس في 4 رمضان 1329 هـ الموافق 28 أغسطس 1911م، نشأ في أسرة كريمة، وتعهده أبوه بالتربية والتعليم، فشب محبًّا للعلم، مفطورًا علىٰ التفوق والصدارة، حتىٰ إذا نال الشهادة الثانوية في التاسعة عشرة من عمره جذبته إليها كلية الآداب بمن كان فيها من أعلام النهضة الأدبية والفكرية، والتحق بقسم التاريخ، ولفت بجدِّه ودأبه في البحث أساتذته، وتخرج سنة (1352 هـ /1934م) متفوقًا علىٰ أقرانه وزملائه، لم يعين حسين مؤنس بعد تخرجه في الكلية؛ لأنها لم

تكن قد أخذت بعد بنظام المعيدين، فعمل مترجمًا عن الفرنسية ببنك التسليف، واشترك في هذه الفترة مع جماعة من زملائه في تأليف لجنة أطلقوا عليها" لجنة الجامعيين لنشر العلم"، وعزمت اللجنة علىٰ نشر بعض ذخائر الفكر الإنساني، فترجمت كتاب "تراث الإسلام" الذي وضعه مجموعة من المستشرقين، وكان نصيب حسين مؤنس ترجمة الفصل الخاص بإسبانيا والبرتغال، ونشر في هذه الفترة أول مؤلفاته التاريخية، وهو كتاب "الشرق الإسلامي في العصر الحديث" عرض فيه لتاريخ العالم الإسلامي من القرن السابع عشر الميلادي إلىٰ ما قبل الحرب العالمية الأولىٰ، ثم حصل علىٰ درجة الماجستير برسالة عنوانها" فتح العرب للمغرب" سنة 1355 هـ - 1937م، ثم علىٰ الدكتوراه الآداب من جامعة زيورخ بسويسرا، عام 1943.

لما انتهت الحرب العالمية الثانية عاد إلىٰ مصر سنة 1364 هـ / 1945م، وعين مدرسًا بقسم التاريخ بكلية الآداب، وأخذ يرتقي في وظائفه العلمية حتىٰ عين أستاذًا للتاريخ الإسلامي في سنة 1373 هـ / 1954م، إلىٰ جانب عمله بالجامعة انتدبته وزارة التربية والتعليم سنة 1374 هـ / 1955م؛ ليتولىٰ إدارة الثقافة بها، وكانت إدارة كبيرة تتبعها إدارات مختلفة للنشر والترجمة والتعاون العربي، والعلاقات الثقافية الخارجية، فنهض بهذه الإدارة، وبث فيها حركة ونشاطًا، وشرع في إنشاء مشروع ثقافي، عرف بمشروع "الألف كتاب"، ليزود طلاب المعرفة بما ينفعهم ويجعلهم يواكبون الحضارة، وكانت الكتب التي تنشر بعضها مترجم عن لغات أجنبية، وبعضها الآخر مؤلف وتُباع بأسعار زهيدة.

رحلته مع الأندلس" الفردوس الموعود":

لم يرض الدكتور حسين مؤنس أن يطلق علىٰ الأندلس "الفردوس المفقود" كما كان معظم الناس يطلقون عليه، وإنما أطلق عليه "الفردوس الموعود"؛ لأنه رأىٰ الحياة مستمرة في الأندلس برغم استيلاء الصليبيين عليه، وإرغام أهله علىٰ اعتناق النصرانية أو الرحيل، وقد بدأت رحلة الدكتور مؤنس مع الأندلس مبكرًا، منذ ترجم فصلًا عنه في كتاب" تراث الإسلام" لمجموعة من المستشرقين- كما أسلفنا-، وقد صوَّر حنينه إلىٰ هذه البلاد قوله في مقدمة كتابه" رحلة الأندلس":

"منذ ذلك الحين– يعنيٰ زيارته الأوليٰ لإسبانيا سنة 1940– لم يخرج الأندلس من خاطري أبدًا: إذا كنت فيه فأنا بين آثاره ومغانيه، وإذا كنت بعيدًا عنه؛ فأنا مع تاريخه أتأسله وأستوحيه"، واستهواه أيضًا حينما أعد رسالة الدكتوراه بعنوان" فتح العرب للمغرب"، واستهواه أيضًا عندما طاف بمدنه وكوره وقصباته وحصونه؛ ليجعلنا نرجع إليٰ الخلف 13 قرنًا من الزمان، ونعيش معه عبر تسعة قرون في أسلوب حيّ جذاب في كتابه الأهم" رحلة الأندلس حديث الفردوس الموعود"، وفي هذا يقول:" لقد قضيت في الأندلس اثني عشر عامًا وزيادة، وأن ذلك البلد في نظري لم يضع (يفقد)، فأجمل ما في الإسلام من حقائق أننا لا نعرف الموت، فالإنسان منا ينتقل من الحياة الدنيا إليٰ الحياة الدائمة، فنحن ليس لدينا موت في الإسلام، وكذلك أقول إن الأندلس لم يمت، وإنما هو حيّ في نفوس الناس، ولم يكن دخولنا الأندلس مجرد غزو، وإنما هي حضارة العرب الذين دخلوا الأندلس ومعهم المغاربة الذين تحولوا إليٰ عرب، وكانوا أشد عروبة من كثير من العرب، ومثال ذلك طارق بن زياد الذي كان مغربيًّا، وفتح الأندلس باسم العرب والإسلام، وأحب أقول إن العرب هم الشعب الوحيد الذي انتصر، وفتح، وحقَّق قول الله تعالىٰ:" إذا جاء نصر الله والفتح" النصر أولًا، ثم يأتي الفتح، النصر عسكري، والفتح حضاري".

ثم يعين الدكتور حسين مؤنس إدارة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في سنة 1373هـ /1954م ومكث به عامًا نهض به، واستكمل مكتبته حتىٰ أصبحت من أغنىٰ المكتبات العربية في إسبانيا، وأشرف علىٰ مجلة المعهد، وأرسىٰ قواعد النشر بها في قسميها العربي والأوروبي، ثم عاد إلىٰ القاهرة، وفي أثناء وجوده بالقاهرة كلفته مصلحة الاستعلامات سنة 1376 هـ / 1957م بالقيام برحلة طويلة إلىٰ دول أمريكا اللاتينية، الناطقة بالإسبانية؛ لتوثيق الروابط بينها وبين مصر، ونجح في إنشاء عدد من المراكز الثقافية بها، يكون علىٰ صلة بالمعهد المصري في مدريد. ثم عاد حسين مؤنس مرة أخرىٰ إلىٰ إسبانيا سنة 1377 هـ / 1958م؛ ليتولىٰ إدارة المعهد المصري بها، وظل هناك حتىٰ بلوغه سن التقاعد في سنة1388 هـ /1969م.

والجدير بالذكر أن المعهد المصري للدراسات الإسلامية افتتح في مدريد

(مجريط) سنة (1369 هـ / 1950م) وكان وراء إنشائه الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف، بهدف توثيق العلاقات بين مصر وإسبانيا التي عاش المسلمون في رحابها نحوًا من عشرة قرون، وكان أول مدير لهذا المعهد هو الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، وبعد قيام الثورة خلفه الدكتور علي سامي النشار، وهو أيضًا من أساتذة الفلسفة الإسلامية، ولم تطل إقامته في المعهد، وتعد فترة الدكتور حسين مؤنس من أزهىٰ عصور المعهد المصري هناك، فأصبح ملتقىٰ للمستشرقين وأساتذة الجامعة المهتمين بتاريخ المسلمين في الأندلس، وأقبل عدد كبير من الطلاب علىٰ دروس اللغة العربية التي ينظمها المعهد، وتردد الجمهور علىٰ المحاضرات والندوات التي تعقد، وصارت مجلة المعهد معرضًا لما حفلت به من أبحاث عميقة، تدور حول التاريخ والحضارة في الأندلس، ونشطت مطبوعات المعهد، سواء ما كان منها بالعربية أو بالإسبانية، وكان يقف وراء هذا النشاط حسين مؤنس ويعاونه في إدارته العالم الكبير محمود علي مكي الذي كان يتولىٰ وكالة المعهد.

وقد أثرىٰ الدكتور حسين مؤنس المكتبة العربية بالعشرات من الكتب والأبحاث والمقالات والترجمات والكتب المحققة حول التاريخ الأندلسي، منها: كتابه الجامع" فجر الأندلس" وهو حجة في موضوعه، استقصىٰ فيه الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس في عمق ودقة، وكتاب" تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربي إلىٰ بداية الاحتلال الفرنسي" في مجلدين كبيرين، و" معالم تاريخ المغرب والأندلس"، و" تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس" وهو يعد أكبر بحث في هذا الموضوع الذي يجمع فيه المعارف الجغرافية والتاريخية، و" رحلة الأندلس حيث الفردوس المفقود"، و" شيوخ العصر في الأندلس"، وفي ميدان الترجمة علينا أن ننوه بترجمته لدراسة المستشرق الإسبانىٰ غرسية غومسىٰ عن" الشعر الأندلسي" ولكتاب جونثالث بالنثيا عن" تاريخ الفكر الأندلسي" وهو أشبه بموسوعة ضخمة حول الثقافة الأندلسية. يقول الدكتور (محمود علي مكي) رفيق دربه:" والحقيقة أن في إطلاق اسم الترجمة علىٰ هذا الكتاب ظلمًا لحسين مؤنس، ففيه من الإضافات

والنصوص الكاشفة ما يجعل مؤنسًا مشاركة في تأليفه". هذا عن الترجمة العلمية، وأما الترجمة الأدبية فلحسين مؤنس مشاركة قيمة فيها، فقد ترجم عن الإسبانية مسرحية للوركا هي" الزفاف الدامي" ولعميد المسرح الإسباني في عصره الذهبي لوبيّ دي بيجا مسرحية" فونت أوبخيونا" أو" ثورة فلاحين" وهما من أجمل نصوص الأدب الإسباني القديم والحديث.

كما ألف الدكتور حسين مؤنس العديد من الكتب الأخرىٰ التي دارت حول تاريخ الإسلام وحضارته منها كتابه الرائع" أطلس التاريخ الإسلامي" حيث أخرج هو ومجموعة من الباحثين كتابًا يجمع ويشرح حركة الفتوح الإسلامية عن طريق الخرائط، واتجاه توسع الدولة الإسلامية، وفترات تقزمها، مع ملخص تاريخي مختصر رائع، وقد فاق كل كتب الأطلس التي ظهرت قبله وبعده؛ حيث يشكل العمدة لكل هذه الكتب، كما أن له العديد من الكتب الأخرىٰ، منها:" التاريخ والمؤرخون" وكتاب" الحضارة" الذي تصدر أول أعمال سلسلة عالم المعرفة التي تصدرها الكويت، والإسلام حضارة، والإسلام الفاتح، وتناول فيه البلاد التي فتحت دون حرب مثل إندونيسيا ووسط إفريقيا، و"عالم الإسلام" وهو نظرات في سكانه وخصائصه وثقافته وحضارته، وكتاب "المساجد" وهو يصور فيه دورها في بناء الجماعة الإسلامية، ويفيض في تاريخها وتطورها وطرزها المعمارية، و"أطلس تاريخ الإسلام" وهو من أعظم أعماله وأصدقها علىٰ صبره ودأبه، و"ابن بطوطة ورحلاته"، و" دراسات في السيرة النبوية"، و" دستور أمة الإسلام".

مصر التي في خاطري:

ولم يكن التاريخ المصري الحديث بعيدًا عن قلمه، فوضع فيه مؤلفات قيمة، يأتي في مقدمتها "مصر ورسالتها"، وهو دراسة في خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضاري ورسالتها في الوجود، و" دراسات في ثورة 1919"، و" باشوات وسوبر باشوات" يرسم فيه صورة مصر في عهدين وينقد فيه ثورة يوليو ومعظم رجالاتها، و"جيل الستينيات". له ترجمة بديعة لنور الدين محمود بطل الحروب الصليبية، صور فيه طموحه وجهاده من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية؛ لمواجهة الخطر

الصليبي، ويجري في هذا المضمار كتابه" صور من البطولات العربية والأجنبية".

يرد الاعتبار لسعد زغلول:

لحسين مؤنس كتابه الأهم عن ثورة 1919م "دراسات في ثورة 1919" وقد نشره منجّمًا في مجلة آخر ساعة، وفيه رد الاعتبار للزعيم سعد زغلول، ورد عن الذين شنعوا عليه بحجة ما ذكره في مذكراته؛ بأنه كان يقامر ويدخن بشراهة، ويخسر معظم ثروته، ويتعاطىٰ الخمر ومنهم أطروحة الدكتور عبد الخالق لاشين عن سعد زغلول، وقد التمس حسين مؤنس العذر لسعد زغلول، وبرر حدوث هذا من جانب سعد زغلول بأنه كان ظرفًا تعرض له مثل آلاف الناس، حينما يتعرضون لانتكاسات سرعان ما يتصرون عليها، ويتخلصون منها، وهذا ما حدث مع سعد الذي خرج من نكبته التي ألمت به سنة 1916، إذ نراه يتجه اتجاهًا جديدًا جدًّا، اتجاه ترشيح نفسه للجمعية التشريعية، وهنا يبدأ (سعد) دنيا جديدة فهو يتزعم المعارضة، ويتحدث في حرية عن مصالح الوطن والناس، هنا نرىٰ سعدًا في طريقه ليجد وطنه،" ليسعىٰ في رفع مقامه" وفي الطريق إلىٰ وطنه وجد نفسه، وكذلك كانت الأمة نفسها تبحث عن نفسها فلا تجدها، كانت مضيعة بين سلطة الاحتلال ومطامع الخديو، واستغلال أهل الحكم ونهب الأجانب.

هنا تحت سقف هذه الجمعية، عرف (سعد) طريقه، وتحدث بحُرِّية لم يكن يستطيعها وهو وزير. لقد لامه بعض خصومه؛ لأنه لم يطالب بالاستقلال ولا فكر في الدستور أيام كان وكيلًا للجمعية التشريعية، ويرد مؤنس هنا" ولكن هل المطالبة بالاستقلال والدستور تكون في جمعية محدودة تسيطر عليها الدولة؟ إن طلب الاستقلال ينبغي أن يوجه للمحتل في وجهه، ويطلب من المجتمع العالمي كله، وهذا ما فعله (سعد) في وقته عندما انتهت الحرب وترددت في الدنيا صيحات الحرية وحقوق الشعب وتقرير المصير، هنا يتخطىٰ (سعد) كل الحواجز ويقتحم الطريق المسدود فيزيل سدوده، هنا تنتهي أزمة سعد وأزمة مصر، فيندفع في طريقه والأمة معه إلىٰ آفاق بعيدة ودنيا جديدة.. آفاق الصراع في سبيل الوطن ودنيا الأمم الحرة المناضلة". (دراسات في ثورة 1919 ص60-63)

رأيه في الدولة العثمانية:

اكتفىٰ معاصرو الدكتور حسين مؤنس بتبني وجهة نظر الغرب الصليبي حول الدولة العثمانية العدو التقليدي لها، وكانت المدارس والجامعات تصف الفتح العثماني للبلاد العربية بأنه احتلال واستعمار، وتصفه أيضًا بالعصور المظلمة اعتمادًا علىٰ المصادر الغربية المتحاملة والمغرضة دون البحث في الأرشيف العثماني الثري الذي يحوي آلاف الكتب التي لم ترَ النور بعد، وبعد ذلك ظهرت دراسات رائعة حول هذه الدولة التي ظلمت كثيرًا من الموسوعة الضخمة التي ألفها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي رحمه الله وعندما سئل الدكتور حسين مؤنس عن رأيه في الدولة العثمانية، قال:" عندما يتحدث الناس عن الدولة العثمانية، وقد تعودنا أن نحمل عليها، وأن نقول إن الأتراك العثمانيين كانوا مستبدين– أقول لهم: إنه لو لم يكن للأتراك إلا فضل حماية المغرب كله من استيلاء النصارىٰ عليه؛ وكانوا بالفعل قد احتلوا الجزائر وطرابلس ودخلوا في تلك البلاد؛ فما الذي ردهم عن الاستيلاء علىٰ المغرب إلا الأتراك العثمانيون، فهم الذين حافظوا علىٰ المغرب مسلمًا، وإذا كنا نرىٰ المغرب جوهرة جميلة اليوم يفتخر بها الإسلام؛ فإن الفضل في ذلك يرجع إلىٰ الدولة العثمانية، والفضل الثاني للأتراك العثمانيين أنهم انتصروا علىٰ الإيرانيين في موقعة" شمال إيران" التي استعدنا بها العراق إلىٰ عالم العروبة، بعد أن كاد يدخل في الدولة الإيرانية، هذان الفضلان يكتبان إلىٰ جانب غزواتهم وفتوحاتهم في أوروبا، وكنا نتمنىٰ ألا يصلوا إلىٰ" بودابست" وأن يكتفوا بالبلقان، ولو أنهم اكتفوا به لأصبح البلقان اليوم فعلًا بلدًا إسلاميًّا، ولما رأينا ظاهرة مثل بلغاريا التي تضطهد المسلمين الذين يعيشون فيها وهم بقية العصر التركي".

تاريخ الحكام وتاريخ المسلمين:

استقرىٰ الدكتور حسين مؤنس تاريخ الإسلام كله في كتب الأقدمين والمحدثين، وفي المصادر التي كان يفضل أن يطلق عليها الموارد، مثل تاريخ الطبري، وابن الأثير، وابن خلكان، والمكتبة الأندلسية، فخلص إلىٰ أنه يجب تنقية التاريخ الإسلامي، وذلك في كتاب له" تنقية أصول التاريخ الإسلامي"، وكان الدكتور مؤنس متسرعًا في بعض القضايا، وأسرع في سرعة الجزم والحسم معها؛ مما حدا بالبعض أن

يهاجمه ويسحب هذا على كل أعماله.

وفي ندوة الأثنينية التي عقدت بالمملكة السعودية، والتي قصد منها تكريم حسين مؤنس ورَدَ إلى الندوة سؤال من الناشر الكبير محمد علي دولة صاحب دار القلم بدمشق الغرَّاء، يقول فيه:" ما مدى صحة المقولة التي تصف تاريخنا الإسلامي بأنه تاريخ حكام وسياسيين فقط؟ فأجاب الرجل بكل أريحية، فقال:" إن الموضوع يشغل ذهني الآن، فنحن المسلمين لنا تاريخان: تاريخ سياسي وهو الذي يمثله الحكام، ومنهم الأتراك العثمانيون، ومنهم المماليك، ومنهم الفاطميون، وآخرون أسوأ من الفاطميين، وهناك تاريخ آخر للأمة الإسلامية وهو تاريخ جميل جدًّا؛ لأن الأمة الإسلامية دائمًا أمة واحدة، ولم يتحارب بلد إسلامي مع بلد آخر، ولا يمكن أن تقع حرب بين المصريين والسوريين، أو بين العراقيين والسوريين. ولكن الحكام تحاربوا، وأنا أقول: إننا لدينا تاريخان للعالم الإسلامي: تاريخ سياسي وهو ننكره أحيانًا، وتاريخ حضاري وهو تاريخ أمة الإسلام، وأنا أقول لك عندما تقرأ لرحالة مثل ابن بطوطة الذي خرج من بلده في القرن الثامن الهجري؛ لكي يطوف بعالم الإسلام، ويطمئن المسلمين على مصيرهم بعد نجاتهم من أكبر خطرين تعرضوا لهما وهما الخطر الصليبي والخطر المغولي، ثم كتب كتابه المشهور وأكد للمسلمين أن الإسلام على خير، والعجيب أن هذا الرجل قام بهذه الرحلة ولم ينفق من عنده شيئًا، فقد خرج بدنانير قليلة؛ لكي يزور الحجاز، فطاف بالعالم الإسلامي كله، ودخل الهند وكان له شيء جميل فيها، بل ذهب إلى الصين، أي أن الأمة الإسلامية أنفقت على رحلته هذه؛ لكي يطمئنها على مصيرهم".

حسين مؤنس محققًا للتراث:

ازدهر تحقيق التراث في عصره، وأخرجت المطابع المصرية مئات الكتب النادرة التي كانت تنفد فور صدورها، وتصدر المشهد رجال من طراز فريد، وكوكبة.. نادرًا ما تتكرر في أزمنة أخرى، واستفاد مؤنس من كل هؤلاء وتجاربهم، ومن تجارب مَن تتلمذ عليهم والتقاهم من علماء الاستشراق، حيث تعلم منهم منهجهم الفريد، ومثابرتهم في رحلتهم مع الكتاب المخطوط، كما استفاد أيضًا من وجوده في أوروبا؛

ليزور كبرى المكتبات ودور الكتب التي تحوي نفائس المخطوطات النادرة، كل ذلك أضفى الجودة والدقة على أعماله التي حققها، ومنها كتاب "رياض النفوس " لأبي بكر المالكي، وهو في تراجم فقهاء إفريقية وعلمائها في الحقبة الأولى من تاريخها، و"أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر " للونشريسي، وهو كتاب مهم في بيان الأحوال الاجتماعية للعرب المدجنين الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة، و"الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة "لأبي الحسين علي بن يوسف الحكيم، و"الحلة السيراء "لابن الأبار في مجلدين، وهو يترجم لأعلام الأندلس والمغرب حتى القرن السابع الهجري.

كما أسهم مؤنس في مجال الترجمة عن اللغات، وكان يجيد الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والألمانية، فشارك مع زميل له في ترجمة كتاب عن الدولة البيزنطية لـ"نورمان بينز" عن الإنجليزية، وترجم كتاب "تاريخ الفكر الأندلسي" لـ"جونثالث بالنثيا" عن الأسبانية، والكتاب موسوعة في الأدب الأندلسي شعره ونثره، وفي الحركة الثقافية المتنوعة التي كانت تموج بها الأندلس، ولم يكتفِ مؤنس بالترجمة الأمينة عن النص الأسباني، بل ملأ حواشي الكتاب بإضافات قيِّمة، ونصوص كاشفة لما في الكتاب من قضايا.

وتعددت مساهماته في الترجمة إلى النصوص الأدبية الأسبانية، فترجم مسرحية " الزفاف الدامي" للوركا، و" ثورة الفلاحين" للوب دي فيجا، وترجم عن الإنجليزية مسرحية" ثم غاب القمر" لجون شتاينبك.

وظل حسين مؤنس وافر النشاط، متوقد الذهن على الرغم من كبر سنه، وضعف قدرته على الحركة، وملازمته للمنزل حتى لقي الله في 27 شوال 1416هـ الموافق 17 مارس 1996م.

الدكتور إبراهيم عبده..
مؤرخ الصحافة ورائد الصحافة الساخرة

يمثل الدكتور إبراهيم عبده ظاهرة فريدة في تاريخ الإعلام المصري، فهو قد عمل أكاديميًا في هذا المجال، متخصصًا في تاريخ الصحافة منذ أن تخرج في كلية الآداب في منتصف الثلاثينات من القرن العشرين، ويغريه أساتذته، منهم الدكتور طه حسين والأستاذ محمد شفيق غربال بالتخصص في الصحافة، ويعد رسالته للماجستير حول" تاريخ الوقائع المصرية 1828- 1942"، ويذهب في بعثة إلىٰ الولايات المتحدة؛ للوقوف علىٰ الجديد في هذا المجال، ثم يعود إلىٰ مصر بعد ثورة يوليو 1952م، والذئ تحمس لها في البداية وهو في أمريكا، ثم يخيب ظنه فيها لأنها لم تلتزم بأهدافها الستة التي أعلنتها، ثم يذهب إلىٰ السعودية والكويت لتدريس الصحافة، ثم يعود فينشئ مؤسسة "سجل العرب" التي تخصصت في نشر الأعمال الضخمة، كما نشرت أعماله بعد ذلك، وعرف عنه الكتابة اللاذعة الناقدة للحكام الذين توالوا علىٰ حكم مصر حتىٰ رحيله سنة 1986، وقد شحت الكتابة عن الدكتور إبراهيم عبده بل انعدمت تمامًا، وقد أردنا في السطور التالية أن نرد بعض الجميل له؛ لأنه الرائد في مجال تاريخ الصحافة العربية، وتعداه إلىٰ العالمية في مصنفات رائعة بديعة حوت المعلومات الدقيقة التي ظل ينقح فيها حتىٰ رحيله.

ولد الدكتور إبراهيم عبده في القاهرة عام 1913، وتعلم في مدارسها الابتدائية والثانوية، وقد كان الرجل مثالًا للنبوغ والريادة منذ صغره، فيذكر الأستاذ مصطفىٰ أمين (زميله في المدرسة الخديوية) موقفًا يبرهن علىٰ نبوغه وعبقريته وحبه للصحافة، فقد كانا في مدرسة الخديوية الإبتدائية:" الدكتور إبراهيم عبده أول رئيس تحرير عملت تحت رئاسته، كنت طالبًا في السنة الأولىٰ في المدرسة الخديوية، وكان هو طالبًا في السنة الخامسة، وكان يفخر دائمًا أنه أفقر تلاميذ المدرسة، وبرغم هذا استطاع بكفاءته وقوة شخصيته وتمكنه في اللغة العربية أن ينتزع رئاسة تحرير مجلة المدرسة، وفوجئ محمد لبيب بك الكدواني ناظر المدرسة بالتلميذ إبراهيم عبده

يطلب إجراء حديث مع الدكتور بهي الدين بركات وزير المعارف في ذلك الحين، وكانت المجلة تفخر قبل ذلك بالحصول علىٰ حديث من ناظر المدرسة أو مدير التعليم الثانوي، ووافق وزير المعارف علىٰ استقبال رئيس تحرير مجلة المدرسة الخديوية، ودخل إبراهيم عبده مكتب الوزير، ودق بهي الدين بركات الجرس واستدعىٰ السكرتير، وقال يوبخه: كيف تقول أنه طالب في البكالوريا، وهو تلميذ في الابتدائي، وما كاد إبراهيم عبده يتكلم حتىٰ شعر الدكتور بهي الدين بركات أنه يستقبل أديبًا مثقفًا وصحفيًّا موهوبًا لا تلميذًا في المدارس الابتدائية".

ثم التحق بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، وزاحم، وقاوم، ودرس، وبحث حتىٰ أصبح في الصفوف الأولىٰ، وشخصية محبوبة في كلية الآداب، وأعلنت عليه حرب لا هوادة فيها، وانهالت عليه الضربات، وصمد، وقاوم، وهاجم حتىٰ حصل علىٰ الماجستير وعلىٰ الدكتوراه وأصبح عميدًا لمعهد الصحافة، ويتخرج علىٰ يديه كل أعلام الصحافة في مصر والوطن العربىٰ. وكان أثناء ذلك يكتب في جريدة" كوكب الشرق"، ومجلة" بنت النيل" التي كانت تصدرها الدكتورة درية شفيق، ثم أصبح مديرًا للمطبوعات.

سافر إلىٰ أمريكا، وقامت ثورة يوليو 1952، وهو هناك فيعقد مؤتمرًا صحفيًّا أعلن فيه تأييده للثورة، ونصَّب نفسه متحدثًا باسمها وداعيًا لها، ثم عاد بعد ذلك إلىٰ مصر يصطدم بالواقع الأليم والشعارات الجوفاء التي لازمت الثورة، والتي حولها جمال عبدالناصر إلىٰ انقلاب أثيم بعد ذلك في مارس 1954، ولم يطق أن يمكث في هذا الجو الملوث والسجن الكبير الذي عاشه المصريون في هذا التوقيت، وهو الذي تعود العيش في الجو" الليبرالىٰ" التي عاشته مصر قبل ثورة يوليو، وحول هذا الأمر يقول:" كنت وصحبي نبشر بالثورة ونرجوها منذ أكثر من ثلاثين سنة، فلما قامت كنت في الولايات المتحدة لدراسة دور الصحافة ومراكز الإعلام، فعقدت المؤتمرات متحدثًا باسم هذه الثورة وداعيًا لها، ونشرت جريدة الأهرام ذلك كله في حينه، فلما عدت إلىٰ مصر، وجدت الناس يستبطئون ما وعد بتنفيذه العهد الجديد، فكتبت مقالًا في جريدة الأخبار بعنوان (الصبر يا أهل الصبر) أطلب إلىٰ مواطنيَ أن

ينتظروا ولو عشرين شهرًا؛ ليروا النتائج الطيبة التي من أجلها ثار الجيش، وذكرتهم ساخرًا بأنهم عاشوا عشرين عامًا دون شكوىٰ أو تبرم يعملون ليل نهار، في بناء الهرم الأكبر؛ ليوسد فيه ملكهم عبر الأجيال والقرون؟ فلما سيطرت "السلبيات" وتنافر المضمون مع المفهوم كما يقول أهل اليسار وسيطر المتخلفون، ونُحيَ النبهاء، واختفت النخبة الواعية، وبرزت الطغمة الباغية، وأخذت معاول الهدم تدق في صروح العدل، شعرت وكأن هذه المعاول تدك رأسي وتحطم قلبي، خرجت من مصر إلىٰ السعودية ثم إلىٰ الكويت سنوات عدة، وبذلك أفلت من السجون والمعتقلات، ولم يكن عندي مال أو عقار حتىٰ تطبق قوانين الحراسات، بيد أن الهموم اعتصرتني في غربتي وأنا أسمع أن فلانًا قد سجنوه، أو اعتقلوه، أو عذبوه، أو عبثوا بمحرماته، ثم أجاعوه حتىٰ مد يده بالسؤال، أو أراحوه فشنقوه بعد أن مر بكل هذا العذاب، وفلان هذا إن لم يكن من أهلي أو صحبي أو جيرتي، فهو من مواطني، وما استحق أن يعيش من لا يحس آلام مواطنيه من صرعىٰ وشهداء".

وقد تعرض للاضطهاد والتضييق عليه مبكرًا، ففي العصر الملكي كان يقول لتلاميذه:" إن الخديوي إسماعيل كان ضرورة لمصر بخيره وشره"، وساء الملك فاروق أن يكون لجده "شر" فعوقب بالإبعاد من الجامعة إلىٰ وزارة المعارف، ولكن إبعاده لم يمكث طويلًا فقد شن الرجل حملة صحفية عنيفة ضد الاعتداء علىٰ حرية البحث التي هي من أساس استقلال الجامعة، فعاد إلىٰ تلاميذه ليواصل رسالته، فلما قامت الثورة دفع الثمن مرة أخرىٰ عن نفس التهمة، فقد ساء العهد الجديد أن يكون للخديوي إسماعيل "خير"، وكانت هذه العبارة ضمن خلفيات فصله الذي كان يصفه بأنه كان "لعنة حلوة" إذ تفتحت أمامه أبواب الرزق، وعرضت عليه الأستاذية في جامعات عالمية، ولكنه فضل الذهاب إلىٰ بعض الدول العربية، وفي عصر الليبرالية عاد إلىٰ الجامعة، أما في عهد الشمولية وحكم الحديد والنار فلم يعد إلىٰ الجامعة مرة أخرىٰ برغم كفاءته وريادته.

سافر الدكتور إبراهيم عبده بعد ذلك للعمل في السعودية ثم في الكويت، ثم عاد ليؤسس دار نشر ثقافية إعلامية شاملة أسماها "سجل العرب"، وقد تطورت هذه

الدار حتىٰ ضمت نحو 30 أستاذًا جامعيًّا تخصصوا في إصدار الكتب والموسوعات، بعدما رأوا أن المعلومات عن الدول العربية والإسلامية شحيحة وقت هذه الأمة في وحدتها وإبراز نقاط الالتقاء والاتصال فيما بينها. وفي هذا يقول:" ونحن العرب، من أطراف المحيط الأطلسي إلىٰ شواطيء الخليج العربىٰ، تجمعنا معالم وصفات يندر وجودها بين الجماعات الأخرىٰ، فيربطنا دين واحد، وتشدنا إلىٰ بعضنا لغة واحدة، وتسير في وجودنا ذكريات من التاريخ، وألوان الجهاد لا يُعرف نظيرها في شعب من شعوب العالم، ومع ذلك لا نزال مقصرين في التعرف علىٰ بلادنا، لهذا تألفت جماعة في القاهرة سنة 1959 من أساتذة الجامعات وبعض الأدباء والصحفيين، وأنشأت مؤسسة أطلقت عليها اسم " مؤسسة سجل العرب" الغرض منها نشر الدراسات والمؤلفات عن بلادنا العربية؛ ليقرأها العرب في كل مكان، فيتعرف بعضهم علىٰ بعض ويفهم بعضهم حياة البعض الآخر، وكانت نتيجة ذلك إصدار "سجل العرب" وهو كتاب ضخم في حوالي ألف صفحة، ثم بعض الكتيبات عن بعض أجزاء الوطن العربىٰ، كتبت بلغة سهلة تناسب أطفالنا..".

كانت باكورة هذه الأعمال كتابه عن الكويت التي عمل بها فترة، وكانت في هذا الوقت قد استقلت حديثًا فشارك في هذه المناسبة بكتابه الشامل "دولة الكويت الحديثة"، وقد عهدت إليه مؤسسة سجل العرب لكتابة هذه الدراسة التي راعىٰ فيها الحقيقة التاريخية والمكانية، ولم ينظر إلىٰ رضاء أمير أو سلطان، ورغم مرور عقود عليها إلا أنها مازالت تحتل الريادة والتميز.

ويحسب للدكتور عبده أنه أول أستاذ للصحافة في مصر؛ حيث حصل علىٰ العديد من الشهادات العلمية في هذا المجال من مصر وأمريكا، كما درس للفن الصحفي وتاريخ الصحافة في جامعة القاهرة والعديد من الجامعات العربية والعالمية، وكان أول عميد لمعهد التحرير والترجمة والصحافة منذ إنشائه عام 1939 قبل إنشاء كلية الإعلام سنة1974، كما اختارته جامعة القاهرة أستاذًا متفرغًا في كلية الإعلام 1982.

حمل علىٰ ثورة يوليو 1952حملة عنيفة، وكان شاهدًا عيانًا علىٰ أخطائها وانتكاساتها، فأصدر عدة كتب في هذا المجال كان أولها كتابه الشهير جدًّا" رسائل

من نفاقستان" الذي طبع طبعات عدة وتحدثت عنه الصحافة العالمية، واعتبر المعلقون الغربيون هذا الكتاب بداية مرحلة جديدة في مصر تقبل الحاكم خلالها بعض النقد لسياسته الداخلية، وقد طبع الكتاب ثلاث مرات، وصيغ علىٰ نسق" الرسائل الفارسية" التي كتبها المفكر الفرنسي "مونتسكيو" في القرن الثامن عشر، والجدير بالذكر أن أول كتاب سياسي كتبه إبراهيم عبده كان بعنوان "الثوار في متحف الخزف" سنة 1953، عقب خروجه من الجامعة.

ثم توالت كتبه لتنتقد أخطاء أربعين عامًا من حكم العسكر في مصر بعد انقلاب جمال عبدالناصر علىٰ ثورة يوليو التي كانت تسير تقريبًا سيرًا طبيعيًّا حتىٰ تم إزاحة قائد الثورة اللواء محمد نجيب الذي كان يبغي إقامة نظام ديمقراطي تعدديّ صحيّ، وكان يريد من الجيش أن يعود إلىٰ ثكناته ويتفرغ لمهمته الطبيعية في حماية الحدود والدفاع عن الأمن القومي المصري، إلا أن ضباط يوليو راقت في أعينهم لعبة السلطة والسياسة، واستولوا علىٰ مؤسسات الدولة، وهيمنوا عليها، وجعلوا دور مصر تتقزم أمام عصابة الصهاينة، ما كانت أن تنتصر في مرادها إلا بتخاذل وتخلف النظام السياسي التي انتهجته السلطة العسكرية التي كانت تحكم مصر، والتي كانت تتعلل بعلل واهية منها الاستعمار وأعوانه في الداخل، وخونت كل من يعارضها واتهمته بالعمالة والخيانة.

تعرض الدكتور إبراهيم لمضايقات أثناء عمله في الجامعة مثل غيره الذين تعرضوا لهذا المصير، وهم كُثر، وفي هذه الشأن تقول تلميذته النجيبة عواطف عبدالجليل:" ولم نسعد طويلًا بأستاذنا الكبير، فقد سادت الجامعة سحابة من الكآبة تدنت فيها الأخلاق الجامعية وتعثرت العدالة السياسية، وتحركت الأطماع الانتهازية، فحولت الساحة العلمية الأكاديمية إلىٰ غابة شرسة مظلمة، وخرج إبراهيم عبده كالأسد الجريح ليعلن رأيه في صراحة وصدق".

مؤرخًا للصحافة:

أرَّخ الدكتور إبراهيم عبده للصحافة المصرية والعربية والعالمية في كتب عدة اعتمدت علىٰ الدقة والوثيقة وحسن استخدامها، وظهر له في هذا المجال ثلاثة عشر

كتابًا هم:" تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية"، و" تاريخ الوقائع المصرية 1928- 1942)، و" تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية"، و" أعلام الصحافة العربية"، و" حول الصحافة في عصر إسماعيل"، و" جريدة الأهرام تاريخ مصر في خمسة وسبعين عامًا"، و" " Etudes Journalistques En Europe و" دراسات في الصحافة الأوروبية تاريخ وفن"، و" أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر"، و" الصحفي الثائر"، و" روز اليوسف سيرة وصحيفة"، و" الصحافة في الولايات المتحدة نشأتها وتطورها".

ولنأخذ علىٰ سبيل المثال لأول كتبه" تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية" الذي صدر في طبعته الأولىٰ سنة 1940، وألفه بتكليف من أستاذ التاريخ محمد شفيق غربال بعد أن رأىٰ تركيز المؤرخين للحملة علىٰ الجانب السياسي والعلمي فقط، وندرت التأليف حول هذا العصر اللهم إلا من مؤلفات فرنسية وضعت في القرن 19 وبدايات القرن العشرين، وقد شمر الدكتور إبراهيم عبده عن ساعد الجد واستعان بالمصادر والمراجع الأجنبية والعربية، وإن كانت الأخيرة لا تشفي الغليل؛ لأنها كانت مصنفات أولية لم تتعمق بعد، فقرأ مؤلفات ومذكرات علماء الحملة الفرنسية وكتاب "وصف مصر"، وقدم الدكتور عبده بفصول تمهيدية عن وسائل الاتصال بالجماهير منذ أقدم العصور وحتىٰ الحملة الفرنسية، وعدد طرقًا منها، كما تطرق لتاريخ المطبعة ثم تحدث عن مطابع وصحافة الحملة الفرنسية وأدوات النشر وعمل المطابع، كما تحدث عن صحيفة" لو كورييه دىٰ ليجييت" وجريدة" لا ديكاد اجبسين" وجريدة التنبيه.

ونقف معه في كتاب آخر" تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية" الصادر في طبعته الأولىٰ 1944، ويتناول تاريخ الصحافة في مصر منذ نزل بونابرت وادي النيل سنة 1798 إلىٰ تاريخ نشر الكتاب عام 1982، ويتضمن ما أصاب الصحافة المصرية- سواء الرسمية أو الشعبية- في هذه الفترة الطويلة من تطور في موضوعها وشكلها، مستندًا في ذلك إلىٰ الوثائق الرسمية، كما تناول الكتاب

العديد من الشخصيات الخالدة في تاريخ الصحافة المصرية، وما تركوه من آثار لاتزال واضحة في نهج الصحافة المعاصرة مثل: أديب إسحاق، ورفاعة الطهطاوي، والشيخ محمد عبده، والنديم، ومصطفىٰ كامل، ومصطفىٰ وعلي أمين، العقاد، وطه حسين، وحافظ عوض، ومحمد التابعي.. وغيرهم، ممن أثروا في تاريخ تطور الصحافة المصرية.

أما كتابه" تاريخ الوقائع المصرية 1928- 1942" وأهمية هذا الكتاب ترجع للموضوع الذي تناوله- مع الاعتراف بأهمية كتاباته الأخرىٰ- فهو يتطرق لموضوع من الأهمية بمكان لدىٰ الباحثين في كل مناحي الحياة في مصر ابتداء من عهد محمد علي، وترجع أهمية عمله هذا إلىٰ أن أصله رسالة ماجستير، مما يعني أنها دراسة علمية جادة، وليست موضوعًا للمناقشة أو للطرح، كما أن الموضوع نفسه تعود أهميته إلىٰ الدور الذي يمكن أن تقوم الوقائع المصرية لمن يريد أن يعرف، أو يدرس أحوال الحياة المختلفة في مصر، كما يروي أدق التفاصيل لمراحل تطور الجريدة والتغيرات التي طرأت علىٰ مطبعتها. ولكن الكتاب لم يقسم إلىٰ فصول، إنما تم توزيع الموضوع علىٰ نقاط بلغت اثنتي عشر نقطة بالإضافة إلىٰ خاتمة. وهذه النقاط هي:

مقدمات الطباعة والصحافة في مصر، جرنال الخديوي وديوانه، إنشاء الوقائع المصرية وإدارتها، سياسة محمد علي في توجيه الوقائع، تحرير الوقائع المصرية، تجديد الوقائع وتعديل نظامها، الوقائع المصرية في عصر الخديوي إسماعيل، رسالة الوقائع في العصر الجديد، الوقائع صحيفة رأي وفكر، تاريخ الوقائع المصرية من سنة 1882 إلىٰ أيامنا المعاصرة، الوقائع المصرية- القسم البرلماني، الجريدة الرسمية الفرنسية.

وبيَّن الكتاب أن المطبعة التي استخدمت لطباعة الوقائع المصرية ليست هي المطبعة التي أحضرها نابوليون بونابرت مع حملته علىٰ مصر؛ لأن مطبعة الحملة عادت إلىٰ فرنسا في 1803. وقد اضطر محمد علي بسبب تطور الحياة علىٰ مستوىٰ العالم وحاجة مصر الماسة إلىٰ مطبعة، خاصة في تلك الفترة من تاريخ مصر، والتي

شهدت معظم وأوج أنشطة ومحاولات محمد علي لتغيير وجه مصر، وحروبه المختلفة. فالإدارة تحتاج إلىٰ كتابة الأوامر والتقارير، والجيش يحتاج إلىٰ كتب ودراسات لمتطلبات الحركة التعليمية في مصر في تلك الفترة. أنشئت مطبعة بولاق، أو المطبعة الأميرية وافتتحت في 1235 هـ/ 1819 – 1820 م، وأنشأ محمد علي جريدة الوقائع المصرية في 15 رجب 1244 هـ – أي بعد تسع سنوات من تأسيس المطبعة الأميرية– ولم تكن تطبع الوقائع المصرية بانتظام، فكانت أحيانًا تطبع عددًا واحدًا في الأسبوع، وأحيان أخرىٰ ثلاثة أعداد، وفي أوقات أخرىٰ يتأخر العدد لأكثر من أسبوع وهكذا، فقد كانت خطواتها الأولىٰ بسيطة وبدائية، وإن كانت تعكس أسلوب محمد علي في الإدارة الذي يتمثل في إنشاء مؤسسة معينة، أو نظام معين لفترة محددة لحاجة خاصة، وتتوقف الحاجة إلىٰ هذا النظام أو هذه المؤسسة علىٰ حاجة المجتمع من وجهة نظره

أو علىٰ ما يراه هو مناسبًا. وعلىٰ سبيل المثال، نظام التعليم.. إلخ، وكانت توزع هذه المجلة علىٰ أفراد العائلة الحاكمة وحريم محمد علي، وعلىٰ كبار رجال الدولة والحكم، وكبار الضباط، ورجال الإدارة، ثم علماء الأزهر وتلاميذ المدارس، مجانًا في باديء الأمر، ثم تم تحديد سعر رمزي لها بعد ذلك، كما كانت ترسل إلىٰ مواقع الجيش المصري سواء في كريت أو في السودان.. إلخ.

الدكتور إبراهيم عبده ناقدًا وساخرًا:

ألف الدكتور إبراهيم عبده العديد من الكتب السياسية التي تنتقد النظام القائم في مصر بعد ثورة يوليو 1952، ومنها كتابه" أقول للسلطان" سنة 1976 موجهًا حديثه للرئيس محمد أنور السادات مذكرًا إياه بعهوده التي قطعها علىٰ نفسه في بداية حكمه حتىٰ عمل علاج ما أحدثه حكم سلفه جمال عبالناصر من انتهاكات وإهدار لحقوق الإنسان، ومن غياب تام لدولة القانون والدستور، فكان أول ما فعله السادات في هذا الإطار ثورة التصحيح في 15مايو 1971 التي عزل فيها الفسدة من مراكز القوىٰ التي زرعت الشقاء في مصر علىٰ مدار عقدين من الزمان، وكان نتيجة هذه الإصلاحات انتصارنا الساحق في حرب أكتوبر المجيدة 1973؛ لأنه بالعدل تحيا الأمم، ولم يقف

عند هذا الحد، بل طلب منه عمل انتخابات نزيهة أسوة بما يحدث في الدول المتقدمة صاحبة الديمقراطيات العريقة، ويذكره بأن كل نقابة ومؤسسة في مصر تجري فيها الانتخابات الكاملة فما بالنا برئاسة الجمهورية، وهي أولىٰ بذلك، كما يطلب منه الحرية الكاملة للصحافة ولإصدار الصحف فهي ضمان للديمقراطية الكاملة.

يقول موجهًا حديثه إلىٰ السادات بعدما قال في خطاب له بأن سلفه ترك له تركة ثقيلة في السياسة والاقتصاد:" وتحولت بذاءات اللسان أحيانًا إلىٰ تجريدات عسكرية- تجريدة إلىٰ " الكونغو" وأخرىٰ إلىٰ اليمن- أو تجريدات سرية تهدف إلىٰ انقلاب هنا أو انقلاب هناك، فإذا فشلت هذه التجريدات السرية فيما تهيأت له كانت لا تعود بخفي حنين، فتترك بصماتها تدميرًا بمنشأة أو نسفًا لمصنع أو اغتيالًا لإنسان كما يفعل تلميذه القذافي هذه الأيام..". (أقول للسلطان ص18).

ويواصل حديثه:" أما الوضع الاقتصادي المنهار الذي ورثه السادات عن عبد الناصر فقد حدد هذه الكارثة الاقتصادية وزير ماليتك في بيانه في مجلس الشعب، وهو يقدم ميزانية 1976 فقد أعلن أننا خسرنا 16141مليون جنيه منذ هزيمتنا في يونيو 1967، وحتىٰ نصرنا في أكتوبر 1973".. ويعلق عبده علىٰ هذا، ويضيف:" ويبدو أن وزير المالية كان رفيقًا بالناس، فلم يرجع إلىٰ قبل 1967، فإن السنوات العشر التي سبقت الهزيمة لها هي أيضًا اقتصادها المنهار، وهو اقتصاد لا يعرف تفاصيله أحد؛ لأن ميزانيات الدولة والقطاع العام كان سرًّا، كانت أموال الشعب في السنوات العشر تلك تبذر في الحروب وبعثات التدمير هنا وهناك، وإنشاء السجون والمعتقلات، والتجسس علىٰ المواطنين في حياتهم الخاصة والعامة، أموال مصر بذرتها" سياسة تجنيد العملاء والوكلاء وشراء الأقلام وإصدار الصحف المأجورة، واستكتاب المرتزقة الذين يأكلون علىٰ كل الموائد، وينتقلون من النقيض للنقيض".

ثم يذكر نماذج من السرقات ونهب المال العام الذي جرىٰ بواسطة الحكام أنفسهم وحاشيتهم، ولم يتوقف هذا النهب المنظم لثروات مصر حتىٰ بعد رحيل الدكتور عبده بل هو قديم، فقد رصده المتنبي في بيته الشهير:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنىٰ العناقيد

بالرغم من هذا النهب المنظم والسرقات المستمرة فمال مصر موجود لا ينضب أبدًا؛ لأنها خزائن الأرض.

" تاريخ بلا وثائق":

هذا هو كتاب للدكتور إبراهيم عبده حاول فيه التأريخ لمصر في عشرين عامًا منذ انقلاب محمد نجيب 23 يوليو 1952 إلىٰ ثورة التصحيح 15 مايو 1971، فإذا هو يكتشف أن ما رجع إليه لا يرقىٰ من معنىٰ للوثائق والأسانيد، رجع فيه إلىٰ خطب وأحاديث عبد الناصر، فلم يجد فيها ضالته المنشودة، فالرجل وعدنا بالجنة ووعدنا بالرزق الموصول، وحدثنا عن حياة للمواطنين مرفهة كريمة ترفع فيها رؤوسهم بعد أجيال من الذل والاستعباد! ثم أصدر قرارات تتصل بالحريات ونظام الحكم هي غاية ما يرجوه الرعايا من راعيهم، بيد أن شيئًا من ذلك لم يتحقق، ولم يوضع قط موضع التنفيذ!

ثم عاد إلىٰ صحف هذا الزمان فإذا هي جميعًا صورة واحدة، مقالًا وأخبارًا وتبويبًا وإعلانًا، ورآها جميعًا تحمل الطبلة والمزمار، ثم قرأ كتبًا وأوراقًا صدرت عن مصلحة الاستعلامات وعن تحالف قوىٰ الشعب العاملة التي يمثلها الاتحاد الاشتراكي، ورجع إلىٰ الكتب الرسمية التي توزع علىٰ تلاميذ المدارس، وتحكي المفاخر والأمجاد، كما رجع إلىٰ ما كتبه المرتزقة اللبنانيون ونشروا في بيروت من مؤلفات رعاها سفيرنا، ومدَّهم لطبعها وتوزيعها بملايين الليرات أو ملايين الجنيهات، الكتب كلها صورة واحدة كصحف مصر، وكان يكفي أن يقتصر علىٰ صحيفة واحدة يقرؤها المصريون وكتاب واحد تنشره إحدىٰ هذه الهيئات، فإن المتن سواء في الصحف أو الكتب تكرار ثقيل وممل لأمجاد وهمية ومغالطات غبية، لكنها الدعاية الفطرية السمجة التي رسمت وخططت حتىٰ لا يغيب عن الآذان النقر علىٰ الطبلة أو النفخ في المزمار.

وحاول أن يدرس السياسة الخارجية في عهد عبدالناصر، فبدأ بقضية الكونغو وزعيمها "لومومبا" وخصمه" تشومبىٰ" فلم يجد ورقة صادقة تكشف عن هذا النصيب سواء اتصل برجالنا الذين حاربوا أو بمالنا الذي بذر وراح هباء.

أراد أن يعرف بالأدلة شيئًا عن حرب اليمن، الفيالق التي ذبحت في جبال ذلك البلد التعس السعيد! ومئات الملايين التي صرفت علىٰ التجريدة التي أمر بها الراحل عبدالناصر، وأطنان الذهب التي وزعت علىٰ القبائل والمشتريات التي عادت بها الطائرات لحساب أصفياء المشير عبد الحكيم عامر الذين حاربوا من مكاتبهم، ومُنحوا القلائد تزين صدورهم كأنهم أبطال من طروادة أو أبطال مقدونيا في عهد الإسكندر ذي القرنين.

أراد أن يعلم شيئًا عن هذه الأحداث فلم يجد وثيقة تحكي شيئًا، فكل الوثائق التي تتحدث عن ذلك إما ضائعة وإما في بطون أصحابها، وإما في مكان لا يراد أن تنبش فيه إلا بعد خمسين عامًا، فقد يسيء النبش إلىٰ حيٍّ أو ميت!.

لذا لم ييئس الرجل فقد دوَّن علىٰ صفحات كتابه هذا ما رآه وعاشه، وكان شاهدًا عليه ملايين المصريين الذين رزقوا البؤس والشقاء في هذا العصر الرهيب.

ومن النفاق ما قتل:

ألف الدكتور إبراهيم عبده كتابه المهم" ومن النفاق ما قتل" بعدما رأىٰ سدنة الطغاة في كل العصور يتلونون بلون الحاكم، ويغيرون جلدهم في كل عصر ومصر، وظيفتهم هي عزل الحاكم عن الواقع وتلميعه بالباطل؛ حفاظًا علىٰ مصالحهم الضيقة جدًّا، ويعدد مظاهر النفاق في عصر عبد الناصر التي كانت دعائم حكمه تقوم دائمًا علىٰ أكتاف المنافقين والمستغلين من أهل الحَظوة، من كان سببًا في كارثة مصر سنة 1967، إنهم المنافقون الذين أدخلوا في روع الرئيس جمال عبد الناصر أنه جاء بما لم يجئ به موسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام، قالها محافظ ولم يعاقب علىٰ كفره، بل رُقِّي محافظًا للعاصمة، ثم عُين وزيرًا بعد ذلك، ثم من الذي أفسد النظام في عهد عبد الناصر!، إنهم المنافقون الذين ألفوا أغنية لا تقال إلا في ذكر الله سبحانه وتعالىٰ،" لبيك عبد الناصر لبيك"، ولم يرحمه المنافقون من نفاقهم يوم وفاته فنشروا صورته تحتضن الكعبة الشريفة وتحتها كتب أنه بعث نورًا للناس- تمامًا كما بعث محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم ماذا.. رحل عبد الناصر وجاء السادات، رجلٌ متواضعٌ يحني رأسه إجلالًا لتمثال سلفه في مجلس الأمة، جاء السادات وفعل العجب حتىٰ استقطب جميع

الناس ثم ماذا؟ استفتح المنافقون دورهم الخالد فبدأت الأغاني في تمجيد الرئيس الطيب تنشد في الإذاعة والتلفزيون، وعلىٰ سبيل المثال وليس الحصر.. شاهدنا وزير الداخلية النبوي إسماعيل يعلن للرئيس نتيجة الاستفتاءات، وقد وقف كأنه في محراب!، وذكر عبارة يا سيادة الرئيس أكثر من ثلاث وثلاثين مرة، ولم يستغرق اللقاء أكثر من عشر دقائق!

وقد اعتادت المذيعة الكبيرة همت مصطفىٰ أن تسجل للرئيس السادات حديثًا يوم عيد ميلاده، ثم رُحِّب بخطىٰ الرئيس السادات منذ ألغىٰ الحراسات وأغلق السجون والمعتقلات وانتصر في أكتوبر، وختم جهاده بكامب ديفيد ومعاهدة السلام، ثم بلغ نفاق المنافقين ذروته بعد تلك الأحداث ودعَّمه نفاق وارد من الولايات المتحدة وأوروبا باعتباره بطلًا للسلام، وهذا حق فالسلام أمنية مصر والعالم أجمع، وفي مأدبة أقامها الرئيس السادات في واشنطن قام " جورج بوش" نائب الرئيس" رونالد ريجان" خطيبًا فقال: إن الله سبحانه وتعالىٰ خلق العالم في ستة أيام، كان يخلق كل يوم ملايين البشر وملايين الزواحف والأنعام، ثم خصص سبحانه يومًا لخلق السيد المسيح عليه السلام، وفي يوم خلق الرئيس السادات، وما أظنه في ذلك اليوم خلق شيئًا؛ اكتفاء بهذا العمل العظيم، وكان ضمن الحضور من الصحافة المصرية زميل العمر دكتور مصطفىٰ محمود والكبيرة أمينة السعيد، التفت مصطفىٰ محمود وأمينة السعيد إلىٰ رؤساء تحرير الصحف، وقال: إياكم أن ترسلوا بهذا القول إلىٰ صحفكم فإن نشر كلمة بوش سوف تسيء إلىٰ المسلمين والمسيحيين علىٰ السواء.

وفي اليوم التالي استدعىٰ الرئيس السادات رؤساء التحرير باسم الثغر منشرح الصدر فهو « بشر»، وسألهم عن قول بوش وهل استوعبوا كلامه؟ فتقدم منافق منهم وقال: إن السيدة أمينة السعيد ولم يذكر مصطفىٰ محمود- نفاقًا لمصطفىٰ- وقال: إنها نصحت بعدم نشره، ولكنهم جميعًا أرسلوا بذلك الحديث العظيم وقد نشر، ونظر الرئيس شذرًا إلىٰ أمينة السعيد ولم يقل شيئًا، صدقونىٰ ما من أحد في العالم يلقىٰ هذا النفاق ويعيش وسط هذا الرياء ويقرأ ويسمع أنه منزه لايخطىء!، ما من أحد

في العالم يحاط بكل هذا النفاق ويبقي على طبعه الأصيل، فلابد أن تغره الدنيا وأنه والأنبياء على قدم المساواة. (ومن النفاق ما قتل 1982 – ص 130-131)

ومثال آخر رواه الدكتور إبراهيم عبده: « عندما قال السادات في خطبة ألقاها بمناسبة تأسيس جامعة الشعوب العربية والإسلامية أن رفاعة الطهطاوي قاد الجماهير لمحاربة الولاة والخديويين، فكتبت للرئيس رسالة أنبه إلى أن الرجل نشأ وعاش ومات في حجر السلطة، وأنه كان رجل علم، ولم تكن هناك صحف تصل بينه وبين جماهير المصريين، حتى يشتغل هو أو غيره من الإعلام بالشئون السياسية. ومن طريف ما حدث أن الرئيس بعث برسالتي إلى كاتب خطبته، ويبدو أن كاتب الخطبة كان قد استعان بصديق في كتابتها، فطلب إليه أن يرد على رسالتي، وإذا بي أقرأ من غير مناسبة مقالة عن الطهطاوي في إحدى صحف الحكومة في 9 ديسمبر 1980، يحدثنا فيها كاتبها أن الطهطاوي ترجم دستور 1866، وأنه أول من ذكر في كتبه لفظ (الوطنية) و(الأمة) وبذلك يكون الرجل زعيمًا سياسيًا، مع أن كلمة الأمة ذكرها الله تعالى حين قال للمسلمين "كنتم خير أمة أخرجتم للناس"، واستعمل المؤرخون كلمة الوطنية والوطن قبل أن يولد الطهطاوي بقرون. وهكذا صوروا للرئيس رَحِمَهُ اللهُ أن الطهطاوي الذي ترجم الدستور بأمر من الخديوي إسماعيل، زعيم سياسي يقف على قدم المساواة مع مصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس». (ومن النفاق ما قتل 1982 – ص 133) .

ويضيف قائلًا: « من الخطب التي وضعت للرئيس وألقاها في مجلس الشعب في نوفمبر 1980، خطبة جاء في فقرة منها أن الحقوق التاريخية لعروبة القدس «لا يمكن تجاهلها» وأنه تحدث في هذا الأمر مع بيجين، وقال له: « إن الأب أسطفانوس رفض تسليم القدس إلا للخليفة عمر بن الخطاب وكان ذلك بعد الحروب الصليبية» ومعنى ذلك أن القدس سُلمت لعمر بن الخطاب بعد وفاته بنحو ثمانمائة عام. أما في خطبته الأخيرة فقد ظهر جهل خطبه بالتاريخ حين كرر السادات ست مرات، أن نوبار باشا ولي الحكم بعد سعد زغلول سنة 1924، بينما نوبار باشا هذا مات قبل استقالة سعد زغلول، والذي ولي الوزارة بعد سعد هو زيور باشا. ومن النفاق الحقير أن صحفيًا مرموقًا اتصل بالرقيب الخفي الذي لا يعلن عنه، وبين له وجه الحق في

المسألة ليصدر أوامره لتصحح الصحف اسم الرجل الذي جاء في الوزارة بعد سعد زغلول، ولم يكتفِ بهذا الصحفي المرموق، بل اتصل بالصحف نفسها، ولما كان الجبن سيد أخلاق المنافقين فإن رؤساء الصحف لم يجرؤوا على تصحيح الواقعة حتى لا يغضب السلطان، وصدرت الصحف جميعًا في اليوم التالي إلا الأخبار، وفيها أن نوبار باشا الذي مات في القرن التاسع عشر جاء رئيسًا للوزارة بعد سعد زغلول سنة 1924».(ومن النفاق ما قتل 1982 – ص 134).

ويعلق الدكتور إبراهيم عبده على كل هذه الوقائع التي لا تشكل سوى قطرة في بحر النفاق الذي أغرقنا عبر السنين" صدقوني ما من أحد في العالم يلقى هذا النفاق ويعيش وسط هذا الرياء ويقرأ ويسمع كل يوم وكل ساعة ولحظة أنه منزه ولا يخطئ، وأنه والأنبياء على قدم المساواة، وأن قوله لا يأتيه الباطل أبدًا، وأن في مقدوره أن يرحم أو لا يرحم، وأن في استطاعته أن يرمي ببعض خصومه من رجال الدين في السجون كالكلاب، ما من أحد في العالم يحاط بكل هذا النفاق ويبقى على طبعه الأصيل، فلابد أن تغره الدنيا، ولا يقبل نقدًا لسلطانه أو تصويبًا لبيانه، فمن المسئول عن هذا كله؟، إنه النفاق الذي مهد لكل بلاء أصابنا أو أصاب السلطان".

هل هذا معقول؟

فرح الدكتور إبراهيم عبده لإصدار جريدة "الوفد" في بداية 1984، بعد إغلاق آخر صحف هذا الحزب الليبرالي، وهي جريدة المصري في 5 مايو 1954، وكان الدكتور عبده وفديًا؛ لأنه كان ليبراليًا يؤمن بحقوق الإنسان وحرية الكلمة والديمقراطية الكاملة الخالية من أي شائبة، وقد دفع أكثر من مرة ثمن هذا الإيمان وظل مبقيًا عليه إلى آخر يوم من حياته.

بدأ إبراهيم عبده الكتابة في جريدة "الوفد" في عدد رقم 36 الصادر في 15 نوفمبر 1984، وكان عنوان موضوعه أو زاويته "هل هذا معقول؟" هاجم فيه وزير الاقتصاد لتعديه على مبدأ فصل السلطات، ولم يفُتْه بالمناسبة أن يسخر من قانون" سلطة الصحافة" الذي" لا طعم له ولا رائحة والمسمى بالسلطة الرابعة!"، وهو يعتب في مقاله الثاني على نواب الوفد الذين" فاتهم أن يتقدموا بسؤال أو استجواب" عن عبث

رئيس مؤسسة الأسمنت الذي أنشأ -على حد قوله- استراحات على حساب الدولة.

ومرة أخرى يطل النفاق برأسه مع الحاكم الجديد حسني مبارك الذي تولى الحكم بعد مقتل سلفه في 6 أكتوبر 1981، وقرب إليه جوقة من المنافقين الذين يحولون الهزائم إلى نصر، والإخفاقات إلى إنجازات، ويزينون للحاكم سوء عمله، وهو الذي كره النفاق ندد به في كتبه ومقالاته لذا" طالب الحكومة بمطاردة خصوم الطهر والعفة، فإن تقاعست أو خانتها الرؤية، شاركت من حيث لا تدري في تشجيع المفسدين، وأباحت للفساد أرضًا يرتع فيها بلا حسيب أو رقيب، ودون خشية من القانون أو إصغاء لوصية السلطان!" وقد رأى أن هناك انفصالًا شبكيًّا بين الحكومة والرئيس ثم بين الحكومة والمواطنين.

وهو يحذر من المبالغة في الدعاية؛ لأنها" تسيء أكثر مما تفيد" ويأخذ على الوزراء والمحافظين إسرافهم في إقامة الزينات وحشد المواطنين على حساب الإنتاج كلما زار الرئيس موقعًا من مواقع الإنتاج، كما يأخذ على أجهزة الإعلام وصف كل مقابلة تتم بين الرئيس وشخصية أجنبية بأنها" مفيدة ومثمرة" دون أن تفصل أو تشرح مدى الفائدة والثمرة اللتين يجنيهما الشعب من هذه المقابلة.

ويمكن القول إن مقالاته التي صاغها تحت عنوان" هل هذا معقول؟" على امتداد عامين في جريدة الوفد قد كشفت الإرهاصات الأولى لفساد نظام مبارك الذي سقط بعد ربع قرن من رحيله تحت قوة الثورة المصرية الخالدة في يناير 2011.

هذا غيث من فيض في حياة وكتابات الأستاذ الكتور إبراهيم عبده (1913- 1986) أستاذ الصحافة والكاتب الساخر الكبير والناقد الحصيف الذي أثرى حياتنا بمؤلفات جليلة القدر أبان فيها عن جانب مهم من تاريخ الصحافة العربية، وصحح لنا معلومات مغلوطة وكاذبة عن عصر الهزائم والمظالم، ولم يكتفِ بهذا بل طالب السادات ومبارك في بداية حكمهما بأن يستفيدا من أخطاء الماضي اللئيم، ولكن هيهات! فقد بدأ السادات عصره بإنجارات وانتهى إلى ما انتهى إليه سلفه من انتكاسات، وكذلك مبارك فقد صنع بعض الإنجازات في بداية حكمه، ولكنه استسلم للفساد ولمستشاري السوء، والرجل كان لديه استعداد فطري لصنع هذا الفساد حتى أطاحت به في النهاية الثورة الشعبية الكبرى في 25 يناير 2011.

وقد رحل الدكتور إبراهيم عبده سنة 1986.

الشيخ محمد أبو زهرة.. الفقيه الشجاع الجرئ

حديثنا اليوم عن رجل عرف عنه الشجاعة في قول الحق مهما كلفه هذا من عناء، وهو الفقيه الملتزم المجدد، كتب في الفقه كتبًا جديرة بالذكر، جعلته في مكانة مع كبار الفقهاء والعلماء في تاريخ الفقه الإسلامي، كما كتب عن رجاله أيضًا ثمانية مجلدات تتبع فيها حياتهم وخطوات تجديدهم واجتهادهم، إنه الإمام العلامة الكبير محمد أبو زهرة، الذي ولد بالمحلة الكبرئ في السادس من ذي القعدة 1315(الموافق 29 مارس 1898م)، حفظ القرآن في إحدئ كتاتيب بلدته، وكذلك حفظ المتون ومبادئ الحساب، ثم انتقل إلئ المسجد الأحمدي بطنطا؛ لاستكمال تعليمه، وبعد ثلاث سنوات في المسجد الأحمدي، انتقل إلئ مدرسة القضاء الشرعي سنة 1335 هـ / 1916م؛ حيث درس فيها ثمان سنوات، وتلقئ فيها العلم علئ ثلة من كبار الأساتذة في ذلك الوقت منهم الشيخ محمد الخضري، والشيخ فرج السنهوري والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ عاطف بركات ناظر المدرسة، تعلم فيها العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ والعلوم الحديثة، وكان مكبًّا علئ تحصيل العلوم نهمًا لا يشبع أبدًا، ثم تخرج سنة (1343 هـ / 1924م)، وحصل علئ عالمية القضاء الشرعئ، ولم يكتفِ بذلك وطمح إلئ دراسة اللغة العربية، فاتجه إلئ دار العلوم لينال الشهادة المعادلة سنة 1927، فاجتمع له تخصصان قويان، لابد منهما لمن يريد التضلع في علوم الإسلام.

عقب تخرجه؛ عمل الرجل في أكثر من مجال خلال عمر حياته المديد، فتدرج في الوظائف من مدرس للعربية في المدارس الثانوية إلئ تدريس فن الخطابة والجدل في كلية أصول الدين، فألقئ محاضرات ممتازة في أصول الخطابة، وتحدث عن خطباء العصر القديم، متنقلًا إلئ خطباء العصر العربية في عصورها المختلفة، وكتب في الخطابة مؤلَّفًا كان الأول من نوعه في اللغة العربية؛ حيث لم تخص الخطابة قبله بكتاب مستقل، وقد ذاع فضل المؤلف فاختارته كلية الحقوق لتدريس الخطابة بها، ونلاحظ أن خريجوا هذه الفترة كانوا يتمتعون ببيانٍ آسرٍ، حيث كانت مادة الخطابة

الأدبية أصلًا من أصول التدريس، ثم عمدت إليه نفس الكلية بتدريس الشريعة الإسلامية، وتدرج من رئاسة قسم الشريعة الإسلامية، ثم منصب الوكالة حتىٰ أحيل للتقاعد سنة 1378 هـ/ 1958م. اختير عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية سنة (1382 هـ/ 1962م) بعد صدور قانون الأزهر.

كتب الأستاذ أبو زهرة عن الفقه ورجاله كتبًا مؤسِسة في هذا المجال الدقيق من العلوم الإسلامية، ومازالت هذه المؤلفات هي الرائدة للباحثين، إذ لم يكتب مؤلفاته إلا بعد أن وضح له الطريق، فقد اتجه في تأليفه التشريعي تاريخًا وفقهًا وجهتين محددتين، إذ أشار إلىٰ أن دراسة علم من العلوم ذات شعبتين: شعبة تدرس الأطوار التي مرت عليها نظريات العلم، فتأتي بالقواعد والأحكام متسلسلة في تطورها الزمني، مصورة معرفة البيئات التي احتضنت هذه النظريات، وحاجات العصر التي دفعت إليها من تجدد أحداث، واختلاف أمكنة وملابسات، أما الشعبة الثانية فهي دراسة أصحاب النظريات الفقهية، دراسة تحليلية، يبين فيها الدارس وجهة نظر الفقيه المدروس، وما ابتكره من آراء قائمة علىٰ الأصول المعتمدة، ومقدار الأثر الذي تركه في ذلك العلم، والمناهج التي سلكها والغايات التي يرمىٰ إليها، والنتائج التي وصل إليها، هذا الرجل الفقيه الذي كتب عن الفقه والفقهاء أعظم الآثار في العصر الحديث إذ كتب عن أئمة الفقه؛ لأن مؤرخ الفقهاء لابد أن يكون فقيهًا مارس الفروع وعرف الأصول فكتب ثمانية أعلام ثمانية مجلدات هم أبو حنيفة، والشافعي، ومالك، وابن حنبل، وابن تيمية، وابن حزم، وزيد بن علي، وجعفر الصادق، كما أن له كتبًا أخرىٰ زادت علىٰ 30 كتابًا منها:" تاريخ المذاهب الإسلامية"، و" العقوبة في الفقه الإسلامي"، و" الجريمة في الفقه الإسلامي"، و" علم أصول الفقه"، و" محاضرات في النصرانية"، و" زهرة التفاسير"، و" مقارنة الأديان".

اشتهر الشيخ " أبو زهرة" بالفكر الحر والشجاعة الفائقة في عرض قضايا الإسلام، وقد صدع بالحق في مواقف كثيرة" إذ استدعاه يومًا حاكمًا مستبدًا، لا يقوىٰ علىٰ الرأي الآخر، وقد زج هذا المستبد بالمخلصين في غياهب السجون وشرد البعض، وعزل البعض الآخر عن تولي المناصب، ومنهم أستاذنا أبو زهرة، قال له:" إنك

إقطاعي رجعي تؤلف الكتب وتتاجر بها"، فكان الرد الحاسم من الشيخ:" هي مؤلفات كتبتها لله، ولم تفرض على أحد، ولم تتولَّ الدولة توزيعها قهرًا على المكتبات ودور الثقافة الحكومية لتسجن في الرفوف دون قارئ، وليكسب أصحابها من مال الدولة مالا يحله الله" فبهت الذي ظلم وادَّعىٰ؛ لأنه كان في مغرب حكمه بعد أن ابتلي بهزيمة نكراء.

وقع خلاف حاد بين الشيخ ونفس هذا الحاكم حول ما ذهب إليه الميثاق في شأن "الاشتراكية العلمية"، ورأي الشيخ فيها "المبادئ الشيوعية"، وكان خلاف آخر قد وقع حول مشروع القانون 103 لسنة 1961، الخاص بإعادة تنظيم الأزهر والهيئات التابعة له. وقال الشيخ: إنه ليس ضد أي إصلاح، ولكن الأزهر صانع الثوار والثورات، هل من المنطق أن يدبر أمره في ليلة واحدة؟ وسرد عددًا من عهود الإصلاح، وأشار إلىٰ عهد الإصلاح الذي ابتدأه الإمام الشيخ محمد عبده وغيره، وإلىٰ ما اقترحه أحمد فتحي زغلول من إدخال دروس الرياضة والجغرافيا، ولكن بكميات قليلة، ثم أرسىٰ الشيخ مقولته وهي أن" كل إصلاح للأزهر يجب أن يكون مشتقًا من رسالته"، ومن ثم رأىٰ أن يقوم الأزهر بتثقيف الأطباء والمهندسين بالثقافة الدينية، واقتراح أن يلتحق الحاصلون علىٰ المؤهلات العليا من الجامعات وغيرها بالأزهر، وتوضع لهم مناهج خاصة لتثقيفهم دينيًا، ولم يرَ الشيخ إنشاء كليات للطب والهندسة والعلوم، وصدرت قرارات مختلفة بحرمانه من التدريس في الجامعة، وإلقاء الأحاديث العامة، وأغلقت أمامه أبواب التليفزيون والإذاعة والصحف، وانتهىٰ بهم الأمر إلىٰ أن قيدوا حريته في بيته، وحدث أن شارك في مناقشة رسالة دكتوراه في جامعة الأزهر للمرحوم الدكتور حسن صبري الخولي عن المسألة الفلسطينية، وبصراحة الشيخ المعهودة فيه قال:" إن الرسالة عبارة عن بعض التقارير الخاصة برئاسة الجمهورية، وإن الطالب لم يكلف نفسه حتىٰ بجهد ترتيب الصفحات، أو حتىٰ إصلاح الأخطاء اللغوية الفادحة"، وهمس أحدهم في أذن الشيخ بأن الطالب هو الممثل الشخصي لرئيس الجمهورية، فصاح أبو زهرة:" متحدث رسمي.. ممثل شخصي.. تلك مسميات في مكتب رئيس الجمهورية لا دخل لنا بها".

قال عنه الشيخ الباقوري: «مع اختلافي في الرأي مع الإمام أبي زهرة فإنني وأنا وزير للأوقاف، عندما استشكل علىٰ موضوع فقهي، واحتجت فيه إلىٰ الفتوىٰ لم ألجأ إلا للإمام أبي زهرة، وعلىٰ الفور يجيب لنا ومن الذاكرة علىٰ الفتوىٰ، ذاكرًا المصادر التي استند إليها وبيان أوجه الاختلاف، بالإضافة إلىٰ تأجيل كل ما يذكر، وبحق كان العلم يتدفق منه».

وظل أبو زهرة متمسكًا بكل آرائه الدينية والاجتماعية والسياسية إلىٰ أن رحل في 11 أبريل سنة 1974م. رحم الله الشيخ محمد أبو زهرة الغاضب لما يعتقد أنه الحق.

الدكتور نجيب الكيلاني في ذكراه العشرين

مرت الذكرىٰ العشرون لرحيل الأديب الدكتور نجيب الكيلاني دون أن يتم تسليط الضوء الكافي عليه مما يتلائم مع مكانته وما تركه من كم هائل من الرواية والقصة القصيرة والكتب التي نظرت للأدب الإسلامي، وكتب أخرىٰ تناولت الفكر الإسلامي الراهن، وأخرىٰ تعرضت لمجاله وتخصصه الرفيع وهو مجال الطب، ويعد الكيلاني من الرواد الذين نظروا للأدب الإسلامي موضوعًا وتطبيقًا من خلال أعماله، وقد تعرض الكيلاني خلال هذه الرحلة للعديد من المضايقات والمطاردات والسجن والتعذيب، ومع ذلك لم يفُتّ في عضد هذا الرجل الصلب المدافع عن فكرته ومبادئه وأطروحاته، وما هي إلا سنوات حتىٰ ذاعت فكرته، وتلقفها الناس في كل مكان، وأصبح الأدب الإسلامي هو المأوىٰ لكثير من الأدباء والنقاد، وقد أهملت الدولة عبر مؤسساتها الثقافية الاهتمام بذكرىٰ نجيب الكيلاني؛ لأن هذه الهيئات يسيطر عليها تيار يساري يكره الفكرة الإسلامية والإسلام، ويقصي كل من يقترب منها، علمًا بأنه طبقت شهرته الآفاق خارج مصر في الدول العربية والإسلامية، فقد أجريت حوله الدراسات والأطروحات الجامعية التي تناولت أدبه وفكره؛ لأنه جعل عالمه الإسلام الذي يدعو إلىٰ الوحدة والاعتصام بحبل الله، وقد تخطىٰ حدود وطنه ومشكلاته وهمومه إلىٰ هموم العالم الإسلامي، فتحدث عن هموم المسلمين في كل مكان من خلال الرواية والقصة والمسرحية الإسلامية، فتناول مشكلاتهم في نيجيريا من خلال رواية "عمالقة الشمال"، ومشكلاتهم في أواسط آسيا في روايته" ليالي تركستان"، ومشكلاتهم في إندونسيا في رواية " عذراء جاكرتا"، وفي أثيوبيا في رواية" الظل الأسود"، وآخر أعماله" سرايفو حبيبتي" وفيها يتعرض لمشكلات المسلمين في البوسنة والهرسك الذين كانوا يتعرضون لتطهير عرقي من قِبَل الصرب "خنازير أوروبا" بمساندة المجتمع الدولي من خلال منظماته كالأمم المتحدة ومجلس الأمن الذي بارك هذه المجازر الصليبية الرهيبة.

والدكتور نجيب الكيلاني طبيب ضل طريقه إلىٰ احتراف الأدب مثل غيره من

الأطباء الأدباء علىٰ رأسهم: الدكتور مصطفىٰ محمود الذي كتب في بدايه حياته عددًا من القصص والروايات والمسرحيات قبل أن يتفرغ تمامًا للفكر بعد ذلك، ومنهم الدكتور يوسف إدريس مع الفارق في التناول الأدبي لموضوعاته، والدكتور صلاح عدس، والدكتور محمد الجوادي، لولا أن نجيب الكيلاني يختلف عن هؤلاء بأنه وازن بين عمله كطبيب وأدبه وفكره، فتميز في كل هذه المجالات.

وقد ولد الدكتور نجيب الكيلاني في أول يونيو عام 1931م بقرية شرشابة مركز زفتىٰ بمحافظة الغربية، في أسرة متوسطة تحدث عنه باستفاضة في مذكراته، وتحدث فيها عن قريته شرشابة وأنماط السكان والشرائح الاجتماعية فيها كما تعداها إلىٰ القرىٰ المحيطة بها كقرية سنباط وميت بدر حلاوة وغيرها، وفي سن الرابعة أدخل مكتب تحفيظ القرآن، حيث تعلم القراءة والكتابة والحساب، وقدرًا من الأحاديث النبوية وسيرة الرسول ﷺ وقصص الأنبياء وقصص القرآن، التحق بالمدرسة الأولية، وسهل عليه هذا كلها استيعاب المعارف عندما انتقل إلىٰ مدرسة الإرسالية الأمريكية الابتدائية بقرية سنباط التي تبعد عن قريته خمسة كيلو مترات كان يقطعها مشيًا علىٰ الأقدام ذهابًا وإيابًا، وكان هذا الزاد مصلًا ضد الأفكار المارقة التي كانت تسود التعليم في هذا الوقت من التركيز علىٰ أسوأ ما عند الغرب من معلومات وأفكار، نشأ في أسرة تعمل بالزراعة، وكان منذ صغره يمارس العمل مع أبناء الأسرة في الحقول، وقضىٰ المرحلة الثانوية في مدينة طنطا عاصمة محافظة الغربية، ثم التحق بكلية طب القصر العيني (جامعة القاهرة) عام 1951، وفي السنة الرابعة بالكلية، وبالتحديد سنة 1955قدم للمحاكمة في إحدىٰ القضايا السياسية وحكم عليه بالسجن عشر سنوات، وفي تلك الفترة جمع ديوانه الشعري الأول "أغاني الغرباء"، وكذلك كتب رواياته الأولىٰ الطريق الطويل داخل السجن، كتبها في ثلاثة أسابيع وقدمها إلىٰ مسابقة أجرتها وزارة التربية والتعليم، وفاز بالمركز الأول عام 1957، والعجيب أنهم سمحوا له بالخروج من السجن ليتسلم الجائزة التي قررتها وزارة التربية والتعليم علىٰ الصف الثاني الثانوي سنة 1959، بعد أن قدم لها الوزير اللامع الوطني فتحي رضوان.

وبعد تخرجه عمل بوظيفة "طبيب امتياز" في مستشفىٰ أم المصريين بالجيزة عام 1961م، ثم طبيبًا ممارسًا بقريته شرشابة، ثم انتقل ليعمل في وزارة النقل والمواصلات، وتسلم عمله في القسم الطبي بهيئة السكك الحديدية، ثم سافر إلىٰ دولة الكويت ليعمل طبيبًا هناك، وذلك في اليوم الحادي والثلاثين من شهر مارس 1968م، ثم انتقل منها إلىٰ دولة الإمارات العربية، وقضىٰ بها ما يقرب من ستة عشر عامًا.

كان نجيب الكيلاني مغرمًا بالقراءة منذ صغره، وقد حفزه علىٰ هذا عمه عبد الفتاح الذي يقول عنه الكيلاني في كتابه لمحات من حياتي الجزء الأول:" كنت منكبًّا علىٰ كتب المنفلوطي (النظرات، والعبرات، وماجدولين) وكتب الرافعي (وحيٰ القلم، والمساكين، وأوراق الورد) ودواوين شوقي ومسرحياته، والقليل من مؤلفات طه حسين وبعض كتب التراث، وكنت آخذ بعض هذه الكتب بعد أن كبرت فأحاول القراءة فيها فأفهم البعض ولا أستطيع استيعاب البعض الآخر، وكنت ألجأ إليه أحيانًا ليشرح لي ما غمض، لقد كان عمي المورد الأول لثقافتي وهو الذي أخذ بيدي إلىٰ التزود من الثقافة العامة، وكان لا يبخل عن الكتب بمال" .

وكذلك عرف طريقه إلىٰ المجلات الأدبية التي كانت تصدر في هذا الوقت منها: الرسالة، والثقافة، والمقتطف، والأزهر، والهلال، وتعرف إلىٰ كبار الأدباء في هذا التوقيت مثل سيد قطب، والعقاد، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، ومحمود محمد شاكر، وكان يسعىٰ إليهم في ندواتهم الأسبوعية وصالوناتهم الأدبية.

التنظير للأدب الإسلامي:

يعرف الدكتور جابر قميحة الأدب الإسلامي بأنه" الأدب الشعري والنثري الذي يلتزم القيم الإنسانية، ويعمل علىٰ خلق بناء قويٍّ متين، يُراعي هذه القيم في مجال السياسة والاجتماع والتربية وغير ذلك، وهذا تعريف إيجابي، وهناك ما نستطيع أن نسميه بالتعريف السلبي أو" التعريف الرافض" والمقصود به الأدب الذي يرفض في قوة كلَّ ما يخالف القيم الإسلامية والإنسانية".

وقد جمع الدكتور نجيب الكيلاني بين التنظير والتطبيق، للأدب الإسلامي، فلم يغفل القياس علىٰ المذاهب الفنية الأخرىٰ، مثل الكلاسيكية والرومانسية، وله من

رواياته ونظرياته خمسة كتب كاملة عن مفهوم الأدب الإسلامي، منها:" المدخل إلى الأدب الإسلامي" و"الإسلامية والمذاهب الأدبية" وغيرهما، وفيها يوضح علاقة الأدب بالدين، ومفهوم الالتزام الإسلامي، والمقارنة بين المذهب الإسلامي وغيره.

وتحدث الكيلاني عن الأدب الإسلامي قائلًا:" من حسن الحظ أن الإسلام لم يحدد (شكلًا) فنيًّا معينًا يلزمنا به، بحيث ندور في إطاره، فلا نتعدى رسومه، وإنما حدود الإسلام (المضمون) أو الفكر الذي يتناوله الفنان في الشكل الذي يختاره. فالإسلام يختلف عن غيره من الفلسفات الإنسانية، فمن الفلاسفة من يرى أن الإنسان طبيعته الشر، وأن الأصل في الحياة الكذب والنفاق والجبن، ومن الفلاسفة من يرى أن الفن غاية في حد ذاته وليس وسيلة لبلوغ أي هدف، وهم دعاة "الفن للفن". أما الفنان المسلم فله فهمه الشامل للحياة والإنسان، وله إيمانه بأن الفن وسيلة لبلوغ غاية عظمى، ألا وهي تكوين (الوجدان) المشبع بروح الحق والخير والحب، والفن الإسلامي لا يختار نماذجه من أمثلة الخير والحب والفضيلة وحدها، بل يقدم شتى النماذج خيِّرها وشريرها، عاليها وسافلها، وإلا انعدمت الحركة الفنية، والصراع النفسي، إنها معاناة أصيلة نابضة، تبعث في نفسه لونًا من ألوان (القلق) العظيم، وتحرمه الإخلاد للكسل والسلبية والأنانية، وهذا هو الفن العظيم، وعالم الأدب والفن الإسلامي علم فسيح رحب، يستوعب التجارب الأسطورية والتاريخية والواقعية المعاصرة، ويجول في أنحاء الشرق والغرب، ويبرز التجارب المحلية والعالمية، ويرتبط بقضايا المسلمين في شتى أنحاء المعمورة خاصة. أدب معقول.. وأدب مرفوض"

نجيب الكيلاني روائيًا:

قدم الدكتور نجيب الكيلاني عددًا كبيرًا من الروايات والقصص القصيرة، وهي غالبًا محمومة بالتصوُّر الإسلامي وصادرة عنه، ومن خلال هذا الإنتاج القصصي الغزير استطاع أن يقدِّم النموذج الإسلامي في الرواية والقصة، ويرى الدكتور حلمي محمد القاعود أن إنتاجه مر بأربع مراحل أو مستويات:

أولها: ويمثِّل" الرواية الرومانسية"، ويضم العديد من رواياته، وقد عبّر من خلالها عن هموم النَّاس والعلل الاجتماعية المتفشية بينهم، مثل الفقر والجهل

والأمراض المتوطنة والسلبية والتخلف، ومزج ذلك بالعواطف المشبوبة والخيالات الحالمة والآمال المجنّحة، ويمكن أن نرىٰ أمثلة علىٰ ذلك من رواياته: " الطريق الطويل"، و" الربيع العاصف"، و" الذين يحترقون"، و" في الظلام"، و" عذراء القرية"، و" حمامة سلام"، و" طلائع الفجر"، و" ابتسامة في قلب الشيطان"، و" ليل العبيد"، " حكاية جاد الله".

وثانيها: ويمثِّل " الرواية التاريخية"، التي تستلهم السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بصفة عامة، وقد استدعىٰ التاريخ واستلهمه ليقدِّم النماذج الإنسانية المشرقة من حضارتنا، ويرصد جهاد الآباء في شتىٰ جوانب الحياة، دفاعًا عن الدّين وسعيًا لتأسيس مجد غير مسبوق، وفي بعض الأحيان كان يستدعي التاريخ ليعالج من خلاله قضايا راهنة أصابت الأمّة بالإحباط واليأس، ويوقظ به الأمل في نفوس الأجيال الجديدة عن طريق إحياء الهمّة وبعث العزيمة والإصرار، وفي كل الأحوال فإنّ استلهام التاريخ في الرّواية عند " نجيب الكيلاني"، كان إبرازًا لمعطيات الإسلام العظمية، وإمكاناته الهائلة في تحويل الإنسان المسلم إلىٰ صانع حضارة، وباني مجدٍ، وجندي ظافر في معاركه ضد الشرّ والتوحُّش، ويمكن أن نجد عددًا كبيرًا من رواياته التي عبَّرت عن ذلك، مثل: " نور الله"، و" قاتل حمزة"، و" أرض الأنبياء"، و" دم لفطير صهيون"، و" مواكب الأحرار" (أو نابليون في الأزهر)، و" اليوم الموعود"، و" النداء الخالد"، و" أرض الأشواق"، و" رأس الشيطان"، و" عمر يظهر في القدس".

وثالث هذه المراحل: ويمثِّل الرواية التي يمكن أن نسميها بـ" الرواية الاستشرافية" التي عبَّر فيها عن هموم المسلمين خارج حدود العالم العربي (دول آسيا الوسطىٰ التي كانت أو ما زالت تحت الستار الحديدي الشيوعي من الاتحاد السوفيتي والصين- إثيوبيا- إندونيسيا- نيجيريا)، واستطاع أن يكشف للعالم مأساة داميةً أصابت ملايين المسلمين المنسيين الذين لا يتحدَّث عنهم أحد إلاّ نادرًا، ولا يعرف عنهم المسلمون في العالم العربي إلاّ القليل، وفي الوقت ذاته توقَّع انتصارهم وتحرّرهم، وهو ما حدث بالفعل في أكثر من مكان وبخاصة في الدول الإسلامية التي

استقلّت أو تحاول الاستقلال بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وتعدّ رواياته:" ليالي تركستان"، و" الظل الأسود"، و"عذراء جاكرتا"، و" عمالقة الشمال"، من أشهر رواياته في هذا الإطار.

ورابعها: ويمثّل الرواية عند نجيب الكيلاني في المرحلة الراهنة، وهي التي نُطلق عليها " الواقعية الإسلامية"، ويعبّر فيها عن القضايا الاجتماعية التي تهمّ جموع المستضعفين في الوطن، ويبرز فيها ما يلقاه النَّاس من ظلمٍ وقهرٍ واضطهاد، ويتخذ من تفاصيل الحياة اليومية والاجتماعية عناصر أساسية يرتكز عليها في بناء هذه الروايات، وأيضًا فإنَّه يطرح عبر سطورها رؤية الجيل الجديد للأحداث، وموقفه من قضايا الحرية والعدل والأمن والرخاء والمستقبل، وتُعدُّ روايات الأربع أو رباعيته التي أنتجها علىٰ مدىٰ عامين تقريبًا، ونشرت علىٰ مدىٰ شهورٍ متقاربة- وهي: "اعترافات عبد المتجلي"، و" امرأة عبد المتجلي"، و" قضية أبو الفتوح الشرقاوي"، و" ملكة العنب" - من أفضل النماذج وأبرزها في الدلالة علىٰ هذا الإطار.

وقد تعرض الدكتور حلمي القاعود لهذا النمط الأخير في كتابه الأشهر " الواقعية الإسلامية في أدب نجيب الكيلاني"، أوضح فيه أن الواقعية الإسلامية تختلف عن الواقعية الأوروبية والواقعية الاشتراكية، وبين القاعود أن الواقعية الأوروبية واقعية نقدية تعنىٰ بوصف التجربة كما هي، حتىٰ لو كانت تدعو إلىٰ تشاؤم عميق لا أمل فيه، في حين تحتّم الواقعية الإسلامية أن يثبت الكاتب في تصويره للشرّ دواعي الأمل في التخلُّص منه فتحًا لمنافذ التفاؤل حتىٰ في أحلك المواقف، ولو أدَّىٰ إلىٰ تحريف الموقف بعض الشيء. أمَّا الواقعية الإسلامية، فإنَّها- مع انتقادها للواقع - تنطلق في انتقادها من التصوُّر الإسلامي الذي يكون دائمًا منصفًا، فلا يبالغ ولا يهوّل، أيضًا لا يتحامل بسبب المغايرة في الانتماء، ولا يحبّذ الصراع بين الطبقات كما يبتغي الواقعيون الاشتراكيون، فضلًا عن أنَّ الأمل في الواقعية الإسلامية، هو أمل إيماني يقوم علىٰ أساس نُصرة الحقّ في كل الأحوال، حياة وموتًا. إنَّها باختصار ترفض التشاؤم كما ترفض التفاؤل الذي يقوم علىٰ الخداع أو التزييف، ثم إنَّها تستقي مادتها

من الحياة الاجتماعية، ومشكلات العصر علىٰ إطلاقها، وتختار شخوصها من عامة المجتمع وجميع طبقاته؛ لأنَّها تعتقد بأنَّ الخيرَ والشرَّ ليسا قاصرين علىٰ طبقة بعينها، ولكنَّهما موجودان في النفس البشرية، أيًا كانت طبقتها أو انتماؤها الطبقي، وأنَّ الإنسان يمكن أن يكون خيّرًا أو شرّيرًا وفقًا لاختياره، وعوامل أخرىٰ مؤثِّرة في هذا الاختيار من قبيل التربية والتوجيه والقدوة والظروف المحيطة.. إلخ. لذا؛ فإنَّ الطبقة ليست هي العنصر الحاسم في الصراع بين الخير والشرِ، وإنَّما الإرادة الفردية ومكوناتها، وهو ما يتسق مع التصوُّر الإسلامي: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [سورة الشمس: 10،7].

وتميز أدب نجيب الكيلاني- دون مغالاةٍ- عن غيره من المعاصرين بأنه أدبٌ متميزٌ من ناحية، وفائقٌ من ناحية أخرىٰ، فهو يتفرد بسلامة اللغة، وهي مهمة؛ لأن اللغة هي عِرْض الأمة الدالّ علىٰ هويتها، ولا هوية لمن لا عرض له، وبراعة التصوير، وهو في منهجه التصويري يكاد يقترب من الواقع، فهو في تصويره لا يجنح إلىٰ الصور الشاردة والخيال المسرف المحلق بلا معقولية، أي نستطيع أن نقول إن منهجَه التصويري هو المنهج الوسطي بين المثالية الخيالية والرومانسية العقلانية، وقوة الوجدان أو الطاقة الروحية، وهو مع ذلك يجنح إلىٰ الوسطية، فلا نعثُر له علىٰ عاطفة ملتهبة ووجدان متوهِّج، ولكنها- كما قلت سابقًا- الوسطية والمعقولية، وهو منهج لا يعيب صاحبه، بل يقف في صفِّه؛ لأن المهم أن يكون المبدع مخلصًا في منهجه ولمنهجه، بعيدًا عن الشطط والإسراف. والتماسك والتلاحم في صدقٍ بين عناصر الإبداع الفني مما يقرِّب إبداعَه من المنهج التكاملي في الفن، وقوة العقيدة، وهذا ما تعنيه بسؤالك عن تأثير الفكرة الإسلامية علىٰ أدبه، فكان هذا هو الجانب الذي ينهل منه أي من عقيدته ودينه؛ ليصبَّ في النهاية في أدبه ويجعله علىٰ رأس قائمة الأدباء الإسلاميين.

وقد كتب الكيلاني في عدد من الدوريات، وقد تنوعت هذه الكتابات، بين المقال الأدبي، والفكري، والقصة القصيرة، والشعر، وقد نُشرت أعمال الكيلاني في المجلات الآتية: الأدب، والثقافة، والاعتصام، والقصة القصيرة، والأمة القطرية،

والمجتمع الكويتية، والاتحاد، ومنار الإسلام بالإمارات، والمنهل السعودية، والشهاب البيروتية، والمختار الإسلامي، وجريدة المسلمون، والكواكب، وغيرهما كثير...

فارس الجوائز:

علىٰ مدار مشواره الطويل فاز نجيب الكيلاني بالعديد من الجوائز التي تقدره، فقد كانت الهيئات الثقافية في هذا الوقت لم تتلوث مثلما هو الحادث الآن حيث تعاني اليوم من عنصرية بغيضة تجاه الآخرين ممن ليسوا علىٰ شاكلة الماركسيين الذين يتحكمون في كل شيء في الإعلام ويدعون إلىٰ قتل وإبادة الآخرين والتحريض عليهم طوال الوقت، أما أيامه فكنت ترىٰ الشرقاوي الشيوعي يجلس مع السحار دون أدنىٰ حساسية، وعندما يلتقيان يتعانقان، أما اليوم فنجد النخبة المصرية تدعو إلىٰ الإبادة والتطهير العرقي لخصومهم ومخالفيهم، وقد كتب روايته الأولىٰ" الطريق الطويل" التي فازت بجائزة وزارة التربية، ونشرتها وزارة الثقافة والإرشاد آنذاك، وقدمها له وزيرها المرحوم فتحي رضوان، ثم قررت علىٰ الصف الثاني الثانوي في عام 1959، وفي المسابقة نفسها فاز بجائزة التراجم والسير عن كتابه" إقبال الشاعر الثائر" 1957.

وفي عام 1958 فاز مرة أخرىٰ بعدد من جوائز وزارة التربية والتعليم، ففي مجال الدراسات النفسية والاجتماعية فاز كتابه" المجتمع المريض" وهو دراسة متميزة عن مجتمع السجون، وفي مجال التراجم والسير فاز كتابه" شوقي في ركب الخالدين"، وفي مجال الرواية فازت قصته" في الظلام"، كما فاز بجائزة مجلة الشبان المسلمين في مسابقة القصة القصيرة التي أعلن عنها عام 1957، وكانت الجائزة خمسة جنيهات مصرية كاملة في عام 1959م، فاز بجائزة القصة القصيرة لنادي القصة القصيرة" اتحاد الكتاب" والميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين، كما فاز في العام التالي بجائزة المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والأدب عن روايته" اليوم الموعود" والتي قررت علىٰ طلبة المرحلة الثانوية عام 1960م، وأخرجت مسلسلًا إذاعيًا 1973م بإذاعة الكويت، وقد أعدت كمسلسل تلفزيوني (إنتاج ليبي مشترك) لتعرض في شهر رمضان 1414هـ تحت اسم" ياقوتة ملحمة الحب والسلام"، والرواية تدور أحداثها

حول الحروب الصليبية أيام الملكة شجرة الدر، ونال جائزة مجمع اللغة العربية في أوائل السبعينيات عن روايته" قاتل حمزة" التي تعرض قضية الحرية عرضًا دراميًّا من خلال التصور الإسلامي، وحولت روايته" ليل وقضبان" إلىٰ فيلم سينمائي، وقد نال الفيلم الجائزة الأولىٰ في مهرجان" طشقند" الدولي، ونال ميدالية العلامة الفيلسوف الشاعر محمد إقبال الذهبية، مهداة من الرئيس الشهيد ضياء الحق، في الذكرىٰ المئوية للشاعر بسبب كتاباته الكثيرة عن هذا المفكر الإسلامي الكبير الذي دعا إلىٰ إنشاء دولة باكستان.

وراء كل عظيم امرأة:

تزوج الدكتور نجيب بالأديبة كريمة شاهين ابنه الشيخ محمود شاهين أحد علماء الأزهر الأجلاء، وقد تزوجا في عام 1960، وأنجبا أربعة من الأبناء، وقد بارك الله فيهم، ووصلوا إلىٰ درجات علمية رفيعة، بفضل التربية المثالية، وقد تعرف إلىٰ أسرة زوجته في وقت مبكر في منتصف الخمسينيات، وقد ساعدته الزوجة قبل أن يتزوجا بأن بيَّضت مسودة بحثه عن (إقبال الشاعر الثائر) ونسخت منه نسختين وقدمته إلىٰ وزارة التربية والتعليم قسم التراجم، ومن حسن الطالع أن فاز البحث بالمركز الأول، وفرحت كريمة التي كانت في الصف الأول الثانوي في هذا التوقيت، وذهبت إلىٰ السجن وبشرته بالفوز، وكان هذا حافزًا لخطبتها بعد خروجه من السجن وتزوجا في العام 1960م، كما أشرنا.

وقد وفرت له الزوجة الحنان المغدق والجو الهادئ، ونظمت له المواعيد، وكانت تراجع له كتبه ورواياته ومقالاته، وتنسخها علىٰ الآلة الكاتبة التي تعلمتها في ثلاثة أيام من زميلة لها، وفي هذا تقول:" كان يكتب ولا يراجع، فكنت أقوم بالمراجعة وراءه، وأكتب ما يسطره علىٰ الآلة الكاتبة، وأفعل ما أستطيع لأوفر له الجو المناسب للكتابة، فلا صوت يعلو ولا ضوضاء حوله، حتىٰ الحلاق كنت أستدعيه ليحلق له في البيت، وحرصًا علىٰ وقته كنت آخذ حذاءه وأشتري له مثله، وكذلك بدله وقمصانه وملابسه، كما كنت أقود له السيارة بنفسي في دبي، ويراني الدكتور مصطفىٰ محمود صاحب برنامج" العلم والإيمان" الشهير، فيتعجب ويقول

لنجيب:" إيه ده يا نجيب" فيرد عليه: حاولت يا دكتور مصطفىٰ، فشرد ذهني وطلعت علىٰ الرصيف. وكنت أعتبر نفسي سكرتيرته الخاصة أدون يوميًا أجندته ومتطلبات أعماله فضلًا عن تهيئة البيت لضيوفه وزواره، وكنت أقول له إذا أردت أن تعزم أحدًا علىٰ الغداء يكفيني أن تتصل بي قبل الغداء بساعتين، فيفعل، ويأتي وضيوفه فيجدوا ما لذ وطاب من الطعام، فيقول لي بعد أن ينصرفوا: أنت حقًا اسم علىٰ مسمىٰ".

وقد خلدت الزوجة الأديبة ذكره، وكتبت عنه العديد من الأبحاث والكتب منها: "آخر حوار مع نجيب الكيلاني" و" نجيب الكيلاني كما عرفته" و" الإمارات في أدب نجيب الكيلاني"

النهاية:

عاد الدكتور نجيب الكيلاني إلىٰ مصر بعد أن أمضىٰ في الغربة 24 عامًا، عاد إلىٰ مسقط رأسه الذي لم يفارقه علىٰ الإطلاق، وقد كان مسرحًا للعديد من رواياته وقصصه ومسرحياته، عاد ليخوض معركته الأخيرة مع مرض سرطان البنكرياس، الذي لم يستمر معه أكثر من ستة أشهر، وكان طوال هذه الفترة صابرًا محتسبًا، وكان لا يشعر أحد ممن حوله بمعاناته، وكان أمله في الله قويًا جدًا حتىٰ آخر لحظة، وقد كان مستعدًا للقاء الله راضيًا بقضائه، ذاكرًا الله في كل لحظة حتىٰ آخر رمق في حياته، وكان يرتل القرآن في غيبوبته. وقد لقي بعدها ربه بعد عيد الفطر المبارك بيوم واحد، في شوال 1415 هـ – مارس 1995م .

قالوا عنه:

قال نجيب محفوظ في مجلة المصور عدد أكتوبر عام 1989:" إن نجيب الكيلاني هو منظّر الأدب الإسلامي الآن"؛ ذلك لأن مقولاته النقدية، وأعماله الروائية والقصصية تشكل ملامح نظرية أدبية لها حجمها وشواهدها القوية، التي عززتها دراساته حول" آفاق الأدب الإسلامي" و" الإسلامية والمذاهب الأدبية"، و" الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق" و" مدخل إلىٰ الأدب الإسلامي"، و" تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية".

أبوالحسن الندوي:

"... إن حياة الدكتور نجيب الكيلاني حافلة بالعطاءات الأدبية، وقد خلّد بقلمه

آثارًا قيِّمة نالت الاعتراف من رجال الفن والأدب، وغطّتْ أعماله جميع أقسام الأدب، فقد كان كاتبًا قصصيًّا، له اتجاه خاص في القصة، ولم يكن الكاتب كالأدباء الآخرين مصورًا لواقع الحياة، وإنما كان معالجًا ومحللًا لقضايا الحياة، وكانت كثير من قصصه مستوحاة من واقع الحياة التي عاشها الأديب أو عايشها، ثم كان الكيلاني شاعرًا له مكانة معروفة في مجال الشعر، وألَّف كذلك في النقد والدراسات الأدبية، كما أسهم في كتابة السيرة الذاتية وشرح فكرة (الأدب الإسلامي) وتصوّره، وبذلك كان بحق من روّاد الفكر الإسلامي المعاصر والمنظّرين المبدعين لفكرة الأدب الإسلامي."

د. جابر قميحة:" الكيلاني لديه إحساس عميق بتكثيف الجمال الفني المرتبط بالغموض أحيانًا في بعض أعماله، إلا أنه لا ينسىٰ مسئوليته تجاه القارئ، وخوفه من أن يقع في براثن الفهم الخاطئ، فتراه في كل أعماله ينبض بخيوط الوعي المتيقظ، التي تجعل من كتاباته الروائية متعة خاصة وفنًا مكتملًا. كما استطاع الكيلاني ـ رحمة الله ـ أن يوظف كثيرًا من آليات الفن القصصي في شعره، فاستخدم الرمز والقناع والحوار والسرد والتعبير المتلاحق، والارتداد (بالإنكليزية: flashback) (تذكّر الماضي والرجوع للوراء) والمفارقة، واللقطات المقتطعة من خلال الأشكال والمضامين التعبيرية المتفردة".

صلاح عدس:" رائد القصة الإسلامية تنظيرًا أو تطبيقًا، كتب كمًّا هائلًا من الأعمال التي تتناول الفكرة الإسلامية في مضمونها وموضوعاتها، أما بالنسبة للمضمون فيصور فيها الرؤية الإسلامية لله والكون والإنسان والحياة، أما بالنسبة لموضوعاتها فتصور حياة المسلمين في كل أرجاء العالم الإسلامي ومعاناتهم وأشواقهم الروحية، فهو بذلك رائد للرواية الإسلامية، وربما لهذا السبب لم يلقَ الاهتمام الكافي والتقدير الذي يستحقه؛ لأن الذين سيطروا علىٰ الإعلام والثقافة طوال ستين عامًا كانوا حفنة من أدعياء العلمانية والماركسية الذين طبلوا وهللوا وزمروا لشلتهم من أمثال يوسف إدريس ونجيب محفوظ ممن كتبوا علىٰ طريقة الواقعية الاشتراكية أو الواقعية المخزية، وهي التي يطلقون عليها في الغرب "

الطبيعية" التي تبرز العري والشذوذ والانحراف وتمتلئ بالمخمورين والسكارئ والعاهرات. ولقد التقيت به مرة في مطلع حياتي منذ 55 عامًا، وبالتحديد سنة 1960، وكنت وقتها طالبًا في كلية الطب وأسعىٰ للتعرف إلىٰ الأعلام والشوامخ في الأدب والفكر والثقافة، واشتكىٰ لي من اضطهاده المستمر من قبل الإعلام والصحافة والنقاد الذين يبرزون من يخاصم الفكرة الإسلامية".

د. حلمي محمد القاعود:" نجيب الكيلاني كان فريدًا في فك الفضاءات المكانية والمجالات الزمانية في أعماله عبر احترافه وحفاوته بالتحليل الدقيق والمنمنمات، واستطاع أن يملأ الساحة بالبديل الصحيح؛ حيث يعتبر أغزر الكُتّاب إنتاجًا علىٰ الإطلاق، بينما يأتي" نجيب محفوظ" والسحّار في المرتبة الثانية من حيث الكم!"

د. محمد حسن عبد الله:" كل إنتاج الكيلاني ذو هادفية مؤمنة، وعمق وشفافية متصوفة تبدو كومض الخاطر بين السطور، وهو جاد وعميق ومؤثر، ومتصل أوثق الاتصال بروح هذا الشعب، ويملك التأثير في حياة قومه الذي كان واحدًا من أفذاذها المتفردين."

الدكتورة سعاد ماهر.. راعية الآثار الإسلامية

يزايد المغرضون علىٰ عدم أخذ المرأة لحريتها في بلادنا، رغم وجود نماذج ناصعة تبدد مزاعمهم المريضة، فقد ولجت المرأة في بلادنا كل المجالات، وبرعت فيها، ومن هذه النماذج الدكتورة بنت الشاطئ التي بزت أقرانها في العلوم العربية والشرعية، وخلفت العديد من الكتب والأبحاث، والدكتور سميرة موسىٰ عالمة الذرة الشهيرة التي لقيت مصرعها أثناء عودتها من أمريكا؛ لأنها فضلت مصلحة الوطن علىٰ المغريات التي عرضت عليها، ومنهم الدكتورة سعاد ماهر (موضوع مقالنا) عالمة الآثار الإسلامية المشهورة، التي لها جهودٌ عظيمة في العناية بها في التأليف والتدريس والإشراف علىٰ ترميمها، وتعهدها لمعظم الباحثين في هذا المجال بالرعاية والإرشاد، ومن أشهر ما خلفت كتابها الموسوعة " مساجد مصر وأولياء الله الصالحين"، وكانت أول سيدة في العالم حصلت علىٰ الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ونشرت لها الصحف والمجلات مئات البحوث الهامة والمقالات العلمية في الآثار الإسلامية وتخصصت في الكتابة عن مساجد مصر وأوليائها والمزارات الإسلامية.

ولدت الدكتورة سعاد ماهر في 29 أغسطس 1917، تخرجت في كلية الآداب 1946، ثم حصلت علىٰ الدكتوراه في الآثار الإسلامية من جامعة القاهرة سنة 1954م، تحت إشراف العالم الكبير الدكتور زكي محمد حسن، وكان موضوع الرسالة" المنسوجات المصرية في عصر الانتقال من الفتح الإسلامي وقيام الدولة الفاطمية"، وقد عينت عميدة كلية الآثار بجامعة القاهرة من 1974م- 1977م، ثم أعيرت لكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، أستاذًا للدراسات العليا منذ 1977-1985م.

كان لها الفضل في الإشراف علىٰ الحفائر منها: حفائر كلية الآثار- قسم الآثار الإسلامية- بمنطقة الفسطاط خلال ثلاثة مواسم متتالية بين عامي 1973-1975م، وحفائر كلية الآثار بالجبانة القبطية بسقارة لمدة موسمين 1976-1977، ونشرت نتائج الحفائر في مجلة كلية الآثار- جامعة القاهرة عام 1977م ، وحفائر كلية الآثار

بمنطقة بطن أهريت بمحافظة الفيوم لمدة موسمين 1975-1976م، ونشرت نتائج الحفائر في مجلة كلية الآثار- جامعة القاهرة عام 1978م.

وقد أشرفت علىٰ أكثر من 64 رسالة للماجستير والدكتوراه لطلاب من مختلف بلاد العالم مثل سورية والأردن والعراق والسعودية وإيران وباكستان والصين وألمانيا الغربية والولايات المتحدة.

تقول الدكتورة سعاد ماهر:" إن أهم وظيفة شغلتها في حياتي وأعتز بها هي أنني أم لولد واحد أعتقد أنه مواطن صالح نشأ علىٰ حب دينه ووطنه، ويعمل الآن بصفة دائمة في الصفوف الأولىٰ لجبهة القتال، وهو نقيب مدرعات يشارك إخوانه علىٰ خط النار حبهم للقتال وإيمانهم الكامل بمعركة التحرير للأرض العربية والمقدسات الإسلامية، واستعادة مدينة القدس والمسجد الأقصىٰ الشريف مسرىٰ رسول الله ﷺ، وأولىٰ القبلتين في الإسلام، وأعتقد أن هذه هي الوظيفة الأولىٰ، أما حياتي العلمية فإنني بحمد الله أول سيدة في العالم حصلت علىٰ الدكتوراه في الآثار الإسلامية، كما إنني أول سيدة في العالم أيضًا حصلت علىٰ وسام جمعية سانت مارتينون- التي أنشئت في القرن الرابع عشر الميلادي، وكان ترتيبي الـ12 ممن حملوا وسامها في العالم، وهم بالترتيب أحد عشر رجلًا، وكنت أنا أول سيدة تمنح هذا الوسام العالمي تقديرًا لما قدمته من بحوث وموضوعات علمية أبرزت التسامح في الإسلام؛ حيث كنت أقوم بتدريس الآثار القبطية إلىٰ جانب تخصصي في الآثار الإسلامية".

ومن أقوالها أيضًا:" إنني أدعو إلىٰ إبراز معالم الآثار الإسلامية، وأن لا تقوم حولها إلا مبان ذات طابع إسلامي إذا دعت الضرورة إلىٰ قيام مباني حولها، وهذا بالنسبة للقاهرة-والمسلمون يستطيعون أن يجدوا روائع المباني المودرن في أوروبا وغيرها، ولكنهم يذهبون إلىٰ مكة والمدينة والمعالم الإسلامية للعبادة في جوٍّ من الروحانية التي يضيفها التكوين الإسلامي علىٰ مساجدهم وما حولها".

عالمة الموسوعات:

ألفت الدكتورة سعاد ماهر أكثر من ثمانين مؤلفًا عن الحضارة والآثار والفنون الإسلامية والقبطية منها:" موسوعة مساجد مصر وأولياء الله الصالحين"، في خمسة أجزاء في أكثر من ألفين صفحة، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، القاهرة، 1971-1983م، و" موسوعة البلد الأمين خلال 14 قرنًا"، ثلاثة أجزاء، في عشر مجلدات، دار العلم، جدة، و" موسوعة مدينة طيبة خلال 14 قرنًا"، عشرة أجزاء، دار العلم للطباعة، جدة، و" القاهرة في ألف عام"، وزارة الثقافة المصرية، شاركت بكتابة المادة العلمية للعصر القبطي والإسلامي حتىٰ عصر محمد علي، و" لجامع الأزهر أثر وحضارة"، و" مدينة أسوان وآثارها القبطية والإسلامية"، الجهاز المركزي للكتب، القاهرة، 1977م.

مساجد مصر وأولياء الله الصالحين:

" الحضارة أسمىٰ وأبقىٰ للأمة من تراث، لقد كان للعرب والذين دخلوا في الإسلام تراث ومشاركة وإبداع منذ أقدم العصور، ولكنه لم يصبح عميقًا شاملًا مضيئًا وهاجًا إلا بالإسلام، الذي امتدت فتوحاته من الهند شرقًا إلىٰ المحيط الأطلسي غربًا، مستقرًّا في بعض بلدانها، مارًّا أو مجاورًا بعضها الآخر، كان لهولاء وهؤلاء علوم وفنون فأدخلوا فيه ومزجوا بين علومه وعلومهم، وهنا سطع نور الإسلام بما أقام للعلم من دولة، وللفنون من طلاوة، وللصناعات من نهضة، ولأسباب الحياة من أمن وتقدم وسعادة".

بهذه الكلمات قدمت الدكتور سعاد ماهر لموسوعتها الخالدة " مساجد مصر" ورأت أن العمارة هي السجل الذي يستقي منه تاريخ الأقدمين بما فيه من تقدم وازدهار، أو تدهور أو تخلف، وأن العمارة الاسلامية وخاصة الدينية منها قد سجلت لنا تاريخ الدول المتعاقبة وأعطتنا صورة صادقة عن منشئها، وذلك أن العقيدة الإسلامية التي تغلغلت في نفوس معتنقيها لسماحتها ولملاءمتها لطبيعة النفس البشرية، ولحرصها علىٰ الإسعاد في الدارين، ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بعمارة المساجد التي يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاة ولم يخش إلا الله، ويعمرها الزاهدون والمتصوفون والذاكرون الله كثيرًا والعارفون بالله، ويعمرها حلقات الدرس من فقه وحديث ومنطق وكلام، ومجالس أدب من نحو وبلاغة ونقد، ندوات

الاجتماع التي لكافة العلوم، ويعمرها الفقهاء والعلماء والأئمة والأدباء ويقوىٰ بها الضعيف والغريب، ويأتي إليها ابن السبيل والمسكين، ويرفع صوته فيها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والداعي إلىٰ الخير، وإذا كان هو حال العمارة في العالم الإسلامي فإن مصر تزخر بعدد من العمائر يكفي لتسجيل أحداثها اليومية خلال الأربعة عشر قرنًا التي مرت عليها منذ اعتناقها الدين الحنيف، ويكفي للتدليل أن مدينة القاهرة بها 660 أثرًا مسجلًا، هذا إلىٰ المشاهد والأضرحة عددها بضعة آلاف.

وقد وجدت الدكتور سعاد ماهر وهي تشغل أستاذ كرسي العمارة الإسلامية في جامعة القاهرة أن من واجبها أن تدلي بدلوها في هذا المجال، خاصة وأنه لم يلج هذا المجال من قبلها سوىٰ الدكتور حسن عبد الوهاب في كتابه" تاريخ المساجد الأثرية" فشمرت عن ساعد الجهد، وكانت هذه الموسوعة العظيمة التي لم تكتفِ فيها بتاريخ المساجد، وإنما تناولت الأضرحة والمشاهد والمزارات وتراجم أصحابها، وتناولت في المجلد الأول دراسة تمهيدية عن المسجد في الاسلام وتطوره المعماري، وتحدثت عن المدرسة التي جمعت بين العبادة والدراسة وتدرجت في تسلسل زمني حتىٰ وصلت في الجزء الأول إلىٰ العصر الفاطمي، ثم تناولت في الجزء الثاني العصر الأيوبي، وجزء من العصر المملوكي، وفي الجزء الثالث باقي العصر المملوكي الزاخر بالعمارة التي وصلت للذروة في الإبداع والخلق، ثم تناولت في الجزء الرابع عمارة العصر العثماني ومساجده ومزاراته وأضرحته، وهذا العصر أولىٰ أهمية عظمىٰ للتصوف ورجاله؛ لذا كثرت الأضرحة والمقامات لأولياء الله الصالحين[1].

وقد جمعت الدكتور سعاد ماهر في هذه الموسوعة في دراسة هذه العمائر بين ترجمة المنشئ أو صاحب الضريح والتاريخ السياسي للفترة التي أنشئ فيها الأثر، فمثلًا عندما تناولت مسجد الإمام زين العابدين بحي زين العابدين، ترجمت له ترجمة موسعة ذاكرة مناقبه وخصاله وفضله وتاريخ عصره وأسرته، ثم تناولت الحديث عن طائفة الزيدية وهي أكبر فرق الشيعة وأماكن انتشارها في طبرستان واليمن، ولا يزال معظم اليمنين يعتنقون المذهب الزيدي الذي اشتهر منهم الإمام

(1) سعاد ماهر، مساجد مصر، ص11- 13

الشوكاني المتوفى 1250م، ثم عرجت بعد هذه التفاصيل التاريخية لتصف المشهد وصفًا معماريًا دقيقًا،[1] وأمثلة تكررت عند حديثها عن الجامع الأزهر؛ حيث استوفت تاريخه على مدار ألف عام.

كما تناولت في كثير من الأحيان دراسة الحي أو البلد الموجود به الأثر، واتبعت هذا بوصف معماري للأثر منذ إنشائه، والإصلاحات والترميمات التي أجريت له خلال العصور، مثل حديثها عن مسجد الإمام الطرطوشي بالإسكندرية، فبعد أن تحدثت عن الإمام الطرطوشي صاحب كتاب" سراج الملوك" وهو الإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الطرطوشي المعروف بابن رندقة المولود سنة 450 أو 451هـ في مدينة طرطوشة، وإليها ينسب ثم تحدثت عن مدينة طرطوشة الأندلسية فقالت:" إنها مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقوم على سفح جبل إلى الشرق من مدينة بلنسية وقرطبة وبينها وبين البحر عشرون ميلًا، ثم تحدثت عن تلقينه العلم في الأندلس، ثم رحيله من الأندلس عام 476هـ لتأدية فريضة الحج، ثم ذهابه لبغداد التي كانت تزدحم بالعلماء وذهابه بعد ذلك إلى الشام، ثم تولية شطره إلى مدينة الإسكندرية التي كانت خارجة للتو من مجاعات ومشاكل حدثت أيام المستنصر الفاطمي، ثم مكوثه لآخر حياته بمدينة الإسكندرية".. ثم تخبرنا عن مذهب مصر الشيعي الذي بذل الفاطميين جهودًا كبيرة في تحول مصر إليه إلا أن الإسكندرية استعصت على هذا المذهب الدخيل، وصارت عاصمة للمذهب السني طوال قرنين ونصف هي مدة حكم الفاطميين لمصر، ونزح إليها العديد من الأعلام مثل الحافظ السلفي وغيرهم، وذلك بفضل نزوح الآلاف من المغاربة إليها عبر ذهابهم للحج، ثم بعد ذلك تعرضت للمسجد ووصفته معماريًا[2] .

هذا وقد زودت الكتاب بمجموعة من الصور الملونة أو السوداء للأثر ورسمت" كروكي" له.

وبعد عمر حافل بالإنجازات توفيت الدكتورة سعاد ماهر سنة 1996م، عن عمر اقترب من الثمانين عامًا.

---

(1) سعاد ماهر، مساجد مصر، ص104- 106

(2) سعاد ماهر، مساجد مصر، ص330- 335

محمد عبد الله عنان.. مؤرخ الأندلس

من الناس فئة أخلصت للبحث العلمي، وترهبت في محرابه العظيم، وتحملت الكثير في رفعة شأنه وبذلت الغالي والنفيس لتذليل صعابه، لا يريدون هبة أو منحة سوىٰ مجد العلم، من هؤلاء: محمد عبد الله عنان موضوع حديثنا، ذلك الرجل الذي عشق التاريخ وشغلته قضايا الوطن فشاركه في كل مراحل النضال، فعمل بالسياسة منذ فجر شبابه.

ولد في قرية بشلا، مركز ميت غمر بالدقهلية في 7 يونيه 1896م، وواصل تعليمه حتىٰ حصل علىٰ البكالوريا عام 1914م، ثم نال شهادة الحقوق عام 1918م، عمل بالمحاماة، ثم التحق بالعمل الحكومي حتىٰ إحالته للمعاش 1955م، وتزوج بفتاة من النمسا كانت له نعم السند في إنجاز مشروعاته العلمية والفكرية، إذ وفرت له المناخ الصحي وكل عوامل الراحة.

مارس العمل السياسي منذ فجر شبابه، وكانت كلية الحقوق بؤرة النشاط الثوري، إذ أنجبت الأعلام والزعماء الذين قادوا النضال السياسي ضد المحتل في النصف الأول من القرن العشرين، كان هو يشترك في المسيرات والمظاهرات، وهذا ظهر جليًا عند قيام ثورة 1919م، وبعد أن وضعت الحرب العالمية الأولىٰ أوزارها وانتصار الثورة البلشفية في روسيا التي تردد أصداؤها في مصر، حتىٰ بدا لكثير من القوىٰ التقدمية أن المناخ أصبح صالحًا للدعوة إلىٰ الاشتراكية، فتألفت خلايا وجماعات ماركسية من الوطنيين والأوروبيين أسفرت عن تأسيس" الحزب الاشتراكي المصري" بزعامة سلامه موسىٰ الذي كان يمثل الفكر الفابىٰ مع الدكتور علىٰ العناني، وحسني العرابي، وصاحبنا محمد عبد الله عنان، ومن الأجانب (روزفلت)، ولم يلبث أن دبت الاختلافات بين أعضاء الحزب بعد أن تغير اسمه إلىٰ" الحزب الشيوعي المصري"، وقد قدم عنان بيانًا هاجم فيه تطرُّف الحزب أو ما أسماه ارتكابه الشطط ومناداته بأبعد المبادئ تطرفًا، وادَّعاها إلىٰ تشويه المبادئ الاشتراكية الصحيحة، ولم يؤثر أن انتمىٰ عنان إلىٰ أية تنظيمات سياسية بعد ذلك، بل

تفرغ للبحث وللمهمة التي خلق من أجلها وهي التاريخ الأندلسي.

كان الأستاذ عنان ككثير من المفكرين قد تبنوا آراءً صادمة، ثم تراجعوا عنها بعد، وخصوصًا وأن عنان كان ينضوي تحت تيار حزب" الأمة" الذي تطور إلىٰ حزب" الأحرار الدستوريين" وجريدة " السياسة اليومية"، ومجلة " السياسة الأسبوعية" لسان حال الحزب وكانت البداية عندما نشر عنان مقالًا في جريدة " السياسة الأسبوعية" بتاريخ 7 سبتمبر 1929م بعنوان " فلسطين بين اليهود والعرب"، زمن مأساة فلسطين واحتلالها من قِبل الإنجليز، تمهيدًا لتسليمها لليهود، حاول فيه أن يكون "حياديًا"، " عقلانيًا"! كما يزعم، وكما هي وجهة الجريدة التي يكتب فيها وتتبع " حزب الأمة" الذي يدَّعي أنه يمثل مدرسة تلاميذ محمد عبده، مما أداه إلىٰ مدح جهود الحركة الصهيونية ذلك الوقت! وتحكيم العقل الموهوم في القضايا الشرعية الدينية .وتولت صحيفة " الفتح" للشيخ المجاهد محب الدين الخطيب- رحمه الله- الرد علىٰ مقال عنان بعدد من المقالات، أبرزها مقال مَن رمز لنفسه بـ(ن)- ويقال إنه شكيب أرسلان-، وصدّرت به (العدد 165 و 166)، وعنوانه: (هل ما كتبه عبد الله عنان في قضية فلسطين جهل أم تجاهل؟).

وقد اعتمد الأستاذ أنور الجندي رحمه الله علىٰ مقالات الفتح في كتابه القديم "الشعوبية في الأدب العربي الحديث"، فأدرج محمد عبد الله عنان ضمن دعاة الشعوبية (ص(169- 166 ، ونبه- أيضًا- إلىٰ مجاراته لدعاة تغريب المرأة في قضاياها المطروحة في ذلك الزمن. وأيضًا ذكر هذا في كتابه" مقدمات العلوم والمناهج" (ص 538 – 540)ولكنه عاد في كتابه " مفكرون وأدباء من خلال آثارهم" (ص 253 – 259)، فكتب عن جهود عنان في التاريخ الأندلسي، ومدحه، وأطلق عليه: (مؤرخنا الإسلامي الكبير) . ولم يتعرض لنقده، والسبب هنا أن الأستاذ الجندي علم بعد مرور السنين أن عبد الله عنان خاض فيما خاض فيه سابقًا عن جهل ومجاراة لمدرسة " حزب الأمة"، وأن محور حياته الفكرية وأبحاثه ومقالاته وكتبه هي في التاريخ (خاصة الأندلسي)، أما الفلتات السابقة فلا يُبنىٰ عليها توجه معين له، علىٰ سوئها ووجوب الرد عليها، ولهذا أنصفه في كتابه "مفكرون وأدباء "

والسبب في هذا تراجع الكتاب عن بعض آرائه بعدما سار في دروب التغريب والفلسفات والمناهج الغربية حينًا من الدهر، ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور منصور فهمي ومحمد عبد الله عنان، فهؤلاء وغيرهم كانوا قد التمسوا العلم في أوروبا وظنوا في بادئ الأمر أن الغرب لديه الحلول السحرية للأزمة التي كان يعاني منها العالم العربي في تلك الفترة، ونادوا بحلول تبتعد تمامًا عن المنهج الإسلامي، لكن سرعان ما تكشفت لهم الحقيقة فعادوا مسرعين إلىٰ المنهج الإسلامي، وابتعدوا عما كانوا ينادون به من أفكار أو نظريات لا تتوافق والفكر الإسلامي؛ لذا كان من الطبيعي أن تجد رأيين مختلفين للأستاذ أنور الجندي في شخص واحد، وقد امتدح أنور الجندي هذا المسلك من هؤلاء الكتاب والمفكرين الذين تراجعوا عن أفكارهم وغيروا من آرائهم.

عنان مؤرخًا:

للمؤرخين الهواة دور كبير في كتابة التاريخ، مَن منَّا لا ينسىٰ دور عبد الرحمن الرافعي الذي أنجز أروع موسوعة عن مصر الحديثة " تاريخ الحركة القومية" في أكثر من عشرة مجلدات، وكذلك دور الأمير عمر طوسون، وأحمد شفيق، وأمين سامي، وعباس محمود العقاد، وعلي أدهم، وجمال بدوي، وغيرهم، وهم بلا شك أضافوا الكثير للمكتبة العربية، والآن يأتي دور محمد عبد الله عنان الذي أرّخ للأندلس، وكتب عنه أعظم موسوعة صنعها مؤرخ عن الأندلس في العصر الحديث، فلا يستغني عنها أي باحث يريد الحقيقة المطلقة، حيث امتلك أدوات المؤرخ من الوثائق، ودقة استعمالها، وتوظيفها، واستخراج النتائج العلمية السليمة، وأتقن بسببها عدة لغات قديمة: كالقشتالية، واللاتينية بالإضافة إلىٰ إتقانه للفرنسية، والإنجليزية، والإسبانية الجديدة، والألمانية.

وكان لا يكلّ عن الترحال، فقد زار إسبانيا، ودول شمال أفريقيا ست عشرة رحلة لا يدخر جهدًا في البحث والتنقيب، وتقصي مختلف المصادر، والوثائق القشتالية في مختلف موطنها، وكذلك التجوال المتكرر في ربوع الأندلس القديمة، والزيارات المتعددة للقواعد الأندلسية الذاهبة، ولاسيما القواعد الكبرىٰ مثل: قرطبة، وأشبيلية، وبلنسية، وشاطبة، ومرسية، وسرقسطة، وطليطلة، وبطليوس، وماردة، وأشبونة،

وباجة، وغرناطة، وألمرية، ومالقة، وغيرها، الدراسة المستفيضة لآثارها، ونقوشها الأندلسية الباقية، وهذه المشاهدات لطبائع الإقليم، والبقاع والأوساط التي حلت فيها الأمة الأندلسية، وعاشت عدة قرون ووضعت أسس حضارتها العظيمة– كان له أبلغ الأثر، وأمده بكثير من الحقائق.

وانتفع خلال هذه الرحلات في استيعاب المصادر القشتالية، واللاتينية القديمة، والمصادر الغربية الحديثة، وانتفع بالكثير من المخطوطات الهامة الموجودة بمكتبة " دير الأسكوريال"، والمخطوطات الموجودة بفاس، والجزائر، وتونس، وقابل الأعلام من مؤرخي الأندلس كـ: " ليفي بروفنسال"، و" غرسيه غومث"، و" بلاثيوس"، وغيرهم، وقد قسم موسوعته إلىٰ أربعة عصور تاريخية، وهي: الأول " عصر الفتح والولاة"، والثاني " دول الطوائف"، والثالث " عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس"، والرابع " نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين"، وعمل جزءًا عن الآثار الباقية في الأندلس والبرتغال، وكذلك رصد الكلمات ذات الأصل العربي، وفي النهاية نقرر أن هذا العمل فريد، تقف علىٰ إنجازه مؤسسات ذات ميزانية، فما بالك بمن أنجزه متطوعًا.

ولم يكتفِ بما هو مدون في كتب التاريخ القديمة والحديثة، المطبوعة والمخطوطة، العربية والإفرنجية، وإنما اعتمد علىٰ مذهب " المعاينة" وهو يقوم علىٰ ذهاب المؤرخ بنفسه إلىٰ موقع الأحداث لمعاينتها، وقد اشتهر به قديمًا المؤرخ الأديب ياقوت الحموي، والمسعودي، والمقدسي البشاري، ومن المحدثين جورجي زيدان، وقد ذهب عنان إلىٰ القواعد والقصاب الأندلسية في زيارات متعددة، وشاهد آثار تلك البلاد وشاهد بعينه موقع الأحداث، فيقول عند وصفه لمدينة غرناطة بعد سرد الأقوال في أصل اسمها:" والواقع أن غرناطة تتمتع بموقع فائق بالحسن، فهي في واد عميق يمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجبال " سيرانفادا"، وتظللها الآكام العالية من الشرق والجنوب، ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادي الكبير وهو ينبع من جبال " سيرانفادا"، ويخترقها فرعه المسمىٰ نهر حدرة أو هدرا ElDarro ويلتقي به عند جنوبي المدينة، وقد كان شنيل وفرعه حدره أيام

المسلمين يفيض بالماء، ولاسيما في الصيف حيث يذوب الثلج، وكانت ضفافها خضراء يانعة تغص بالحدائق الغناء. أما اليوم فقد جف مجرى شنيل، وقلما يجري فيه الماء سوى القليل أيام الشتاء. أما فرعه حدره فيخترق المدينة من الشرق عند سطح التل الذي تقع عليه الحمراء، ويتصل بشنيل عند القنطرة الأندلسية القديمة، وهو يكاد يختفي اليوم ولم يبقَ من مجراه سوى الجزء الصغير المجاور لتل الحمراء، وأمَّا جزءُه الذي كان يخترق وسط المدينة فقد غطى بشارعها الرئيسي الأوسط المسمى " شارع الملكيين الكاثوليكيين، امتداده في الميدان الكبير حتى قنطرة شنيل". (نهاية الأندلس ص23).

وفي موضع آخر في حديثه عن غرناطة التي صارت اليوم مدينة أوروبية، وهدمت معظم معالمها، ولم يوجد غير قليل في حي البيازين، والحمراء وبعض الأسوار، فقال:" كذلك بقيت قطعة كبيرة من أسوار غرناطة الإسلامية وبضعة من أبوابها القديمة مثل باب البنود، وباب ألبيرة، وباب البيازين، وباب فحص اللوز، وباب الشريعة وهو مدخل الحمراء الرئيسي. هذا ومازالت قنطرة شنيل قائمة على النهر عند التقائه بفرعه "حدره" وتحمل اسمها القديم Puenta del Genil ".

عنان والموريسكيين:

سقطت غرناطة عام 897هـ بأيدى الملكيين الكاثوليكيين " فرناندوا وإيزابيلا" بعد المعاهدة التي سلم بمقتضاها آخر ملوكها ابن الأحمر المدينة، وغادرها إلى المغرب بعد صراع مع الصليبيين في الأندلس استمر لقرون وتوجت حروب الاسترداد Reconquista التي بدأت مبكرًا بعد توقف المد الإسلامي في جنوب فرنسا. وسرعان ما نقض الملكان الصليبيون بنود المعاهدة وفرض التنصير الإجباري على من تبقى من المسلمين أو الرحيل عن الأندلس، وتعرض الذين فضلوا البقاء لكافة صنوف التعذيب وأنشأ ديوان التحقيق (محاكم التفتيش) لهذا الغرض الذي قضى على الآلاف المؤلفة من المسلمين وحرقت المكتبات وهدمت المساجد وحول مسجدها الكبير لكنيسة كبرى دفن فيه الملكيين الكاثوليكيين فرناندوا وإيزابيلا، وقد واجه المؤرخون العرب صعوبات كبيرة حول أحوال المسلمين بعد السقوط، وشحت

المصادر الإسلامية التي تتحدث عن هذه الفترة العصيبة من التاريخ الأندلسي، فشمر الأستاذ عنان عن ساعد الجهد، وشرع في رحلة علمية للبحث عن تلك الفترة، وزار غرناطة عشر مرات وفي هذا يقول:" أجل، لقد انتهت إلينا عن تاريخ مملكة غرناطة وأحوالها طائفة من المراجع القيمة، وفي مقدمتها كتب الوزير ابن الخطيب، وما كتبه ابن خلدون حتىٰ حوادث عصره، وكذلك انتهت إلينا طائفة حسنة أخرىٰ عن تاريخ بني مرين قرين مملكة غرناطة وعضدها الأيمن في الجهاد، ولكن هذه المراجع تقف بنا عند أواخر القرن الثامن عشر الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ولا نكاد نظفر بعد ذلك خلال القرن التاسع، وهو بالنسبة لمملكة غرناطة، عصر الانحلال والسقوط النهائي، بأية مراجع إسلامية ذات شأن، وليس لدينا من تراث المرحلة الإسلامية القاتمة من تاريخ دولة الإسلام في الأندلس، سوىٰ رواية " أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر" عن سقوط غرناطة، وما نقله إلينا المقري من شذور قليلة في " نفح الطيب" وفي " أزهار الرياض" عن تلك المرحلة من تاريخ غرناطة.

أما مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين وهم بقايا الأمة المغلوبة، هم العرب المتنصرون من بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة، وهم الذين عاشوا تحت الحكم، بعد إرغامهم علىٰ التنصر زهاء قرن من الزمان، منذ سقطت غرناطة أخر حواضر الإسلام بالأندلس في أيدي الإسبان سنة 1492، حتىٰ أصدرت إسبانيا قرارها الشهير بنفيهم من أراضيها في سنة 1609م. وفي خلال هذه الحقبة الطويلة عانىٰ أولئك الموريسكيون، ألوانًا مروعة من الإضطهاد المدني والديني، ومن مطاردة ديوان التحقيق، وأرغموا علىٰ ترك لغتهم العربية، واتخاذ القشتالية لغة للتخاطب والتعامل، واتخذوا لهم لغة سرية خاصة هي لغة " الألخميادو" الشهيرة، وهي القشتالية المحرفة تكتب بحروف عربية، ليستطيعوا أن يحتفظوا بتراثهم الديني القديم. ولهؤلاء الموريسكيين أو العرب المتنصرين أدب خاص بهم، "بالقشتالية و الألخميادو" ومنهم من استطاع أن يحتفظ خلال الاضطهاد الغامر كذلك بلغته العربية القديمة فلسنا نظفر من الرواية الإسلامية إلا بأقوال وشذور يسيرة، معظمها أيضًا مما نقل إلينا المقري في كتابيه السابقين؛ ولهذا كان جلُّ اعتمادنا في استعراض هذه المرحلة الأخيرة من حياة الأمة الأندلسية

على المصادر الغربية والأسبانية بوجه خاص".

لذلك لم يدخر الأستاذ عنان جهدًا في تقصي المصادر والوثائق التي تحدث عن الموريسكيين، والسعي وراءها سواء منها العربية أو القشتالية في الزيارات التي قام بها إلى الأندلس، وتفقد فيها كل المواقع كما أسلفنا فقد زار مكتبة مدريد الوطنية وصور منها المجموعات المخطوطة كما زار أكاديمية التاريخ، والأسكوريال، وغرناطة، وأنفق أوقاتًا في البحث والتنقيب وراء الوثائق المخطوطة الأندلسية، والمغربية، والمدجنية، والمستعربية العربية، والوثائق المخطوطة القشتالية، وذلك سواء في دار المحفوظات التاريخية بمدريد، أو الأسكوريال، أو دار المحفوظات العامة في " شنت مانكش" Samancas أو محفوظات التاج الأرجوني ببرشلونة، أو محفوظات مملكة بلنسية، أو بلدية غرناطة، وكاتدرائية سرقسطة، وبلدية بنبلونة وغيرها من المجموعات المحلية الخاصة، وقد ظفر من وراء هذا بمجموعة زاخرة من الوثائق التي تلقي أعظم ضوء على هذه الفترة، وقد وجد عنان بغيته في دار المحفوظات العامة في شنت مانكش Samancas، وهي قلعة أندلسية قديمة تحيط بها محلة صغيرة تقع في جنوب بلد الوليد Valladolid على قيد عشرة كيلو مترات منها، وقد اتخذت منذ القرن السادس عشر دارًا للمحفوظات الملكية الأسبانية، وهي ما تزال إلى يومنا هذا مستودعَ هذه المحفوظات الشهيرة التي تضم مجموعات عديدة زاخرة من أهم وأنفس الوثائق التاريخية والسياسية والقضائية، ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة وقد اطَّلع على عدد من الأندلسية والقشتالية المتعلقة بمملكة غرناطة، ومجموعة كبيرة من المراسيم الملكية الصادرة إلى العرب المتنصرين، ومن وثائق ديوان التحقيق المتعلقة بهم وبمحاكماتهم، وحصل على صور ضوئية لهذه الوثائق، ونشر لوحات منها في ثنايا كتابه الحجة، كما أورد كثيرًا من محتويات الوثائق المدجنية والمستعربية، وهي تلقي ضوءًا كبيرًا على حياة المجنين وأحوالهم في العصور المتأخرة، التي انقطعت فيها صلتهم بماضيهم القديم وبدينهم ولغتهم وأمتهم الأصيلة.

وكان حصيلة هذه الرحلة الشاقة هذا المجلد الرابع من موسوعته " دولة الإسلام

في الأندلس" الذي جعل عنوانه " نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين" وجاء في أربعة أقسام أو كتاب كما نظمه، وهي:

الكتاب الأول: في مملكة غرناطة، منذ قيامها حتىٰ ولاية السلطان أبي الحسن النصري.

والكتاب الثاني: في نهاية دولة الإسلام في الأندلس.

والكتاب الثالث: في مراحل الاضطهاد والتنصير.

والكتاب الرابع: في نهاية النهاية (التي عنون بها الكتاب).

وجعل هذه الكتب في فصول، فالأول منها فصله علىٰ تسعة:

فالأول: في الأندلس العاربة، وفرش هذا دول الطوائف المرابطون والموحدون، سياسة الاسترداد النصرانية، سقوط القواعد الأندلسية في يد النصارىٰ، موجة الاسترداد الغامرة في القرن السابع، شعور أهل الأندلس بمصيرهم، مدينة غرناطة صفتها أيام الدولة الإسلامية، ما بقي من خططها ومعالمها الأندلسية. وسوف يجد القارئ تفاصيل لمعاناة المسلمين الذين أجبروا علىٰ التنصير، وهذا ما فصله في الكتاب الثالث الذي قسمه إلىٰ ثلاثة فصول، الفصل الأول: في بدأ التحول في حياة المغلوب، وتعرض فيه لهجرة الأندلسيين إلىٰ المغرب، واستعباد الذين بقوا بالأندلس؛ حيث نكث الأسبان عهودهم وحاولوا تنصيرهم، وأحرقوا الكتب العربية، فوقعت الثورات في بعض جهات الأندلس، ثم أمر بحشد المسلمين والموريسكيين في أحياء خاصة، وحرم عليهم إحراز السلاح والاشتياق لغرناطة وبيع أملاكهم.

والفصل الثاني: في ديوان التحقيق الإسباني، ومهمته في إبادة الأمة الأندلسية، وفيه تعرض للأعمال الإجرامية التي قام بها رجال الدين المسيحي بما ارتكبوه من أنواع التعذيب والتنكيل بهؤلاء المسلمين، بل حتىٰ أولئك الذين أظهروا خضوعهم للتنصير واستغاثة الموريسكيين بالسلطان بايزيد، وختم الفصل بوثيقة عربية عن أحوال هؤلاء الموريسكيين وآلامهم.

والفصل الثالث: في ذروة الاضطهاد وثورة الموريسكيين، وفيه تعرض للاضطهاد الذي عاد أيام شرلكان، بعدما أظهر سياسة الرفق فثار المسلمون مرة أخرىٰ، وفي عهد

ولده فليبي الثاني كان التنصير يعم جميع الموريسكيين، وحرم استعمال العربية وتقاليد المسلمين ولباسهم، فحاولوا الثورة مرة أخرىٰ واستعانوا بأمراء الإسلام، ففتك بهم في غرناطة واجتاح النصارىٰ المناطق الثائرة، وصدرت قوانين أخرىٰ في حقهم فانهارت هذه الثورة التي كانت قد انتشرت في عدة جهات.

وقد عاد الأستاذ عنان مرة أخرىٰ ليرصد " الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال" التىٰ لبثت قرونًا مثوىٰ دولة إسلامية عظيمة وحضارة زاهرة انتقلت عدواها إلىٰ أوروبا التي كانت تغط في دياجير الظلام والضلال بتحكم الكنيسة فيها، فهي تهب الحياة لمن تشاء وتحكم بالموت علىٰ من تشاء، وكلما استولىٰ الأسبان علىٰ ثغر أو مدينة كانوا يتبعون سياسة المحو والهدم والحرق ويفرضون التنصير علىٰ المسلمين، برغم أن المسلمين أبقوا علىٰ تراث الأمم السابقة التي هي بحالة جيدة إلىٰ اليوم، وقد لاحظ الأستاذ عنان الذي تجول في سائر القواعد الأندلسية الذاهبة التي أضحت اليوم مدنًا نصرانية إسبانية أو برتغالية، شاهد عنان هذه الآثار والأطلال وتقصاها، واستغرق منه هذا التجول خمس رحلات متوالية بين عامي 1950إلىٰ 1954م، زار خلالها نيفًا وستين مدينة أندلسية ونصرانية لها علاقة بتاريخ الأندلس ولفت نظره خلال هذه الرحلة في كثير من المدن الإسبانية والبرتغالية، والتي كانت من قبل قواعد أندلسية إسلامية، كثيرًا من الآثار الرومانية والقرطاجانية والأيبيرية ومنها معابد ومسارح، وهياكل أخرىٰ كاملة، ودعك من القناطر والحصون والعقود والأسوار الرومانية، التي كانت قائمة في المدن التي فتحها المسلمون والتي مازالت إلىٰ اليوم في حالة جيدة مثل أسوار آبلة، وطركونة العظيمة، والقناطر المائية الضخمة في شقوبية وماردة وغيرها، ومن الحصون والعقود والقناطر النهرية عدد عديد، فهذه كلها أبقوا عليها المسلمون وانتفعوا بها، وقاموا بتجديدها وترميمها إضافة إلىٰ الكنائس القوطية أبقىٰ عليها المسلمون ولم يهدموها، رغم دخول معظم السكان الإسبان إلىٰ الإسلام، وكذلك أبقوا علىٰ المعابد الوثنية.

وقد حدث بينه وبين المستشرق الإسبانىٰ مندينث بيدال، رئيس الأكايمية الملكية الإسبانية، سجالًا حول هذا الأمر بعد صدور الطبعة الأولىٰ من هذا الكتاب، وعزا

"بيدال" إبقاء المسلمين على الآثار الرومانية لمتانتها في حين أن الآثار العربية هي أقل بكثير في المتانة، وزعم أن الأسبان لم يقوموا بهدم المساجد ولا حرق الكتب، ولكن الذي حدث وهو ما يطابق المنطق أن الأسبان قد حولوا المساجد لكنائس مثلما فعل المسلمون عند فتحهم للبلاد، وحول متانة الآثار القوطية والرومانية هشاشة الآثار الإسلامية يرد عنان:" أن الصروح الإسلامية من مساجد وقصور ومدارس لم تندثر، ولكنها هدمت معظمها بأيدي الإسبان عقب الاسترداد، أما فيما يتعلق بمدى متانة العمارة الإسلامية فإنني أود أن أذكر صرحًا إسلاميًا واحدًا، هو جامع قرطبة والذي تحول إلى كنيسة جامعة، والذي مازال قائمًا بعقوده وسواريه وسائر أبنيته في أجود حالة من الحفظ بالرغم أن أقدم أجنحته، وهو الجناح الذي بناه عبد الرحمن الداخل الموى قد مضى على بنائه زهاء ألف ومائتي عام".

ومضى عنان يتتبع ويصف القواعد والقصبات الندلسية في وصف بارع مدعمًا حديثه بالصور والأشكال والخرائط.

وقد استهواه سيرة وأعمال المؤرخ الأديب صاحب الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الذي عاش مكينًا في ظل دولة بني الأحمر وفي مراكش، وتبوأ أعلى المناصب وألف أعظم كتاب في تاريخ ممكلكة غرناطة، وهو " الإحاطة في أخبار غرناطة" و" ريحانة الكتب ونجاعة المنتاب"، وله أعمال أخرى في التاريخ والأدب، وقد حقق الأستاذ عنان الكتابين الأخيرين معتمدًا على نسخ أخرى لهما، وقف عليها أثناء رحلاته المتكررة لتونس والمغرب وأسبانيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا، وقدم لهما بدراسات رائعة، وقرر أن يتوج جهده بعمل دراسة شافية عن لسان الدين ابن الخطيب، ثم عرج ليكتب لنا دراسة رائعة أخرى عن ابن خلدون معاصر ابن الخطيب، مبرزًا مكانته، ومثبتًا بأنه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع، مقارنًا بينه، وبين نظريات علماء الغرب مثل "ميكافيللى"، وترجم رسالة الدكتور طه حسين حول " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" عن الفرنسية.

مؤرخًا لمصر الإسلامية:

كان لمصر الإسلامية نصيب في دراساته، وأبحاثه، إذ أنجز أكثر من كتاب عنها، منها: " مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية"، وكتاب " مؤرخو مصر الإسلامية

ومصادر التاريخ المصري"، وفيه تناول بالدرس والتحليل سير المؤرخين العظام، الذين أرخّوا لمصر ككيان مستقل عن التاريخ الإسلامي العام، بدءًا من: ابن عبد الحكم، وابن زولاق، والكندي، النويري، وابن فضل الله العمري، والمقريزي، وابن تغرى بردى، وابن حجر، والسيوطي، وابن إياس، وختامًا بالجبرتي، وترجع أهمية هذا الكتاب أنه رجع للمصادر والمخطوطات كثيرًا، كما ألف عن " الحاكم بأمر الله" و" تاريخ الجامع الأزهر" الذي نستعرضه في السطور التالية:

تاريخ الجامع الأزهر:

صدرت الطبعة الأولىٰ من هذا الكتاب في شهر يونيه سنة 1942 الموافق جمادىٰ سنة 1361هـ وقصد المؤلف بإخراجه في هذا التاريخ إلىٰ بلوغ الجامع الأزهر عمره الألفي في اليوم السابع من رمضان 1361هـ (الموافق 18سبتمبر سنة 1942م، وحال الاحتفال يومئذ أن كانت الحرب العالمية الثانية في أوج اضطرامها، فلم يكن ثمة مجال، ومر العيد الألفي لهذا الجامع في غمرة الحوادث دون احتفال، وحاول المؤلف أن يلفت الأنظار لأهمية هذا الحدث ولكن دون جدوىٰ، والجدير بالذكر أن الاحتفال قد تأخر قرابة الأربعين عامًا إذ تم في بداية الثمانينيات.

وقد تعرض المؤلف في طبعته الأولىٰ المشارة إليها للإفاضة في تاريخ الأزهر ونظمه وأحواله خلال العصر الفاطمي، منذ أن جاءت قوات جوهر الصقلي في شعبان 361هـ وتخطيطه للقاهرة وبنائه للمسجد الجامع ليتوسط المدينة الجديدة، واقتصر دور هذا الجامع الأزهر في بدايته علىٰ إقامة الشعائر الدينية، ونشر المذهب الشيعي، ثم تناول المؤلف في الفصل الأول، لمعالم الأزهر والمدينة الفاطمية، كذلك تعرض لتجديد الأزهر وعمارته عبر العصور، ثم تحدث في فصل تال عن (الأزهر ودار الحكمة) التي أنشأها الحاكم بأمر الله في العاشر من جمادىٰ الآخرة 395هـ ، بعد خمسة وثلاثين عامًا من إنشاء الأزهر، وكانت مجالس العلم تعقد من قبل بقصر الخلافة، وأحيانًا بالأزهر، وكانت تسمىٰ مجالس الحكمة ينظمها قاضي القضاة، وتقرأ فيها علوم آل البيت، ويُهرع الناس إلىٰ شهودها، وتخصص فيها مجالس للخاصة، ومجالس للكافة وأخرىٰ للنساء، ولكن الحاكم رأىٰ أن تكون هذه المجالس أوسع مدىٰ، وأن تنظم في سلك حلقات دينية وعلمية متصلة يجمعها معهد

رسمي واحد، فأنشئ المعهد الجديد وأطلق عليه دار الحكمة أو دار العلم، ووجد في العصر من القرن الخامس الهجري منافذ ثقافية وحضارية تنطلق من الأزهر ومسجد عمرو ودار الحكمة، في الوقت الذي اضمحلت فيه دولة التفكير والأدب في بغداد، وأخذت مصر تتأهب بدورها لرعاية التفكير الإسلامي في المشرق، وأخذت قاهرتها تجذب أنظار العلماء في المشرق والمغرب، ولكن الضعف ران علىٰ دار الحكمة هذه منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وانتكست الحياة العقلية في مصر الإسلامية، واستمرت علىٰ هذا المنوال حتىٰ سقوط الدولة الفاطمية، بعدها أُهمل الأزهر وأُغلق تمامًا خلال الحقبة الأيوبية، ولكنه عندما أعاد الظاهر بيبرس افتتاحه، ظهر التحول الحقيقي له، وابتدأ الراعي الحقيقي لمذهب أهل السنة ليس في مصر وحدها، ولكن في جميع أنحاء العالم.

وفي طبعة الكتاب الثانية سنة 1958، يضيف المؤلف إليها فصولًا جديدة في تاريخ الأزهر منذ عصور السلاطين المماليك وحتىٰ عصره، وعُني عناية خاصة بتفصيل (الدور القومي) الذي لعبه الأزهر، شيوخه وطلابه، أيام الاحتلال الفرنسي، حيث كان الأزهر مهد المقاومة ضد الحملة، وقام علماؤه بمقاومة المستعمر الغاشم في ثورات متتالية حتىٰ اضطر في النهاية إلىٰ التسليم والرحيل يجر أذيال الخيبة، فالمؤلف هنا يرصد الحقيقة المطلقة التي يتوخاها في مؤلفاته، لم يجرِ وراء وهم الإعجاب بالمستعمر الغاشم، ويختلق من الأحداث التي تضفي عليه بأن جاء إلينا وغايته تحضرنا كما زعم العديد من المغرضين وعلىٰ رأسهم لويس عوض، والشاعر صلاح جاهين. لم يستسهل الوصول إلىٰ النتائج، وإنما اطَّلع علىٰ الوثائق والمخطوطات وسجلات المحاكم الشرعية والمؤلفات الغربية والعربية، يوازن بينها بميزان النقد الدقيق؛ ليتوصل إلىٰ نتائج هائلة وجيدة، ثم خصص المؤلف فصلًا بعنوان " الجامع الأزهر والحياة العامة" تحدث فيه عن مركز الأزهر في العصر الفاطمي ومركزه أيام الأيوبيين؛ حيث كان دوره محدودًا يعتمد علىٰ نشر الثقافة والمعرفة.

أما ابتداءً من عصر السلاطين المماليك بدأت أهميته السياسية تظهر في الأفق

رويدًا رويدًا حتىٰ عظم هذا الدور في عصر الخلفاء العثمانيين؛ حيث أنشئ منصب شيخ الأزهر في هذا الوقت، وكان هو الملجأ والملاذ الذي يقصده الناس وقت الشدائد، ولم يؤثر عن علمائه في هذه الفترة أن داهنوا السلاطين، بل كانوا يتعرضون لمظالمهم دون خوف أو وجل، ثم يعرض لتاريخه المجيد في القرن الثامن عشر، ودوره في إرهاصات النهضة وجهود علمائه وشيوخه في التصدي لمظالم المماليك، وكان أشهرها الوثيقة التي تعهد فيها البكوات في احترام حقوق الشعب، ثم يفصل دوره في هذا الفصل إبان الحملة الفرنسية، ثم دوره في قيادة دفة البلاد بعد رحيل الحملة الفرنسية؛ حيث تصارعت القوىٰ السياسية علىٰ تولي مقاليد الحكم، ثم يتم اختيار محمد علي بإرادة شعبية رغم معارضة الباب العالي لذلك، ثم ينقلب هذا المغامر علىٰ الأزهر ويقلم أظافره ويزرع الشقة بين رجاله، ويصادر أوقافه التي كانت تضمن له الاستقلالية في المكانة العلمية والسياسية؛ لذا انكمش دوره في عصر محمد علي برغم أنه رجاله كانوا وقود نهضته في المجالات: العسكرية والعلمية، ثم يتعرض لبدء اليقظة ومجيء جمال الدين الأفغاني وحلقاته وأثره في بث الوعي الإصلاحي، ثم دور الأزهر في ثورات مصر الوطنية في الثورة العرابية؛ حيث كان للأزهر دور حاسم فيها وزعيمها نفسه كان أزهريًّا، وشايعه في نضاله كل رجالات الأزهر، وثورة 1919 التي انطلقت شرارتها من الأزهر الشريف، وكان رجاله وعلماؤه وقودًا لهذه الثورة، وثورة يوليو.

ثم يفرد المؤلف فصلًا للحديث عهد التطور والإصلاح، ووصف أحوال الأزهر في أوائل القرن التاسع عشر، وبداية عصر محمد علي وقيامه بالنهضة العلمية والبعثات التي كان جُلُّ رجالها من الأزهر الشريف، الذين أخذوا علىٰ عاتقهم المساهمة في هذه النهضة، وكان منهم طلاب أفذاذ مثل رفاعة الطهطاوي إمام البعثة الأولىٰ وصاحب الفضل في إنشاء مدرسة الأزهر، وإبراهيم النبراوي نابغة الطب، وكان لأبناء الأزهر في أعقاب تلك الفترة أعظم فضل في إخراج الموسوعات والمصنفات العربية والإسلامية التي عكفت علىٰ إصدارها مطبعة بولاق منذ منتصف القرن 19، والتي كان إخراجها من أعظم العوامل في إحياء الأدب القديم.

ويتعرض للإصلاحات والقوانين التي صاحبت هذه الدعاوىٰ الإصلاحية مثل قانون كساوىٰ العلماء وقانون 1912، وقانون1930 الذي بمقتضاه تم تنظيم التعليم بالأزهر وإنشاء كليات الجامعة الأزهرية الثلاث.

ثم يختتم المؤلف سفره الرائع بوثائق وإحصائيات جليلة القدر مثل وقفية الحاكم بأمر الله علىٰ الجامع الأزهر ودار الحكمة، وميزانية الجامع الأزهر وأوقافه، وثبت بشيوخ الجامع الأزهر منذ أواخر القرن السابع عشر وحتىٰ نهاية القرن التاسع عشر، ثم يفصل القول عن مكتبة الأزهر منذ الدولة الفاطمية وحتىٰ عصره.

هذا وقد نشر عنان العديد من الأبحاث القيمة في مجلات: " الهلال"، و" الرسالة"، و" السياسة الأسبوعية"، و" العربي" الكويتية، ونأمل من الجهات العلمية النظر مرة أخرىٰ لآثاره، وجمع تراثه كي تعم الفائدة.

ولم يتوقف عنان عن الاطِّلاع والبحث والتنقيب حتىٰ رحل في 20 يناير 1986م، وقد ناهز التسعين من عمره.

محمد الجوادي.. بانوراما مصر الثقافية

الدكتور محمد محمد الجوادي قيمة علمية وأدبية بعطائه، وسخائه للعلم والتاريخ والأدب، برع في هذه العلوم، وحاز قصب السبق واشتهر في المحافل المحلية والعالمية، وذاع صيته بين النخب في كل الدول، ومدحته وأقرت بعبقريته، إلا أن هذه النخبة تحولت عندما انحاز الرجل إلىٰ الشرعية التي اختارها الشعب المصري الأصيل في أول انتخابات حقيقية جرت علىٰ أرض الكنانة علىٰ مدار تاريخها علىٰ الإطلاق.

ولم تعجب النتيجة هذه النخبة التي تنظر إلىٰ الشعب بازدراء، وتنعته بالجهل والتخلف دون أن تقدم له شيئًا يعالج هذا التخلف وهذا الجهل، وهذه النخبة أيضًا تقتات من قوت هذا الشعب الأبي الذي يدبر أموره بصعوبة في ظل الاستبداد والطغيان الذي ران علىٰ مصر عقودًا وقرونًا، وهذه الهموم لم تعلق في بال النخبة!، المهم لديهم هي الجوائز والمناصب والرحلات مقابل مدح الطغاة والمستبدين، ولقد رأيناهم يسوِّدون آلاف الصفحات في تمجيدهم، وقد كان هؤلاء يجلون قدر الدكتور الجوادي، وكتبوا مئات المقالات ليقرظوا أعماله، وبعد انقلاب 3 يوليو 2013، وانحياز الجوادي إلىٰ جانب الشرعية الدستورية هاجمه هؤلاء، وقللوا من قدره واتهموه بالخيانة، بل طالب هؤلاء الرويبضة بسحب الجنسية المصرية عنه، وذلك يذكرني بموقف اليهود من عبد الله بن سلام قبل وبعد إسلامه في الحديث الشريف الذي رواه أنس: أن عبد الله بن سلام أتىٰ رسول الله مقدمه إلىٰ المدينة، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟ فقال:" أخبرني بهنَّ جبريل آنفًا". قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

قال:" أمّا أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلىٰ المغرب، وأما أول ما يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد حوت، وأما الشَّبَهُ، فإذا سَبَقَ ماء الرجل نَزَعَ إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزع إليها".

قال: أشهد أنك رسول الله.

وقال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت؛ وإنهم إنْ يعلموا بإسلامي بهتوني، فأرسلْ إليهم، فسَلْهُمْ عنِّي، فأرسل إليهم.

فقال:" أي رجل ابن سلام فيكم؟"

قالوا: حَبْرُنا وابن حبرنا، وعالمنا وابن عالمنا.

قال:" أرأيتم إن أسلم، أتسلمون؟" قالوا: أعاذه الله من ذلك!

قال: فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا؛ وجاهلنا وابن جاهلنا.

ظهر محمد الجوادي بقوة في أواخر السبعينيات عندما شارك في الأنشطة الثقافية كطالب مثالي لجامعة القاهرة، مشهور بين أقرانه، ومعروف عنه موسوعية المعرفة، كان يكتب في الصحف والمجلات، ومنها مجلة " الثقافة" التي كان يرأس تحريرها الدكتور عبد العزيز الدسوقي، ويعلن مجمع اللغة العربية عن مسابقة عن العالم الكبير محمد كامل حسين مؤسس جراحة العظام، والأديب الكبير الذي فاز بجائزة الدولة مرتين، فيتقدم الشاب ويشارك، وفورة الشباب تسيطر عليه، ويفوز بالمركز الأول، والسر الذي لا يعرفه الكثيرون أن الناقد الكبير نسيم مجلي قد تقدم هو الآخر ببحثه، ولم يحالفه الحظ بالفوز، فدفع ببحثه إلىٰ هيئة الكتاب لتنشره في سلسلة أعلام العرب تحت عنوان " ابن سينا القرن العشرين".

والدكتور الجوادي من الذين برعوا في مجالهم وتخصصهم الرفيع كأستاذ في أمراض القلب وحاز السبق في هذا المجال منذ تخرجه حيث حصل علىٰ رسالة الماجستير بعد تخرجه بثلاث سنوات عن "مُذيبات تخثر الدم كمذيبات للأحشاء القلبي الحاد" سنة 1985م وماهي إلا بضع سنوات أُخر حتىٰ حصل علىٰ رسالة الدكتوراه عن "تقييم أبعاد وظائف القلب في المُسنِّين" سنة 1990م، وفي هذه السنوات التي من المفترض أن يتفرغ فيها للرسائل العلمية يجمع مادتها ويحضر تجاربها وينتظر النتائج والتوصيات؛ فإنه في هذه الفترة أخرج للمكتبة العربية أهم كتبه علىٰ الإطلاق في التراجم؛ حيث أرَّخ لأعلام تندر عنهم المادة العلمية التي تتوافر في

السجلات والأضابير والتي لا تتوافر إلا لأصحاب الصبر والمثابرة.

ومازال الجوادي ينتقل من نجاح لآخر حتىٰ حصل علىٰ جائزة الدولة التقديرية عام 2004 وعُين عضوًا بمجمع الخالدين في نفس العام وهو لم يبلغ السادسة والأربعين عامًا.

مخلصًا لتخصصه الرفيع "أمراض القلب":

وفي مضمار تخصصه بالطب، بدأ الجوادي بنشر سلسلة من كتب الطب المتخصصة باللغة العربية منها كتابُه "أمراض القلب الخلقية الصمامية"، وكتابه "أمراض القلب الخلقية: الثقوب والتحويلات". كما نشر مجموعة قيمة من البحوث العلمية الأصيلة التي ركز في عدد كبير منها علىٰ موضوعات تخصصه البحثي الدقيق وهو "الوظيفة الانبساطية للقلب" والدراسات التطبيقية المتعلقة بتقييم هذه الوظيفة في مختلف الأعمار والصحة والمرض. كذلك فإن له مجموعة قيمة من المقالات المرجعية التي تميَّز بها بين أقرانه في أمراض القلب والأوعية الدموية وعلاقتها بأجهزة الجسم الأخرىٰ، ومجموعة أخرىٰ من المقالات في نظم المعلومات الطبية. غير أن أعظم عمل علمي يُقدر للجوادي قيامه بإعداد ونشر البيليوجرافيا القومية للطب المصري (في ثمانية أجزاء) من خلال فهرسة مئة وخمسين دورية طبية في الفترة من 1985 حتىٰ 1988 (ثلاث سنوات) بما يُعطي فكرةً جيدةً عن الإنتاج العلمي في مجال قطاع البحوث الطبيَّة.. بما في ذلك أسماء المشاركين ومعاهدهم العلمية وتاريخ النشر وملخص لكل بحث. وقد أصدرت هذه البيليوجرافيا الأكاديميةُ الطبية العسكرية. ومن أهم إنجازاته المعجمية أيضًا اشتراكه مع أستاذه الدكتور محمد عبد اللطيف في تزويد قاموس نوبل الطبي ذي الثلاث لغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية بإضافة اللفظ العربي كي يصبح قاموسًا رباعي اللغة، وتزويده بمسرد عربي مرتب لكل المصطلحات الواردة فيه بكافة اللغات لينشره في طبعة فاخرة الكتاب المصري اللبناني في ثلاثة أجزاء.

لقد تبنىٰ رؤية بانورامية لتاريخنا المعاصر من خلال دراسة مجموعة من المذكرات التي كتبها أصحابها في عصور مختلفة والتي هي صور للأحداث التي

ارتسمت في ذاكرة الذين لعبوا الأدوار أو اشتركوا فيها بأي شكل من الأشكال، فدرس مذكرات الضباط الأحرار، ومذكرات رجال القضاء والقانون الذين حاكموا ثورة يوليو، ومذكرات رجال الدبلوماسية المصرية، ومذكرات قادة العسكرية المصرية في حرب 1967، ومذكرات قادة النصر الوحيد "حرب أكتوبر"، ومذكرات قادة ما بعد النكسة "حرب الاستنزاف"، ومذكرات وزراء نهاية الملكية في مصر، ومذكرات عسكرة الحياة المدنية "مذكرات الضباط في غير الحرب"، وكذلك استعرض مذكرات شرائح مختلفة من الشعب المصري: كالمرأة المصرية، والصحفيين الذين كانوا علىٰ صلة بالسلطة، ومذكرات المفكرين والتربويين، ومذكرات الأدباء، ومذكرات المحامين وغيرها.

ولكن السؤال المطروح: هل تعد هذه المذكرات السياسية من الوثائق التاريخية، ومن الممكن أن تبنىٰ عليها أحكام، وتؤدي إلىٰ نتائج مقنعة تتسم بالحيدة؟

والإجابة علىٰ هذا السؤال- كما يقول الدكتور عبد العظيم رمضان- يحدد ماهية الوثيقة نفسها التي تنقسم لقسمين: وثائق أرشيفية، وغيرها من آثار خطب الزعماء وبياناتهم وتصريحاتهم أو قرارات الأحزاب والمؤتمرات الشعبية أو روايات شهود العيان، وعلىٰ هذا النحو تكون المذكرات التاريخية وثائق تاريخية، وعلىٰ هذا كان اهتمام الباحثين بالاطلاع علىٰ المذكرات في أبحاثهم، والوصول إلىٰ نتائج تاريخية علىٰ ضوء ما جاء في هذه المذكرات من أحداث.

فارس كتابة التراجم:

كرَّس الجوادي جُهوده ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر للدراسات البيليوجرافية تأريخًا وتراجم للشخصيات والأحداث والدوريات والبحوث في شتىٰ مجالات الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية لمصر الثورة (التي نشر عنها منذ 1986م مراجع أساسية بعنوان: النخبة الحاكمة في مصر، الوزراء، المحافظون، البنيان الوزاري في مصر من 1978 حتىٰ 2000)، فتاريخ الحياة العقلية والفكرية في مصر المعاصرة (التي نشر عنها مجلدين كبيرين" تكوين العقل العربي" كمدارسة لمذكرات المفكرين والتربويين، ثم "في خدمة السلطة" كمدارسة لمذكرات سبعة من

كبار الصحفيين، فتاريخ الصحافة الثقافية (الذي قام فيه بتعريف وفهرسة وتوثيق مجلة "الثقافة" من 1939م حتىٰ 1952م – كدراسة فريدة تؤرخ لحياة مجلة ثقافية أدبية عن طريق فهرسة موضوعاتها ومقالاتها، وتحليل مضمونها، والتعريف بكتابها. كذلك دراسته البيليوجرافية لتاريخ التعليم الطبي المصري في العصر الحديث. فإلىٰ كتاباته في الصحف عن تكريم العلماء، ومقالاته التي زادت علىٰ ثلاثمائة– بالأهرام خصوصًا– في رثاء أو تأبين "وفيات الأعيان"، ومشاركته في الموسوعات العربية الهامة عن مشاهير الأعلام... وإليه في هذا– وكثير غيره– يرجع الفضل في اتخاذ الخطوات الأولىٰ لإصدار موسوعة "الشخصيات المصرية العامة" الصادرة عن هيئة الاستعلامات. كما– اعتنىٰ بتقييم المناهج الخاصة بكتابة التاريخ– عن طريق إصدار طبعة بعد أخرىٰ من رسالته " أدباء التنوير والتاريخ الإسلامي" عكف علىٰ دراسة منهج أحمد أمين وطه حسين والعبادي في كتابة التاريخ الإسلامي.

وتتجه عناية الجوادي في نفس الوقت إلىٰ التراجم– تلك التي نشر منها أكثر من ثلاثة عشر كتابًا تُبلور ستة منها تاريخ الحركة العلمية في مصر المعاصرة– بدءًا بكتابه عن "الدكتور محمد كامل حسين عالمًا ومفكرًا وأديبًا"– الذي نشر سنة 1978 بعد فوزه بجائزة مجمعنا الأولىٰ في الأدب وإرشاده مبكرًا إلىٰ الطريق إلينا الذي ظلَّ سائرًا فيه بجد حتىٰ وصل، وثانيها: كتابه عن العالم المصري الكبير الدكتور علي مصطفىٰ مشرفة (1982) الذي نال عنه جائزة الدولة التشجيعية في أدب التراجم– مما مهَّد لمنحه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولىٰ (1985). أما الأربعة الكتب الباقية فكانت عن: الدكاترة أحمد زكي، وعلي باشا إبراهيم، ونجيب محفوظ، وسليمان عزمي. ويمتد نشاطه إلىٰ الشخصيات السياسية والأدبية فينشر خمسة كتب عن توفيق الحكيم، وإسماعيل صدقي، وسيد مرعي، والمشير أحمد إسماعيل، والشهيد عبد المنعم رياض، وتظهر له إلىٰ جانب تلك التراجم الشخصية تراجم مجمعة يؤرخ فيها لأكثر من خمسين شخصية من أعلام الوطن، في كتابين عنوانهما :"مصريون معاصرون" و"يرحمهم الله". كما يُعرِّجُ علىٰ دراسة "دور الطوائف المهنية المختلفة في تاريخنا المعاصر التي لعل آخرها كتاب" قادة الشرطة في السياسة المصرية (1952

– 2000)، وقبل ذلك كتاب "محاكمة ثورة يوليو" عن تاريخ العلاقات المتوترة بين الثوار ورجال القانون والقضاء، وكتابه عن "دور الأجهزة الأمنية: المباحث والمخابرات في التاريخ المصري المعاصر، ومجلده عن "الأمن القومي لمصر"، وكتابه عن دور المؤسسة الدبلوماسية المسمىٰ "معارك التفاوض من أجل السلام".

الجوادي مؤرخًا عسكريًا:

اكتوىٰ الجوادي بهزيمة مصر في 1967 مثله مثل الملايين في مصر والعالم العربي، والتي ما نزال نعاني من آثارها حتىٰ اليوم، وشهد النصر المؤزر الذي حدث في رمضان 1393هـ والذي يسميه الجوادي (النصر الوحيد) والذي جاء بعد سنوات من العرق والتدريب وفرح المصريون بهذا النصر وردت إلىٰ مصر هيبتها، كان الطالب الجوادي في المرحلة الثانوية وقت الحرب، وكان يراقب عن كثب الأحداث والنتائج وأغرم بسير الأبطال الذين تذكرهم وسائل الإعلام، ووقع في حب المشير أحمد إسماعيل علي القائد العام للقوات المسلحة أثناء الحرب، وقرر أن يكرم الرجل علىٰ طريقته، فقرأ كل ما كتب عنه وترجم له ترجمة وجيزة في كتيب صغير، وسرعان ما عاد الجوادي إليه وكتب كتابًا مفصلًا عنه كما أعجب بالجنرال الذهبي الفريق أول عبد المنعم رياض، الذي استشهد بين جنوده علىٰ خط النار في 9 مارس 1969، وكتب عنه كتيبًا بعنوان "سماء العسكرية المصرية.. عبد المنعم رياض" ثم يؤلف الجوادي ثلاثة مجلدات ضخمة في التاريخ العسكري لحروب مصر المعاصرة: عن حرب 1967 ومقدماته في حروب اليمن 1962، والعدوان الثلاثي1956، وحرب فلسطين 1948 باعتبارها "الطريق إلىٰ النكسة"، وعن الفترة ما بين حربي 1967 و1973 التي شهدت حرب الاستنزاف يصدر كتابه " في أعقاب النكسة"، ثم عن حرب 1973 ينشر كتابه: "النصر الوحيد".

ثم يلتفت للوراء فيؤرخ لفترة قيام الثورة 1952 ونهاية عصر الملكية وما سبقها من إرهاصات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.. في مجلد ضخم بعنوان "علىٰ مشارف الثورة". وفي دراسة رائدة لفترة السنتين الأوليين من عمر الثورة 1952– 1954 اللتين شهدتا تحول حركة الجيش "نحو حكم الفرد" من واقع مذكرات قادة الضباط

الأحرار يؤلف كتابًا بهذا الاسم، كما في دراسة تحليلية يعرض وقوع الثوار في حيرة أهل الثقة وأهل الخبرة بكتابه "مذكرات وزراء الثورة". وفي دراسة بفكر غير تقليدي أيضًا للقضايا السياسية الراهنة يجمع مقالاته عن الصراع العربي الإسرائيلي في كتاب له بعنوان: "الفلسطينيون ينتصرون أخيرًا". وهكذا بتجميع دراساته للقضايا العامة في ستة مجالات: التنمية الاجتماعية والاقتصادية، مستقبل الجامعة العربية، القاهرة تبحث عن مستقبلها، مستقبلنا في مصر: دراسات في الإعلام والبيئة والتنمية، الصحة والطب والعلاج في مصر، آراء حرة في التربية والتعليم، التنمية الممكنة، أفكار لمصر من أجل الازدهار.. تدعو إنجازاته هذه إلىٰ أن يطلب منه الاشتراك بجهوده في: موسوعة الكويت العلمية للأطفال، وفي الموسوعة الإسلامية العامة، ومعنا في موسوعة الشروق (التي ظهر منها الجزء الأول فقط ثم توقفت)، وموسوعة آل البيت، ومن ثم يكسب تسع عضويات: لجنة موسوعة وزارة الأوقاف بالمجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، فاللجنة المصرية لتاريخ وفلسفة العلوم، وبأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا: خبير لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلىٰ للثقافة، فاللجنة التحضيرية لمؤتمر تطوير التعليم الثانوي، عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية لتاريخ وفلسفة العلوم، عضو المجمع المصري للثقافة العلمية، عضو لجنة معهد الدراسات المتقدمة في حلف الأطلنطي لصياغة تقرير مستقبل البيئة في الثمانينيات، كما عمل مستشار الأكاديمية الطبية العسكرية (1986 – 1990) والهيئة العامة للاستعلامات لموسوعة الشخصيات المصرية (1985 – 1989)، ومقرر لجنة التلوث بالضوضاء في الاتحاد العالمي للشباب والبيئة، ومسؤول اللجنة الثقافية بالجمعية المصرية لأمراض القلب.

ويقول عنه أستاذه الدكتور كمال محمد دسوقي في حفل استقباله بمجمع اللغة العربية:

"من أجل هذا، لم يكن من المستغرب أن نفاجأ في آخر أيام تقديم أوراق ترشيح دفعة أولىٰ من الزملاء الجدد بتلقي ملف ضخم بمؤهلات ترشيح الدكتور محمد محمد الجوادي لعضوية المجمع. فالاسم ليس غريبًا علىٰ أسماعنا، ولا الشخص بعيدًا عن مطالعاتنا بالصحف اليومية، وتقديرنا لما يبعث به لكل منا بين الحين

والحين من إهداءات كتبه وبحوثه التي نشكره عليها. وهو هو الشخص الممتلئ حماسة وحيوية الذي نلتقي به في شتىٰ مجالات أنشطتنا بمجامع البحوث العلمية والإسلامية ولجان الثقافة العلمية والإعلام والمجالس القومية المتخصصة. مما يعيد لكل منا صورة شبابه في واحد أو أكثر من ميادين نشاطه، فيتمنىٰ لو أنه كان مزكيه علىٰ طلب ترشيحه مع مرشحيه الكبيرين هيكل وعلم الدين، ويُضمرُ في نفسه أنه سيصوت له ويرحب به- لا عبرة بكونه قد اكتشف أنه يتقدم لكرسي التاريخ الشاغر منذ المرحوم حسين مؤنس، أو ربما لِعدَم العلم بأن المتقدم لهذا الكرسي منذ أواخر الدورة الماضية أوراقه مودعة لدىٰ الأمين العام في سرية لم يكشف النقاب عنها بحكم مسؤوليته عن الحياد، وهو العالم الجليل الأستاذ الدكتور حسنين ربيع أستاذ التاريخ بكلية الآداب والنائب السابق لرئيس جامعة القاهرة- الذي لاشك سوف يسعده حين يظفر بالانتخاب في دورته العامة التالية (التي كان مقررًا أن تتأجل لما بعد المؤتمر حيث يكون قد تم استقبال الأربعة الفائزين لرفع نصاب ثلثي عدد الناخبين ويكون الجوادي قد قام بواجب تزكية الأستاذ الكبير وحسن استقباله- لولا أن تقرر التعجيل بانتخابات المرحلة الثانية) سوف يسعده حينئذ أن يتخذ منه العون والسند في وصل التاريخ الوسيط والحديث بالمعاصر، وإنشاء قاموس للأعلام العربية يعنىٰ بالمصطلحات السياسية المستحدثة كمكونات أساسية في العلوم التاريخية، ويتوسع في مجموعة الأفعال الرباعية الخاصة بالتكنولوجيا- كما يقول بمقال الجمهورية 11/ 2/ 2003م".

ومازال الجوادي يحصد نتاج مواقفه الرائعة التي انحاز فيها للحق، فهو محروم من عناق أرض مصر، التي لم تغب عن فؤاده لحظة، لم يستسلم كغيره من العلماء الذين آثروا الهدوء والابتعاد عن المشكلات، بل ضن بعضهم علىٰ مصر التي راعته وعلمته وفضل المكوث بإرادته خارجها يفيد دولًا أخرىٰ، ولكن الجوادي ليس كذلك فهو وطني من طراز فريد، عاش بوجه واحد لم يتلون ولم يتزلف لحاكم، وهم وإن كرموه فهو نتاج لعمله وتميزه وتفوقه.

رائد الصحوة الإسلامية في تركيا
بديع الزمان سعيد النورسي

بديع الزمان سعيد النورسي واحد من العظماء الذين ألقىٰ الله علىٰ كاهله مسئولية النهوض بتجديد الحياة في الإيمان الراكد في القلوب، وبعبء التصدي لهذا التيار الجارف الذي كاد يسلخ الشعب التركي عن تاريخه ودينه وإسلامه. ويرجع الفضل فى تعريف الأمة الإسلامية بفضل وقيمة هذا الرجل العلامة النورسي إلىٰ العالم العراقي الكبير إحسان قاسم الصالحي المولود بكركوك سنة 1936، فقد كان والده أيضًا من كبار العلماء ويتقن اللغة التركية وكان مرجعًا للآلاف من طلاّب العلم والمعرفة باللغتين العربية والتركية وأدبائهما وشعرائهما والسابرين في أغوارهما، حتىٰ وافاه الأجل سنة(1963). فقد ورث ابنه منه هذا الاهتمام، وقد كان الأستاذ إحسان قاسم يقضي الصيف في تركيا كل عام، وفي سنة 1957 وقعت في يده إحدىٰ "رسائل النور"، فقرأها وأحس بعمقها، وأصر علىٰ مطالعة آثاره كلها، ومنذ هذا التاريخ وقع علىٰ كاهله ترجمة هذا الأثر العظيم من رسائل النور، وكتابة أكثر من مصنف حول سيرة هذا الرجل العظيم، الذي انتشل تركيا من الإلحاد، والذي فرضه عليه الماسوني اليهودي "كمال أتاتورك" بقوة الدبابة ونصل السيف وسطوة البارود والرصاص ولم يفلح الاتجاه العلماني في نزع تركيا من محيطها الإسلامي، فهي تعود بقوة إلىٰ محيطها الإسلامي قوة دافعة ومؤثرة في السياسة الدولية يهابها الكثير.

ولد سعيد النورسي في عهد السلطان عبد الحميد.. أواخر عمر الدولة العثمانية الآيلة للسقوط، وعاصر تكالب الأعداء وتزاحمهم للقضاء علىٰ هذه الدولة، يحدوهم الحقد الأسود علىٰ الإسلام في شخص دولة الخلافة رغم ما بذله السلطان عبد الحميد من جهود للمحافظة علىٰ دولته المترامية الأطراف طيلة ثلاثة وثلاثين سنة متوسلًا بدهائه السياسي والإفادة من الظروف الدولية، ومحاولة إيقاظ العالم الإسلامي وتنبيهه إلىٰ ضرورة المزيد من الوحدة والتماسك فيما بين شعوبه أمام الأعاصير القادمة من أوروبا الموتورة، إلا أن ذلك جاء بعد فوات الأوان؛ لأن الدوائر

الأجنبية قد أعدت العدة للإجهاز على هذه الدولة بمساعدة عملاء لهم من الداخل استطاعوا تنفيذ المؤامرات التي حيكت بدقة، ونجحت في إزاحة السلطان عبد الحميد الداعي إلى الجامعة الإسلامية، وتبعه خلفاء ضعاف لم يستطيعوا الصمود أمام هذه الرياح العاتية التي نجحت في النهاية على أفول شمس الخلافة، وعمل مصطفى كمال أتاتورك الذي ألغى هذه الخلافة على قطع صلة تركيا بماضيها الزاهر المجيد، وغير من معالمها بقوة السلاح وإرهاب القانون، واستبدل القوانين الشرعية بقوانين سويسرية، وفرض الحياة الغربية على الأمة فرضًا، وجعل مخالفتها جريمة يعاقب عليها صاحبها بأشد العقوبات، واستبدل الحروف العربية حروفًا لاتينية.

في هذا المنعطف الخطير من حياة الأمة وأمام هذه الأعاصير الهائلة المزعزعة للحياة الاجتماعية بأسرها، ظهر بديع الزمان ليحمل هموم الأمة ويقوم بأعباء رسالة نذر لها نفسه وحياته وكل لحظة من وقته بعيدًا عن المحافل السياسية وأروقتها، وانكب على تأليف "رسائل النور" ونشرها بين طبقات الأمة في ظروف غاية في الدقة والصعوبة، ليهيئ بها مجتمعًا إسلاميًا كاملًا يتدفق بالحيوية والإيمان.

ولد سعيد النورسي في قرية "نورس"، وهي إحدى قرى قضاء "خيزان" التابع لولاية "بتليس" شرق الأناضول سنة (1293- 1873)، كان والده ورعًا يضرب به المثل، لم يذق حرامًا، ولم يطعم أولاده من غير الحلال، ظهرت مخايل النبوغ والذكاء على سعيد منذ الصغر، حيث كان دائم السؤال والاستطلاع لكل ما استغلق عليه فهمه، فكان يحضر مجالس الكبار، حفظ القرآن الكريم، وسافر إلى مدينة "وان"، وتعلم كتب الفقه والتاريخ والعلوم الحديثة كالرياضيات، والفلك، والكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، وذاعت من هذه الوقت شهرته، وأطلق عليه لقب "بديع الزمان"، وفي هذا الوقت من إقامته في مدينة "وان" يقرأ في الصحف المحلية خبرًا مدهشًا هز كيانه كله هزًا عنيفًا، فقد نشرت الصحف ما قاله رئيس الوزير البريطاني "جلادستون" في مجلس العموم البريطاني، وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم: "ما دام هذا القرآن بيد المسلمين، فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود

أو نقطع صلة المسلمين به....". زلزل هذا الخبر كيانه زلزالًا شديدًا، وصمم بينه وبين نفسه علىٰ أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن، وربط المسلمين بكتاب الله حيث قال:" لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها".

ويذهب إلىٰ استانبول، ويلتقي بكبار العلماء والأدباء منهم الشاعر المشهور "محمد عاكف"، وكان الرجل جريئًا شجاعًا لا يهاب أحدًا، فقدم أثناء إقامته بإستانبول عريضة إلىٰ السلطان عبد الحميد يطلب فيها فتح المدارس التي تعلم العلوم الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء بجانب المدارس الدينية في شرق الأناضول حيث يخيم الجهل والفقر علىٰ سكانه، ثم يقابل السلطان عبد الحميد، وأثناء مقابلته ينتقد نظام الاستبداد، ونظام الاستخبارات لقصر "يلدز"، مما أثار نقمة حاشية السلطان، وأحالوه إلىٰ محكمة عسكرية، ويتكلم أثناء المحكمة بثقة وجرأة كبيرة مما حدا برئيس المحكمة لإحالته إلىٰ أحد أطباء لفحص قواه العقلية، وعندما حضر الطبيب لفحصه يبادره النورسي بحديث يأخذ بمجامع قلب الطبيب الذي كتب عنه: "لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان، فمعنىٰ ذلك أنه لا يوجد علىٰ وجه الأرض كلها عاقل واحد".

ويذهب إلىٰ "سالونيك" التي تضم كل المتآمرين ضد وجود الخلافة من جماعة "الاتحاد والترقي" ويهود الدونمة، ويواجههم بكل شجاعة:" لقد أعتديتم علىٰ الدين وأدرتم ظهوركم للشريعة"، ويقابل الماسوني الكبير "قرصو باشا"، الذي عرض علىٰ السلطان عبد الحميد ذات يوم بأن يعطي لهم فلسطين مقابل مساعدة الدولة العثمانية في عثراتها الاقتصادية والسياسية فرد عليه قائلًا: هذه أرض المسلمين جميعًا ولا أملك منحها لأحد، فرد عليه هذا الماسوني الشرير: "سترىٰ كم يكلفك هذا الرفض".. ويفر "قرصو" من أمام النورسي مذعورًا ليقول:" لقد كاد الرجل أن ينحيني بحديثه فىٰ الإسلام".

وشهد بعبقريته الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية عندما زار الآستانة في عام 1908. ودار بينه هذا الحوار، وأراد علماء استانبول– الذين عجزوا

عن إلزام سعيد النورسي– أن يقوم بمناظرته وقد قبل الشيخ بخيت ذلك وانتهز فرصة وجوده في مقهىٰ قرب جامع" أيا صوفيا" بعد انتهاء الصلاة ليبدأ الحديث معه أمام جمع من العلماء ويوجه إليه السؤال الآتي:

ما رأيك في الحرية الموجودة الآن في الدولة العثمانية؟ وماذا تقول في مدينة أوروبا؟

فأجابه سعيد النورسي: إن الدولة العثمانية حبلىٰ بجنين أوروبا وستلد يومًا ما، أما أوروبا فهي حبلىٰ بجنين الإسلام وستلد يومًا ما ... وأمام هذا الجواب الموجز العميق لم يتمالك الشيخ (بخيت) نفسه من القول:

إنني أوافق علىٰ كلامه، وإنني أحمل هذا الرأي نفسه ولا يمكن المناظرة والمناقشة مع هذا الشاب.

وبعد عزل السلطان عبد الحميد عام 1909، يتعرض يقبض عليه وكاد يتعرض للإعدام من قبل جمعية "الاتحاد والترقي"، وقال لهيئة المحكمة:" لو أن لي ألف روح لما ترددت أن أجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام"، ولم تجد المحكمة بُدًّا من براءته، ويذهب إلىٰ الشام بعد ذلك، ويحث أهلها عبر الخطب البليغة، وشخص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجها، ودعاهم إلىٰ الوحدة ونبذ الفرقة وإعمال الصدق والإخلاص، ثم يشارك مقاتلًا في الحرب العالمية الأولىٰ، وأثناء دفاعه عن "بتليس" يصاب بجرح بالغ، يوقع علىٰ أثره في الأسر من قبل الروس، ويرسل إلىٰ أحد معسكرات الأسر في "قوصترما" شرقي روسيا، ومكث في الأسر سنتين وأربعة أشهر، واستطاع الهرب أثناء اندلاع "الثورة البلشفية" في روسيا وما تبعها من اضطراب وفوضىٰ، وتنتهي الحرب العالمية باحتلال استانبول ودخول جيوش الحلفاء إلىٰ تركيا والشماتة تسيطر عليهم، فلم ينسوا الصراع التاريخي وسقوط القسطنطينية منذ خمسة قرون عندما فتحها السلطان محمد الفاتح، وتحاك المؤمرات بليل ويتفق الصليبيون علىٰ دفع القائد الماسوني مصطفىٰ كمال أتاتورك وإغرائه بنصر متفق عليه سلفًا مقابل تحقيق حلم حياتهم وهو القضاء علىٰ الخلافة العثمانية، وكان النورسي أول العلماء اكتشافًا لنية الذئب الأغبر الخبيثة (أتاتورك)،

ولمس سلوكه عن قرب وجد أنه يعادي الإسلام وينفر منه، وحدثت بينهما مشادة عندما حث النورسي الجنود والقادة علىٰ التمسك بالإسلام وإقامة الصلاة، فانصاعوا له بعدما أسر قلوبهم، فغضب أتاتورك من هذا متهمًا إياه ببث الفرقة بين الجنود، فرد عليه النورسي مشيرًا إليه في حدة : "باشا باشا، إن أعظم حقيقة بعد الإيمان هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي فهو خائن، وحكم الخائن مردود".

بعد انهيار الخلافة، عمل أتاتورك علىٰ سلخ المجتمع التركي عن الإسلام، كما أسلفنا- ووقف له العلماء بالمرصاد فكان جزاؤهم السجن والنفي والتشريد، وكان أن أبعد الشيخ سعيد النورسي إلىٰ مدينة "بارلا"، وهنا يمكث في هذه البلدة ثماني سنوات، ألف خلالها معظم رسائل النور، وفي تلك السنوات الحالكة كان الإسلام يتعرض لزلزال كبير في تركيا، فالحرب ضد الإسلام تقودها الحكومة بكل أجهزة الدعاية والإعلام التي تملكها، وبأقلام جميع المنافقين والمتزلفين وأعداء الإسلام من الكتاب والصحفيين، وهم موجودون في كل عصر كسحرة فرعون، ولو أن سحرة فرعون آمنوا لما رأوا برهان ربهم- في الوقت الذي كممت فيه دعاة الإسلام، وحيل بينهم وبين الدفاع عن عقيدتهم، لذلك تعرضت أسس الإسلام وأصوله الأولية إلىٰ الشك والإنكار في نفوس كثير من الشباب الذي لم يكن يجد أمامه مرشدًا وموجهًا؛ لذلك قرر سعيد النورسي أن يحمل علىٰ كاهله وأن يحاول إنقاذ الإيمان في تركيا.

كان تأليف "رسائل النور" ونشرها شيئًا متميزًا وفريدًا في تاريخ الدعوة الإسلامية المعاصرة، وكان الشيخ يمليها علىٰ طلابه في حالات من الجيشين الروحي والوجداني، وبعد ذلك تتداول النسخة الأصلية بين التلاميذ الذين يقومون بدورهم باستنساخها باليد، ثم ترجع هذه النسخ جميعها إليه لكي يقوم بتدقيقها وتصحيح أخطاء الاستنساخ إن وجدت، ولم يكن لديه أية كتب أو مصادر يرجع إليها عند التأليف سوىٰ القرآن الكريم، وقد ساعده علىٰ ذلك ما وهبه الله من ذاكرة خارقة وقدرة عجيبة علىٰ الحفظ، فكان يستقي عند تأليف رسائله من محفوظاته في مصادر العلوم الدينية التي كان قد قرأها في بداية حياته، واستطاعت هذه الرسائل أن تحافظ علىٰ التعاليم الإسلامية في الصدور، وهي التي جعلت المجتمع التركي يلفظ

العلمانية بعدما تجبرت في الأرض العثمانية بغشم القانون الكماليّ القاسي، وعادت تركيا إلىٰ دوحة الإسلام تؤثر فيه، وانزوىٰ حكم الجنرالات إلىٰ غير رجعة.

رحيله:

وفي الساعة الثانية والنصف صباحًا يوم الأربعاء الخامس والعشرين من رمضان سنة 1379هـ (23 مارس 1960م) يتحسس أحد طلابه حرارته فيجدها قد انخفضت قليلًا فيغطيه ويقوم بإشعال الموقد في الغرفة وهو يحمد الله علىٰ تحسن صحة الأستاذ . ولكن الصباح يقترب ولا يقوم الأستاذ لصلاة الصبح.. يكشف أحدهم عن وجهه فيعرف الحقيقة لقد انتقل أستاذه إلىٰ بارئه .

وينتشر الخبر في "أورفة" أول الأمر فتتجمهر الألوف حول الفندق ثم يتتشر الخبر في المدن التركية الأخرىٰ ويبدأ سيل من الناس بالوفود إلي المدينة وعلىٰ أكتاف طلابه ومحبيه وعشرات الآلاف من المشيعين وبينما المطر ينزل رذاذًا من السماء يواري الأستاذ العظيم بالتراب في مقبرة "أولو جامع "، وبعد رحيله بأيام وقع انقلاب عسكري في 27 مارس سنة 1960 أطاح بالحزب الديمقراطي وسيق أعضاء الحكومة إلىٰ المحكمة التي أطلق عليه اسم "محكمة الدستور"، وانتهت هذه المحكمة بتنفيذ حكم الإعدام برئيس الوزراء "عدنان مندرس" وعلىٰ اثنين من وزرائه وبمدد مختلفة للوزراء وللمسئولين السابقين في حكومة الحزب الديمقراطي، كما بدت عداء لجميع التيارات والحركات الإسلامية في تركيا ومنها حركة "طلاب النور "وكأن حقد أعداء الإسلام وغيظهم علىٰ الأستاذ سعيد النورسي لم ينته حتي وفاته، فأرادوا الانتقام منه وهو في القبر، فقاموا بعمل لا يقع مثله في التاريخ إلَّا نادرًا، قاموا بنقل رفات هذا العالم الجليل إلىٰ جهة غير معلومة:

في يوم 11 تموز سنة 1960 توجه وإلىٰ مدينة "أورفة" مع القائد العسكري للقطاع الشرقي بطائرة عسكرية إلىٰ مدينة "قونيا" حيث كان شقيق الأستاذ سعيد النورسي الشيخ "عبد المجيد " حيث استدعي إلىٰ قصر الوالي وقيل له سنقوم بنقل رفات أخيك الشيخ سعيد النورسي من أورفة ، وسيتم هذا النقل علىٰ افتراض طلبك أنت ، لذا وقع علىٰ هذه الورقة ، فرد عليهم الأخ قائلًا:" ولكني لم أطلب هذا".

"لا داعي للإطالة، وقِّع علىٰ هذه الورقة".. فقال له:

وهكذا أجبر المسكين تحت التهديد والوعيد علىٰ تنفيذ طلبه وتم نقل الرفات الشيخ الطاهرة إلىٰ جهة غير معلومة وبرغم التضييق والوعيد والبغض الشديد للإسلام سرت دعوة الشيخ سعيد النورسي في الآفاق، وقيض الله تلامذة له مخلصون رزقوا خصال الحواريين في إخلاصهم، وبفضل دعوته هذه عادت تركيا من غربتها الملحدة الفاجرة التي فرضها عليها الكماليون الصهاينة عقودًا من الزمان، وحوكم كل من أجرم في حق تركيا ولم تسقط جرائمهم بالتقادم.

حامد جوهر
عاشق الأحياء المائية في البحر الأحمر

رجل دفعته الأقدار للمجيء إلىٰ الغردقة في رحلة قصيرة مكافأة له من أستاذه السويسري "أدولف بيف" فلما جاء إليها، وجد فيها الهدوء والسكينة التي توفر له الإبداع العلمي، لذلك عشقها إلىٰ آخر يوم في حياته، إذ وجد البقاء بها امتدادًا لرسالته العلمية التي آمن بها طيلة حياته، وفي معهد علوم البحار الذي كان يتبع كلية العلوم بالجامعة المصرية كانت له إنجازات في تطويره والارتقاء به فعمل علىٰ تأسيس متحفه، وإقامة مكتبته الضخمة التي أمدها بأمهات الكتب العالمية في علوم البحار، وأنجز فيها معظم أبحاثه العلمية التي أوصلته للعالمية، إنه بحق قيمة كبرىٰ تستحق الذكر والتمجيد.

ولد حامد عبد الفتاح جوهر بمدينة القاهرة سنة 1907م ونشأ في أحضان أحيائها القديمة ذات الأصالة والعراقة، وتعلم في مدرسة السلطان الحنفي الأولية، ثم التحق بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بحي الدرب الأحمر، حيث تعلم فيها مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ جانبًا من القرآن الكريم، وساعده ذلك علىٰ استقامة لسانه في نطق اللغة العربية.

انتقل حامد جوهر بعد ذلك إلىٰ مدرسة الأوقاف الثانوية الملكية (مدرسة الخديوي إسماعيل الثانوية فيما بعد)، وتعلم من أستاذ اللغة العربية بها "عبدالله العفيفي" حب اللغة والأدب وخصوصًا الشعر الذي حفظ الكثير منه في عصوره وبخاصة الجاهلي فحفظ المعلقات، وشغف بشعر المتنبي، وأبي العلاء المعرىٰ، وشوقي، وحافظ، وأثناء حياته المدرسية أحب العلوم الرياضية واللغة الإنجليزية واللغة العربية وكانت له هوايات في الموسيقىٰ والتصوير الفوتوغرافي كما عشق السباحة حيث تعلمها في حمام وزارة المعارف.

وبعد حصوله علىٰ شهادة البكالوريا (الثانوية العامة الآن) عام 1925م، التحق بكلية الطب ونجح في الفرقة الإعدادية بتفوق، وانتقل إلىٰ الفرقة الأولىٰ، لكنه آثر أن

يتحول إلىٰ كلية العلوم حديثة النشأة في ذلك الوقت في مصر، بل في الشرق العربي كله، وكان يجري في دمه ميلًا إلىٰ دراسة العلوم الطبية والطبيعية والبيولوجية لذلك فضل كلية العلوم الوليدة، وكان من أساتذته: رائد علم الحيوان في مصر الدكتور محمد خليل عبد الخالق، وخاصة علم الطفيليات والتي كانت تعكس الأهمية للبحوث العلمية علىٰ تقدم الطب، والدكتور علي مصطفىٰ مشرفة، والدكتور مصطفىٰ نظيف.

تخرج أول دفعته عام 1929م، بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولىٰ متخصصًا في علوم الحيوان والنبات وتخرج معه في دفعته عشرون آخرون منهم: الدكتور محمد مرسي أحمد وزير التعليم العالي فيما بعد، والدكتور محمد مختار عالم الفيزياء الشهير الذي لقب بأبي الفيزياء في القرن العشرين، والدكتور عبد الفتاح محمد عالم الكيمياء البحرية، بعد ذلك حصل علىٰ درجة الماجستير في علم الحيوان بعنوان: "التشريح الدقيق وهستولوجيا الغدد الصماء في الأرانب" عام 1931م، وقد كانت أول رسالة تُقدم لكلية العلوم بعد إنشائها بإشراف العالم السويسري الجنسية "أدولف نيف"، أستاذ ورئيس قسم الحيوان بالجامعة المصرية.

المجيء إلى الغردقة وعشقه لها:

وقد كان حامد جوهر موضع تقدير أستاذه "أدولف نيف" والذي كان جوهر يساعده في دروسه العلمية للطلاب، ورأىٰ أن يكافئه علىٰ الجهد الذي بذله في رسالته للماجستير، فأخذه معه إلىٰ الغردقة علىٰ ساحل البحر الأحمر حيث كانت الجامعة المصرية قد أنشأت محطة بحوث تختص بدراسة الأحياء المائية، وسافر المعيد حامد جوهر مع أستاذه إلىٰ الغردقة، ولأول مرة في حياته في يوم 5 يوليو 1931م، حيث استقلا السيارة من القاهرة إلىٰ السويس، ثم استقلا المركب "جانيرا" التابعة لشركة الزيوت المصرية الإنجليزية، وكانت هذه الزيارة المنعطف المهم في مسيرة حامد جوهر العلمية والعملية.

ما كاد حامد جوهر يرىٰ البحر الأحمر في محطة الأحياء المائية بالغردقة حتىٰ شغف بها حبًّا، ولاعتبارات علمية ووطنية آثر المقام علىٰ شطآنه ليعمل مساعدًا للرئيس الأجنبي "كروسلاند"، ولاحظ جوهر أن العينات البحرية الثمينة من كائنات

البحر الأحمر الرخوية والمرجانية يبعث بها إلىٰ المتاحف العلمية الأجنبية، ففضل المقام في الغردقة حارسًا أمينًا علىٰ ثروتنا العلمية الموجودة بالبحر الأحمر وكأنما فتنته عرائس البحر، فاتخذ من البحث العلمي في كائناته وأسماكه ذريعة ليبقىٰ بجوارها متبتلًا في محرابها، خبيرا عالما من علماء البحار المرموقين، وعندما تفرغ للعمل في محطة الأحياء البحرية في الغردقة دفع بوقته كله الدراسة والبحث علىٰ تطوير المكان، فبدأ يتأمل المكان بعين الخبير المدقق والعالم الأمين، فأعجب بالشطآن الرملية والصخرية المتعرجة والمراجين الحمراء، والزرقاء، والأرجوانية، التي تستقر تحت الماء الأزرق الفيروزي الذي لا مثيل له في النقاء والصفاء.

ووقع اختيار حامد جوهر علىٰ إحدىٰ المرجانيات اللينة، لم تكن حياتها معروفة من قبل علىٰ مستوىٰ العالم كله، وكان قدماء البحارة يطلقون عليها "الزينة" واختارها للدراسة والبحث وتطرق إلىٰ طرق جديدة في بحثه لم تكن معروفة من قبل وبعد سنوات أربع من دراسته تقدم بحصيلة هذه الدراسة في رسالة علمية حصل بها علىٰ "الدكتوراه" في العلوم (DSC)، وهي أرفع درجة علمية في العالم .. وكانت أول مرة تمنح فيها هذه الدرجة العلمية من جامعة القاهرة بعد أن أرسلت الجامعة الرسالة إلىٰ الجمعية الملكية بلندن لتقييم الرسالة علىٰ مستوىٰ نفس الدرجة التي تمنحها الجامعات البريطانية، وجاء الرد من إنجلترا من العلماء المختصين يقول:" إن مستوىٰ الرسالة يفوق المستوىٰ المطلوب للحصول علىٰ درجة دكتوراه العلوم التي لا تمنح إلا للإنجازات العلمية الرفيعة، والتي توصلت إلىٰ نتائج تعد إضافات جديدة إلىٰ المعلومات المعروفة عن هذا التخصص".

ولم تفتنه الدرجة العلمية التي حصل عليها، ولم يتطلع إلىٰ سكن المدينة أوالمناصب الرفيعة التي عرضت عليه ولكنه آثر البقاء في الغردقة صومعته، ينجز الأبحاث التي نشرت في كبرىٰ الدوريات العلمية العالمية وقد تتلمذ علىٰ يديه المئات من الدارسين والذين حصلوا بإشرافه علىٰ درجات الماجستير والدكتوراه.

لقد أنشأ في معهد علوم البحار متحفًا بحريًا رائعًا به مجموعة تحتوي علىٰ الغالبية العظمىٰ من حيوان البحر الأحمر ونباته، بحيث تعد مرجعًا لدراسة هذا البحر، كما

أنشأ مكتبة تضم أغلب المراجع الأساسية لدراسة البحر الأحمر تجمّع معظمها عن طريق التبادل مع المعاهد العلمية البحرية العالمية، كما أنشأ معهد الأحياء المائية بعتاقة بالسويس وأقام به متحفًا آخر لأحياء البحر الأحمر نسقها تنسيقًا تصنيفيًا وبيئيًا علىٰ أحدث النظم والأصول العلمية، ولقد نشر الدكتور جوهر بحوث محطة الأحياء البحرية، وأشرف علىٰ طبعها وتبادلها علىٰ ثلاثمائة معهد في الخارج وظل يشرف علىٰ طبعها بانتظام ما يزيد علىٰ ربع قرن من الزمان.

وقد كسب الدكتور جوهر ببحوثه ودراساته شهرة عالمية، فشارك في عشرات المؤتمرات الدولية في علم الحيوان وعلوم البحار والمصائد، كما زار عددًا كبيرًا جدًّا من الجامعات والمعاهد الخاصة بعلوم البحار والمصائد ومحطات الأحياء البحرية ومتاحف التاريخ الطبيعي.

صور من التكريم:

ذاع صيت الدكتور حامد جوهر وحقق شهرة مدوية، وأصبح حديث الناس والهيئات العلمية، وكُرّم من أكثر من جهة، فقد دعته جامعة "كمبردج" لمتابعة أبحاثه التي بدأها بالخارج، وانتخبته أكاديمية العلوم للعمل عضوًا رسميًا في المؤتمر الدولي للمعاهد البحرية 1956م، واختارته الأمم المتحدة مستشارًا للأمين العام لها في علوم البحار ضمن عشرة مستشارين، وكذلك اختارته المؤسسة المصرية العامة للثروة المائية عضوًا في مفاوضات الحكومة السوفيتية للتعاون في مجال الصيد 1963م، وكان رئيسًا لجمعية علوم الحيوان في مصر منذ إنشائها وحتىٰ وفاته، ورئيسًا للجمعية المصرية لعلوم البحار، وزميلًا للأكاديمية المصرية للعلوم وتوج حياته بعضوية مجمع الخالدين (مجمع اللغة العربية) منذ 1973م وحتىٰ وفاته.

وفي أوائل يونيو 1992م أحس الدكتور حامد جوهر بوطأة المرض ودخل المستشفىٰ إلىٰ أن أسلم الروح لبارئها في 17يونيو 1992م وشيعه أحباؤه ومريدوه وتلامذته إلىٰ مثواه الأخير.

محمد رجب البيومي.. مؤرخ النهضة الإسلامية

علم من أعلام الأزهر المعاصرين الذين كانت لهم بصمه في إثراء حياتنا الأدبية فهو شخصية ثرية معطاءة، له الفضل في رصد نهضتنا الأدبية والإسلامية المعاصرة بما أبدعه من مؤلفات ومقالات كانت ومازال لها صدىً بين أوساط المثقفين والمؤرخين. إنه الدكتور محمد رجب البيومي الذي فقدناه يوم السبت الثاني من ربيع الأول 1432هـ الخامس من فبراير 2011، رحل دون أن يشعر به أحد وسط انشغال الناس بالأحداث التي كانت تجتازها مصر في ذلك الوقت، وفي هذا يتشابه مع رحيل الأديب مصطفىٰ لطفي المنفلوطي الذي رحل والناس مشغولة بمحاولة اغتيال الزعيم سعد زغلول فلم تشعر برحيله، وقد رصد أمير الشعراء شوقي هذا الموقف حينما رثىٰ المنفلوطي قائلًا:

اختَرتَ يَومَ الهَولِ يَومَ وَداع	نَعاكَ في عَصفِ الرِياحِ الناعي
هَتفَ النُعاةُ ضُحَىً فَأَوصَدَ دونَهُم	جُرحُ الرَئيسِ مَنافِذَ الأَسماع
مَن ماتَ في فَزَعِ القِيامَةِ لَم يَجِد	قَدَمًا تُشَيِّعُ أَو حَفاوَةَ ساعي
ما ضَرَّ لَو صَبَرَت رِكابُكَ ساعَةً	كَيفَ الوُقوفُ إِذا أَهابَ الداعي
خَلِّ الجَنائِزَ عَنكَ لا تَحفِل بِها	لَيسَ الغُرورُ لِمَيِّتٍ بِمَتاع

جاء رحيله والشعب نهض من عقاله وغفلته التي لازمته أمدًا طويلًا صبر فيها علىٰ الفساد الذي ران علىٰ أرض مصر وتغلغل في جذورها، والعجيب أن ميلاده شهد عصرًا جديدًا من الحرية فقد حصلت مصر علىٰ استقلالها وأنشأت دستورها الذي خلدها وجعلها تفوز بسنوات من الليبرالية الحقيقية التي ساهمت في نشر الوعي، وتحقيق الرخاء في كل المجالات برغم وجود قوات احتلال بغيض يعربد علىٰ أجزاء عزيزة من أرض الوطن.

وقد ولد في عام 1923م في قرية الكفر الجديد، التابعة لمركز المنزلة، بمحافظة الدقهلية، حفظ القرآن وهو دون الثامنة، وحتىٰ ينتظر بلوغه لدخوله الأزهر، حفظ متون النحو والصرف والبلاغة علىٰ يد والده القطب الصوفي، ثم التحق بمعهد

الزقازيق الديني يزامل هناك ثلة من الطلاب الذين صاروا أعلامًا فيما بعد أمثال: الشعراوي، ومحمد عبد المنعم خفاجي، وحسن جاد، وأحمد هيكل، ومحمد فهمي عبد اللطيف وغيرهم، وكان من الطلبة المتميزين المجتهدين الذين بزوا أقرانهم وذاع صيته بين الطلاب وكان أثيرًا عند شيخ المعهد، ثم يلتحق بكلية اللغة العربية يتلقىٰ العلم علىٰ أيدي الأعلام: محمد محي الدين عبدالحميد، وعبد الجليل عيسىٰ، وأحمد شفيع السيد، وإبراهيم الدجوي، ومحمد الخضر حسين، وغيرهم، وفي القاهرة تعرف إلىٰ منابر العلم والثقافة حيث كانت القاهرة مقصد العلماء والطلاب من الشرق والغرب، وكانت تكثر بها المجلات العلمية والأدبية مثل: "الرسالة"، و"الثقافة"، و"الكتاب"، و"المقتطف"، و"الهلال"، و"البلاغ "، و"الأزهر"، و"منبر الإسلام"، وغيرها، فبدأ ينتظم في الكتابة إلىٰ هذه المجلات والصحف وكون صداقات مع أحمد حسن الزيات، وأحمد أمين، وزكي مبارك، وخليل مطران، والمازني وآل زيدان وغيرهم، وهذا ما حكاه فيٰ كتابه المهم: (من أعلام العصر، كيف عرفت هؤلاء)، تخرج في كلية اللغة العربية عام 1949م، ويحصل علىٰ دبلوم معهد التربية عام 1950م، ثم عُين بوزارة المعارف منذ عام 1950 في دار المعلمات بالإسكندرية، والفيوم، وديروط، وهو من الباحثين العصاميين الذين لم يكتفوا بمرحلة من مراحل التعليم فحصل أثناء عمله معلمًا علىٰ الماجستير عام 1967م، ثم علىٰ الدكتوراه عام 1969 عين بعدها مدرسًا، فأستاذًا مساعدًا، فأستاذًا في كلية اللغة العربية بالمنصورة، ثم أعُير إلىٰ المملكة العربية السعودية أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود وكوّن صداقة قوية مع صاحب مجلة "المنهل" الذي ظل يكتب بها حتىٰ وفاته، وقد نشر هناك العديد من الدراسات القيمة، وفي هذه الفترة يفقد زوجته ورثاها في ديوان "حصاد الدمع"، وعند عودته يعين عميدًا لكلية العربية بالمنصورة لمدة عشرة أعوام.

كان الدكتور البيومي غزير الإنتاج ما ترك صحيفة أو مجلة إلا وكتب فيها، وقد بدأت رحلته مع الكتابة عندما بعث بمقالة إلىٰ مجلة "الأزهر" وكان يرأس تحريرها محمد فريد وجدي، وكان المقال عن غزوة بدر لخصه من كتب التاريخ والسيرة،

علىٰ غرار ما كان يكتبه العلماء، فبعث إليه الأستاذ وجدي برسالة يوجهه فيها إلىٰ أن كتابة المقال ليست سردًا للأحداث بقدر ما تكون سردًا للوقائع والأحداث، وتحليلًا لها واستخلاص العبر والنتائج واستخدام المنهج العلمي السليم ولا ضير التأثر بمناهج المؤرخين المحدثين، وقد توطدت صلته بوجدي حتىٰ رحيله، وكان الأمين علىٰ تراثه فجمعه من بطون المجلات والصحف ونشره في كتب بتحقيقه نشرت بعد ذلك منها:" مهمة الإسلام في العالم"، و"السيرة النبوية في ضوء العلم الحديث".

مؤرخًا للنهضة الإسلامية:

أرّخ الدكتور البيومي للنهضة الإسلامية المعاصرة بالكتابة عن أعلامها البارزين في الشرق والغرب في كتابه الكبير "النهضة الإسلامية في سير أعلامها البارزين" في ستة أجزاء، صدر عن مجمع البحوث الإسلامية، وصدر في طبعة ثانية عن دار القلم بدمشق في مجلدين كبيرين، وقد كتب البيومي هذه الفصول علىٰ فترات في الصحف والمجلات وأهمها مجلة الأزهر، وفيها يتناول سير نخبة من الأعلام في مصر وخارجها من الأزهريين ومن الأزهزين فترجم للخضر حسين، وأحمد أمين، ومحمود أبو العيون، وعبد الحليم محمود، ومحمد الخضري، وطنطاوي جوهري، وعبد الوهاب النجار، وسيد علىٰ المرصفي، وعبدالوهاب عزام، ومحمد عرفة، ومحمود شلتوت، ومحمد مصطفىٰ المراغي، هؤلاء هم أعلام الأزهر الذين تخرجوا فيه وساهموا في النهضة العلمية والفكرية والأدبية ومن غير الأزهريين ترجم لعملاق الأدب العقاد ومحمد فريد وجدي (الذي خصه بمؤلف آخر صدر عن دار القلم بدمشق عن سلسلة "أعلام الإسلام")، ومصطفىٰ صادق الرافعي، والدكتور محمد حسين هيكل وأبو الأعلىٰ المودودي، ومحمد عاكف الشاعر التركي الكبير، ومحمد أحمد الغمراوي، ورشيد رضا، والكواكبي، وأبو الحسن الندوي، والمودودي، ومحمد زاهد الكوثري، ومصطفىٰ صبري، وغيرهم.

وتناول في هذه التراجم سيرهم ومحطات مهمة في حياتهم ثم يتعرض لأفكارهم وآثارهم وأعمالهم، راصدًا دورهم الحيوي في إثراء حياتنا الأدبية والعلمية والإسلامية، وقد قصد البيومي إلىٰ الاحتفاء بدور هؤلاء الذين أثروا في حياة الأمة

وساهموا يقظتها وبعثها بعد ران عليها عقود من الجهالة والضلالة والاستعمار فكافحوا الاستعمار وأذنابه في الدول الإسلامية، وصححوا المفاهيم يقول في مقدمة كتابه:" مهما اعترض المسلمون من خطوب، فهم بالقياس إلىٰ ماضيهم القريب يعيشون في ظل نهضة تبسط جناحها علىٰ أكثر مرافقهم المتشعبة، فنحن في النصف الأخير من القرن العشرين لا يمكن أن نقاس بمسلمي القرن التاسع عشر، إذ أن المسافة القريبة بيننا وبينهم قد تمخضت عن تقدم يبشر بالنجاح في أكثر الميادين..".

ويكشف عن غرضه ومنهجه في هذه الدراسات "وهذه النهضة النشيطة في حاجة ماسة إلىٰ من يفيها حقها من الدراسة والتقييم وقد اخترت أن اتحدث عنها في ظلال أبطالها من أئمة المسلمين، لا لأترجم لحياة هؤلاء الأبطال فما أقصر همة تتجه إلىٰ رصد سنوات الميلاد والرحلة والظائف والوفاة، إذ جعلت ذلك غاية جهدها المدون بين السطور، ولكن الحديث المثمر هو الذي يكشف عن أعمال المصلح، ويفسر دوافعه الذاتية، ويقدر جهاده الدائب فيما اعترضه من الصعاب، وإذ ذاك يتسع المجال للحكم العادل من المؤلف، والاطمئنان الواعي من القارئ الحصيف".(النهضة الإسلامية ج1 ص5)

وقد أضاف البيومي إلىٰ هؤلاء الأعلام، وخصوصًا الذين عاصرهم واحتك بهم إضافات رائعة في كتابه "من أعلام العصر، كيف عرفت هؤلاء" الذي نشره منجمًا في مجلة المنهل خلال عقد التسعينات من القرن الماضي، فكلا الكتابين قدما رؤية بانورامية شاملة عن أعلام النهضة وقد كان المؤلف يرجع لأعمال هؤلاء المتناثرة في بطون المجلات والصحف ويصعب الرجوع إليها اليوم فقدم زادًا للباحثين والقراء وأضاف إلىٰ متعة المعرفة متعة الأسلوب البياني الصافي الذي يكتب به، وهو في هذا متأثرًا بمدرسة البيان وأعلامها في العصر الحديث ومنهم: الإمام محمد عبده، ومصطفىٰ صادق الرافعي، وأحمد حسن الزيات، وطه حسين، وعباس العقاد، وزكي مبارك، وصادق عرجون، ومحمود محمد شاكر، وغيرهم ...

ولم ينحاز البيومي حينما تحدث في سيره إلىٰ رأي معين في الصراع الفكري الدائر حول موضوع الفرد من بيئته وموضوع البيئة من الفرد "أو بعبارة أخرىٰ: أيكون الفرد

بنبوغه ومقدرته قائدًا لبيئته ودافعها إلىٰ التقدم؟ أم تكون البيئة بتهيئها للإصلاح وترقبها إياه دافعة الفرد إلىٰ القيادة والتوجيه؟ فذلك جدل مضت عليه سنوات دون أن يقنع فريق بمذهب فريق مع أن الحق الذي لا مرية فيه أن الفرد والبيئة كل لا يتجزأ، ومحاولة الانتفاع بأحدهما علىٰ الآخر في كل الظروف والأحوال تطرف لا يجد مبرره المعقول، فقد يكون الفرد قائد مجتمعه في موقف، وقد يكون المجتمع مهيأ لبعض أفراده في موقف آخر، وصفحات التاريخ الإنساني علىٰ مد عصوره المتلاحقة تسرع بالدليل المقنع لمن يريد، وكان كتابنا هذا يتحدث عن نهضة قام بها أبطال معرفون لذوي البصر من المنصفين، وقد رأىٰ مؤلفه أن تسجيل روائع هؤلاء الأبطال يحيا مجدًا ويرسم قدوة، ويهيىء طريقًا محدود المعالم لقافلة أخرىٰ ينتهي بها السير إلىٰ نصر عزيز". (النهضة الإسلامية ج1 ص7، 8).

ردوده علىٰ العلمانيين:

وفي بداية التسعينيات استعرت المعركة بين غلاة العلمانيين (الذين كانوا يؤيدون الدولة في طغيانها وكرهها للتيار الإسلامي) وأصحاب الاتجاه الإسلامي، فأعادت طائفة منهم طبع الكتب القديمة التي أحدثت جدلًا كبيرًا زمن طباعتها، بل رجع أصحابها عن الأفكار التي نادوا بها مثل كتب:" في الشعر الجاهلي" لطه حسين، و"الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق، بالرغم من تراجع هؤلاء الكتّاب عن بعض آرائهم التي صاحبته بعض الاندفاع منهم في وقتها، وكان من الأمانة العلمية أن يتم التنبيه علىٰ ذلك عند إعادة طباعتها وبيان المعارك التي دارت رحاها حتىٰ يستقيم السياق وتظهر الحقيقة جلية وواضحة، وكان أن دعاه الإمام الأكبر الراحل جاد الحق علي جاد الحق للرد علىٰ هؤلاء، فاختار هو كتابين من هذه الكتب للرد عليهما هما:" الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق، و" مستقبل الثقافة في مصر" لطه حسين فرد علىٰ هذه الكتب ردًّا علميًّا رصينًا.

وكذلك أثبت أن علىٰ عبد الرازق قد رجع عن أفكاره التي أوردها بكتابه في حديث له مع الأستاذ أحمد أمين في مجلة رسالة الإسلام، فرجع البيومي إلىٰ أعداد المجلة وكانت مهمة شاقة حقًّا، واجهته لم يتسرع ولم يقرظ أفكارًا لم يقرأها كما

يفعل غيره ممن لا تهمهم الأمانة العلمية قدر الانتصار للأيديولوجية والمذهب والهوىٰ، وأخيرًا وجد ما يريد في عددين متلاحقين هما العدد الثاني والعدد الثالث من السنة الثالثة إبريل سنة 1951، ويوليو 1951؛ لأن المجلة فصلية تصدر كل ثلاثة شهور، في العدد الثاني ص 146 وجد مقالة للدكتور أحمد أمين تحت عنوان " الاجتهاد في نظر الإسلام" يقول في مطلعه:" كنت أتجادل في الشهر الماضي في الشهر الماضي مع معالي الأستاذ علىٰ عبد الرازق باشا، وكنا نتعرض حال المسلمين وما وصلوا إليه من جمود، فقال: إن دواء ذلك أن نرجع إلىٰ ما نشرته قديمًا من أن رسالة الإسلام روحانية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل، فقلت: إن رأيي أن رسالة الإسلام أوسع من ذلك فهي روحانية ومادية معًا، بدليل ما ورد في القرآن من نظام البيع والشراء، والإجازة والمعاملات المالية، ومسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونحو ذلك "، يكمل البيومي نقاشه ويعرج علىٰ المقال الثاني الذي أحدث المفاجأة فقال:" ثم صدر الثالث يحمل مقالًا تحت عنوان" الاجتهاد في نظر الإسلام" ص 246 بقلم الأستاذ علىٰ عبد الرازق باشا قال بعد أن نقل عبارة الدكتور أحمد أمين:" وقفت أمام ناظري كلمة رسالة الإسلام روحانية فقط، ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرىٰ قصة قديمة لهذه الكلمة معي، فقد زعم الطاعنون الذين جعلوا في قلوبهم الحمية يومئذ، أنني في ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا علىٰ ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددت عليهم وقلت لهم يومئذ صادقًا ومخلصًا: إنني لم أقل ذلك لا في هذا الكتاب ولا في غيره، وأسوق هذا الحديث ليذكر الأستاذ الكاتب الكبير أن فكرة روحانية الإسلام لم تكن لي رأيًا يوم نشرت البحث المشار إليه، وأني رفضت يومئذ رفضًا باتًّا أن يكون ذلك رأيي" وهو أمر يدعو للعجب فهو في هذا المقال يتراجع فيما دعا إليه صراحة في كتابه" الإسلام وأصول الحكم"، حينما قال في ص 69:" ولاية الرسول علىٰ قومه ولاية روحية منشؤها إيمان القلب وخضوعًا تامًّا يتبعه خضوع الجسم، وولاية الحكم ولاية مادية تعتمد علىٰ إخضاع الجسم من أن يكون له بالقلوب اتصال، تلك ولاية هداية علىٰ الله وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لصالح الحياة

وإعمار الأرض، تلك للدين وهذه للدنيا، تلك لله وهذه للناس، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية، ويا بُعد ما بين السياسة والدين".

ويعلق البيومي على هذا:" هذا بعض ما جاء في كتاب الإسلام وأصول الحكم وهو تأكيد لما ذكره الدكتور أحمد أمين عن الأستاذ، فما معنى هذا التعارض؟ يخيل إلى أن الأستاذ على عبد الرازق قد آثر التراجع بطريقة سياسية لا بطريقة علمية، وهو تراجع لا شك فيه"، وكذلك أورد رأي الزعيم سعد زغلول حول هذا الكتاب الذي ورد في كتاب آثار الزعيم سعد زغلول لمحمد إبراهيم الجزيري.

البيومي شاعرًا

غزت ربة الشعر البيومي صغيرًا، وكان يكتبه وهو طالب في كلية اللغة العربية التي اشتهر فيها بين أقرانه، وكان أساتذته يبهرون به وبنشاطه، وقد فتحت له الصحف والمجلات صفحاته في مواضع متميزة ويقسم الباحث البارع "أشرف عيد العنتبلي" في بحثه المتميز عن البيومي مراحل شعره، ويرى أنه يتميز شعره بمرحلتين عمريتين:
الأولى: مرحلة الشباب: تدفقت موهبته الشعر في مرحلة مبكرة من حياته، فنظم الشعر وهو طالب بكية اللغة العربية بالقاهرة، ولم يكمل العشرين من عمره، ونشرها بمجلة الإخوان المسلمين في الأربعينيات التي نجد بصمات تأثره بفكر الإخوان المسلمين الإصلاحي واضحًا في أشعاره في تلك المرحلة في الاهتمام بالقضية الفلسطينية التي احتلت مساحة كبيرًا من اهتمام الإخوان، وكذلك في محاربة الفساد السائد في المجتمع، وإبراز مجد المسلمين والاهتمام بالمناسبات الإسلامية، ومن ذلك على سبيل المثال: ويسير محمد رجب البيومي في أشعاره في مرحلة الشباب في معارضة نوابغ الشعر العربي كابن زيدون والمتنبي، وغيرهما في قصائده. وقد ترك الشباب بصماته على أشعاره التي نجد فيها ـ بجانب التصوير الشعري ـ الحماسة في تدفق المعاني وقوتها، حتى تشعر أن انطباع المرحلة العمرية ترك أثره في التفكير واختيار الألفاظ والصور والموضوعات، وهي كما سبق الإشارة إلى تأثره بفكر الإخوان المسلمين الذي ظهر أثره واضحًا في أشعاره في تلك الفترة، فقد سار الشاعر محمد رجب البيومي على خطا ابن زيدون يحن إلى جارة

الحي فلسطين الحبيبة، متذكرًا الأمجاد الخوالي من أجداد عظام:

ما زلتِ والهة ثكلىٰ تنوحينا ... يا جارة الحي ما يبكيك يبكينا

علت نواحيك آهات مروعة ... مثل التي أصبحت تعلو نواحينا

وناح طيرك مرتاعًا فقلت له ... لقد تعلمت من أطيار وادينا

ولاح لي غيثك الهطال منسكبًا ... فقلت هذي دموع من مآقينا

وفي ذكرىٰ غزوة بدر (17رمضان) يقول الشاعر محمد رجب البيومي من قصيدة بعنوان: "عبرة بدر" مهديًا إياها إلىٰ الأستاذ عبد الرحمن الساعاتي،ومنها يصور بعض أحداث المعركة حيث جبريل عليه السلام يحرس كتائب الله والخيل تصهل، والعيس تقفز:

دع التشدق يا مجنون بالخطب ... فالحكم للسيف ليس الحكم للأدب

إن الحسام إذا أعيتك ضائقة ... يلقي مواعظه في منطق عجب

كم في براهينه من آية كشفت ... عن العقول ظلام الشك والريب

الثانية: مرحلة النضج الشعري: وتأتي هذه المرحلة بعد بلوغه سن الأربعين ، ويبدو فيها واضحًا النضج الفكري والعلمي في الألفاظ والتصوير واختيار الموضوعات التي تأتي نتيجة للأحداث التي يمر بها في حياته، فأثناء الإعارة للسعودية فقد زوجته التي احتلت مكانة مرموقة في حياته مما كان له أثر بعيد الغور في أعماق نفسه؛ فتفجرت طاقته الشعرية معبرًا عما في نفسه من مشاعر نحوها كان من ثمرتها ديوانه: (حصاد الدمع)، وحين قدَّم لنا ديوان (حصاد الدمع) تطرق في الحديث إلىٰ ذكرياته مع زوجته وكيف عرفها وكيف اختارها من بين تلميذاته في الثانوية الأزهرية من أحد مراكز صعيد مصر، ثم ذكر رحلتها معه في الزواج وبعض طبائعها وأخلاقها، ثم دخل في سرد الذكريات المؤلمة ورحلتها مع المرض في المملكة العربية السعودية ثم كيف رجع بدونها. وإليك بعضًا من هذه الأبيات المؤثرة الباعثة علىٰ الشجن من قصيدة (أكباد أطفالي):

لم يا حمام هصرت غصن ... شبابها وله زهور غضة وثمارُ؟

أو صرت تهوىٰ الحسن تلك ... قضية نهض الدليل بها فلا إنكارُ

نلاحظ هنا أنَّ خواطر الشاعر بارزة جلية ولكن في ثوب شعري قشيب إلا أنها رسالة تصل إلىٰ قارئها نراها واضحة جلية متلازمة في ديوان الشعر الذي لفحه الوجد بناره وأضناه الفراق وسقاه البين لوعة وحنينًا، والتي تبرهن علىٰ حزن الشاعر.. وقد جعل ديوان (حصاد الدمع) كاملًا في رثاء زوجه، وذكر فضائلها ومآثرها وأثرها الكبير علىٰ حياته، مما يدل علىٰ عظم وفائه، ومن هذا الديوان قوله:

فقدتُ التي كانت تزود سريرتي ... فما دونها سترٌ علىٰ النفس

يُسدل ترىٰ غصصًا في غور نفسي دفينة ... فتعلمها علم اليقين وأجهل

كما يدل علىٰ وفاء الشاعر الدكتور محمد رجب البيومي الذي جارىٰ فيه كبار الشعراء الذين رثوا زوجاتهم مثل جرير وأبي تمام والشريف الرضي ومحمد بن عبد الملك والطُغْرائي وابن نباته والبارودي، إلا أنه يعتبر ثالث ديوان كامل في رثاء الزوجات بعد عزيز أباظة وعبد الرحمن صدقي.

والدكتور رجب البيومي رائد من رواد القصص التاريخي فهو امتداد لمدرسة جورجي زيدان، ومحمد فريد أبو حديد، وعلي الجارم، ونجيب محفوظ، وعبد الحميد جودة السحار، وعلي أحمد باكثير، وطه حسين، والرافعي، والمنفلوطي، وألف في هذا مئات القصص التي تدل علىٰ سعة اطلاعه الواسع علىٰ نوافذ التاريخ الإسلامي ، فهو العليم بأدق أسراره في لغة بيانية عذبة صافية، لو سلط عليها الضوء من جانب الباحثين لساهمت في رقي اللغة العربية، وقد كتب المسرحية الشعرية مثل : "ملك غسان"، و "انتصار"، و"فوق الأبوة"، بالإضافة إلىٰ كونه شاعرًا مطبوعًا يكتبه منذ أن كان طالبًا وله دواوين شعرية:" من نبع القرآن"، "حصاد الدمع"، و"صدىٰ الأيام"، و"حنين الليالي"، ومن مؤلفاته: "البيان القرآني"، و"خطوات التفسير البياني"، و"أحمد حسن الزيات"، و"البيان النبوي"، و"علماء في وجه الطغيان"، و"الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر"، و"قضايا إسلامية"، و"في ظلال السيرة "، و"ميزان الإسلام"، "من القصص الإسلامي"، ز"محمد فريد وجدي"، وغيرها.

ومنذ عام 1420هـ يتولىٰ رئاسة تحرير مجلة الأزهر أقدم مجلة إسلامية في الوطن

العربي، فعمل علىٰ نهضتها والارتفاع بشأنها، ونشر الأبحاث العلمية لكبار الفقهاء والباحثين، كما عمل علىٰ نشر تراث الأعلام الراحلين في الملاحق التي تصدر عنها مثل: الشيخ شلتوت وعبد الحليم محمود وعبد الرحمن تاج وعباس محمود العقاد والشيخ الندوي ومصطفىٰ عبد الرازق، ومحمد فريد وجدي وكان يقدم لهذه المختارات بدراسات وافية عن هؤلاء الأعلام، واستمر في هذا العمل حتىٰ آخر حياته، وقد كانت افتتاحيات مجلة الأزهر تشهد علىٰ أن البيومي كان مدرسة أدبية متميزة، فقلمه يمتاز بسمات فنية عديدة نذكر منها جودة وعرض المادة العلمية وعمق الفكرة وجدة الموضوعات والإبداع والتميز في تناول المشكلات وحلولها.

ناقش وأشرف علىٰ مئات الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراه، وتتلمذ علىٰ يديه عشرات الآلاف من الطلاب في مصر والبلاد العربية، وترك تراثًا علميًا في مختلف المجلات والدوريات العلمية في حاجة لجمعه ودراسته في أعمال كاملة حتىٰ يستفيد منها طلاب الدراسات الأدبية والنقدية والدراسات الإسلامية، وذلك إضافة إلىٰ كتبه في دور النشر واشترك في مؤتمرات علمية في عواصم مختلفة بالدول العربية.

وقد لاقىٰ الدكتور العديد من صور التكريم فحصل علىٰ العديد من الجوائز من مجمع اللغة العربية ولعل هو الباحث الوحيد الذي حصل علىٰ جائزة مجمع اللغة العربية أربع مرات عن أبحاث قدمها وفازت بالمركز الأول، كما حصل علىٰ جوائز أخرىٰ من وزارة التربية والتعليم ومن الأزهر ومن السعودية وغيرها.

أحمد شلبي... المؤرخ الموسوعي

يعد الأستاذ الدكتور أحمد شلبي من أعظم مؤرخي مصر في القرن العشرين، لما له من أيادٍ بيضاء علىٰ هذا الفن، أثرىٰ المكتبة العربية بالمؤلفات القيمة، التي استفاد منها الخاصة والعامة علىٰ السواء ، منها ما هو موسوعي، ومنها كتب مبسطة، والتي واءمت كل الأذواق الثقافية، من أشهر مؤلفاته علىٰ الإطلاق موسوعته الشهيرة في التاريخ الإسلامي في عشرة مجلدات كبيره، تناولت كل العصور الإسلامية منذ بزوغ شمس الإسلام وحتىٰ وقتنا الحاضر، تميزت بكثرة مصادرها القوية الشرقية، والغربية، واستكمل المسيرة بموسوعة أخرىٰ عن الحضارة الإسلامية في عشرة مجلدات أخرىٰ، ثم استكمل مشروعه الموسوعي فكتب موسوعة الأديان في أربعة مجلدات، والمكتبة الإسلامية لكل الأعمار في مائة جزء، بالإضافة إلىٰ المؤلفات الأخرىٰ التي طوّفت بكل مجال من مجالات الفكر الإسلامي.

ولد أحمد شلبي بقرية (عليم) مركز "أبو حماد" بالشرقية عام 1915م، التحق بكتاب القرية، وحفظ القران الكريم، وأتقن تجويده، ثم التحق بالأزهر الشريف في معهد الزقازيق الديني، يزامل فيه كوكبة صاروا نجومًا فيما بعد منهم محمد متولي الشعراوي، وأحمد هيكل، ومحمد عبد المنعم خفاجي، ومحمد فهمي عبد اللطيف، وتعلم العلوم الدينية وقسطًا من العلوم المدنية كـ:الجبر، والكيمياء، والطبيعة، والجغرافيا.

التحق بكلية دار العلوم التي تمنىٰ التعلم بها بعدما قرأ قول الإمام محمد عبده فيها: (تموت اللغة العربية في كل مكان، وتحيا في دار العلوم)، تعلم فيها علوم العربية، والأدب، والنقد، والتاريخ الإسلامي، واللغات الشرقية، أتقن هذه العلوم، وتخرج من الكلية عام 1943م بامتياز وكان الأول علىٰ أقرانه.

ذهب في بعثة لإنجلترا في (جامعة كامبردج) ليتخصص في التاريخ الإسلامي،

والدراسات الإسلامية وعرف اتجاهات المستشرقين حول التاريخ الإسلامي وفلسفة التاريخ، وحصل علىٰ الدكتوراه بإشراف المستشرق الإنجليزي الكبير "آرثر أربرىٰ".

عاد من البعثة وعين مدرسًا للتاريخ الإسلامي بدار العلوم 1951م، وعندما قامت الثورة في يوليو عام1952م أخذ موقفًا معاديًا منها، وطالب القادة الجدد بتفعيل الديمقراطية، وعودة العسكريين إلىٰ ثكناتهم العسكرية بعد تنفيذ مهمتهم، وهي القضاء علىٰ الفساد وقد ندد بمساوئ الثورة، ويظهر هذا جليًّا عندما أرّخ لها فيما بعد في المجلد التاسع من موسوعته الشهيرة، وطُرد من الجامعة مع مَن طُرد من كبار الأساتذة مثل:عبد العظيم أنيس، ولويس عوض، وغيرهم.

بعدها عين في منظمة المؤتمر الإسلامي التي كان يرأسها القائمقام أنور السادات، واحتك به وعرفه عن قرب وعندما أرّخ لعصره فيما بعد لم يتحامل عليه مثلما تحامل علىٰ العصر الناصري، ثم سافر إلىٰ إندونيسيا ليساعد في إنشاء الجامعة الإسلامية هناك، وبعدما إلىٰ مصر عين أستاذًا ورئيسًا لقسم التاريخ والحضارة بدار العلوم، وكان عضوًا بالعديد من الهيئات والمؤسسات: كالمجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، والمجلس الأعلىٰ للثقافة، ومنظمة اليونسكو.

عرف الدكتور شلبي قدر أهمية وسائل الإعلام المسموعة، والمرئية في تعريف أكبر قطاع من الناس بتاريخ الإسلام وحضارته، من الدائرة الأكاديمية العنيفة إلىٰ أكبر نطاق ممكن لهذا الهدف، وبذلك يوصف أنه تمكن من الانتقال بتاريخ الإسلام من الدائرة الأكاديمية إلىٰ أكبر نطاق ممكن من خلال وسائل الإعلام، التي تتوفر للجميع، ناهيك عن التأليف لكافة الأعمار في بعض السلاسل من الكتب التي أعدها وبذلك تمكن من إبلاغ رسالته إلىٰ قطاعات كبيرة تفوقت علىٰ النشاط الجامعي المحدود.

يرجع الفضل للدكتور شلبي في إماطة اللثام عن بعض العصور التاريخية، ومنها العصر الأموي، والدفاع عنه، وأرّخ لها في المجلد الثاني من "موسوعة التاريخ الإسلامي" ساردًا تاريخه السياسي، والاجتماعي، والثقافي، مترجمًا لأعلام هذا

العصر مثل: الخليفة معاوية، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك، ويكيفها فخرًا ومجدًا أنها حافظت علىٰ وحدة الدولة، وقوتها من أواسط آسيا وحتىٰ الحدود الجنوبية لفرنسا، تمجّد العربية وحضارتها، وتدافع عن الإسلام ضد الخارجين والشعوبيين والعدو المتربص علىٰ الأطراف يتحين الفرص للانقضاض عليها، وإن كان لها من أخطاء لا تصمد أمام إنجازاتها الكبرىٰ، وكذلك أرّخ لكل الدول الإسلامية منذ دخولها في الإسلام وحتىٰ الوقت الحاضر، في: آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، وذلك في المجلد السادس، والسابع، والثامن من الموسوعة حينما تكلم عن الدول الإسلامية غير العربية في هذه القارات.

ومما يحمد للدكتور شلبي، دفاعه المستميت عن دور الحضارة الإسلامية، والفكر الإسلامي في تنوير البشرية واهتمامه بما قدمه العلماء المسلمون في كل المجالات، في العلوم التجريبية: كالطب، والرياضة، والفلك، والكيمياء، والطبيعة، مستفيدين من تجارب مَن سبقوهم من الحضارات السابقة عليهم، والإضافات الهائلة التي قدموها وعناصر هذه في الاعتماد الوحدانية المطلقة، والأخلاق الإسلامية الرفيعة، والشورىٰ في المجال السياسي، والعدالة، والتربية، والتعليم، وحقوق المرأة، وتنظيم العلاقات الدولية، وعلىٰ هذا فإن الحضارة الإسلامية قد طرقت كل المجالات الدنيوية التي يحتاج إليها الإنسان.

وفي عصر الدكتور شلبي، وجد من يقول بأن الإسلام يعادي الفنون اعتمادًا علىٰ آراء وافدة أضرت بالثقافة العريقة التي تحياها مصر منذ آلاف السنين، فوقف يفند هذه الآراء المغالطة، وأثبت أن الإسلام لم يحرم الشعر، وإنما هاجم القرآن الغاوين الذين يخوضون في المدح، والهجاء، طلبًا للمال وعدوانًا علىٰ الناس، ولكن هناك أغراضًا أخرىٰ للشعر مدحها الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، وتشجيعه لشعراء اتخذهم لدعم الدعوة ومنهم: حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكذلك تناول موضوعًا تثار حوله الآراء من آن لآخر، وهو مدىٰ مشروعية الموسيقىٰ والغناء، الذي قال فيهما قول الحسم، وهما في حد ذاتهما شيئًا مباحًا فالموسيقىٰ تندب لإثارة حماسة الجند والزحف للحرب، وفي أوقات السرور كالعيد، والعرس، والولائم،

وتحرم إذا علقت بها أشياء تثير الغرائز، واستدل بأن الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ) خصص بابًا في كتابه الأشهر (إحياء علوم الدين) أسماه "آداب السماع".

أحمد شلبي ومقارنة الأديان:

ولج الدكتور أحمد شلبي مجال علم مقارنة الأديان مبكرًا عندما عاد من بعثته في بريطانيا ولعل دافعه ما لقيه في الغرب من مساهمات في هذا المجال أغلبها تنتهي إلى نتائج فاسدة؛ لأن القوم رزقوا الضغينة والكره والافتراء على الرسالة الخاتمة، وقد أثبت أن المسلمين هم الذين ابتكروا علم مقارنة الأديان، ولم يظهر هذا العلم قبل الإسلام؛ لأن الأديان قبل الإسلام لم يعترف أي منهما بالأديان الأخرى وكان كل دين يعد ما سواه من الأديان والأفكار هرطقة وضلالًا وحسبك أن تتذكر موقف اليهودية من المسيحية وبالتالي موقف المسيحية من اليهود واليهودية، فاليهودية لم تعترف بالمسيحية ولا بالمسيح الذي اعتبر عندهم ثائرًا فاستحق الإعدام، كما كان لا يسمح في العصور الوسطى بتعدد الأديان في قطر واحد أو مملكة واحدة، الأمر الذي شجعه الإسلام بتسامحه وقبوله للآخر، واستشهد من القرآن والسنة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية تحض على مقارنة الأديان.

وعندما بدأ عصر تدوين العلوم الإسلامية والكونية كان علم مقارنة الأديان مع هذه العلوم التي تم تدوينها وبدأ التأليف فيها ومن المشاهير الذين كتبوا في مقارنة الأديان النوبختي (ت202هـ) ويعتبر كتابه "الآراء والديانات" أول كتاب في هذا المجال وبعده المسعودي (ت346هـ) ، وله كتابان عن الديانات، ثم جاء المسبحي (420هـ) في كتابه "درك البغية في وصف الأديان والعبادات" وهو كتاب مطول يقع في ثلاثة آلاف ورقة ثم كثر التأليف في هذا المجال منها كتاب "الملل والنحل" لأبي منصور البغدادي (ت429هـ) وكتاب "الفصل في الملل والنحل والأهواء" لابن حزم (ت456هـ) وكتاب الملل والنحل للشهرستاني (ت548هـ) وكتاب " تحقيق ما للهند من مقولة في العقل، أو مرذولة" لأبي الريحانت البيروني وهو خاص بأديان الهند، وقد خفت ذكر هذا العلم وهذا راجع عند شلبي لأمور: أولها: ازدحام قصور الخلفاء وقت الضعف بزوجات من أهل الكتاب، وبعدد من الأطباء والوزراء من غير

المسلمين، وبسبب نفوذ هؤلاء ضعف صوت مقارنة الأديان الذي كان يطعن في عقائدهم المنحرفة، وبسبب نفوذ هؤلاء سكت المتحدثون في هذا المجال. وثانيها: زحف الصليبيين على الشرق الإسلامي بقصد تدمير الإسلام والمسلمين، وقابل المسلمون القوة بالقوة، وكان من الواضح أن الصليبيين لا يعرفون التسامح الديني ولا الجدال بالحسنى، فخفت صوت هذه المجادلة تحت صليل السيوف وثالثًا: وقت الضعف ألم بالمسلمين فترات من التعصب وضيق الأفق ورابعًا: أن بعض المسلمين تبنوا منهجًا غير المسلمين في عدم جدوى هذا العلم، وقد انتقل هذا العلم بعد ذلك إلى الغرب، ثم عاد بقوة إلى الساحة الإسلامية في العقود الأخيرة وازدهر في المؤسسات العلمية والدينية والجامعات.

تتنوع المناهج العلمية في دراسة الأديان عند المسلمين المتقدمين والمعاصرين؛ ومنهم من نهج المنهج التاريخي، ومنهم من نهج المنهج الظاهراتي، ومنهم من نهج المنهج التحليلي، ومنهم من نهج المنهج الجدلي، ومنهم من نهج منهج المقارنة، ومنهم من جمع بين المنهجين مثل المنهج التاريخي التحليلي، والمنهج التاريخي النقدي، والمنهج التحليلي النقدي وهكذا. فيمكن أن يتساءل أحد؛ هل مناهج المعاصرين في دراسة الأديان خير من مناهج المتقدمين؟ وهل تتصف مناهج المتقدمين بالموضوعية كما اهتم بها المعاصرون؟ وهل هناك أفضل المناهج في دراسة الأديان؟ وسيتم الجواب على هذه الأسئلة- إن شاء الله- بالمقارنة بين مناهج علمائنا المتقدمين والمعاصرين في دراسة الأديان.

قد نهج أحمد شلبي المنهج الوصفي والتاريخي والنقد الموضوعي حتى قال بأن سبب تمسكه بهذه المناهج الثلاثة؛ لأنه أراد أن يدرس دراسة موضوعية في هذا الكتاب بل في كتبه الأخرى في مجال مقارنة الأديان، حيث صرح في مقدمته للكتاب في الطبعة الأولى:

"ورحت في البحث العلمي لم تتدخل العاطفة فيه؛ أقرأ، وأستوعب، وأناقش، وأقارن، وأخطط، وأعرض...ولكن النظرة الفاحصة تدرك مدى الصعوبة التي يلاقيها الباحث المنصف عن اليهودية، فاليهود كتبوا عن دينهم وتاريخهم أعدادًا

ضخمة من المراجع والكتب صوروا فيها تاريخهم بأنه تاريخ البشرية، وحضارتهم بأنها منبع الحضارة، وعقيدتهم بأنها أسمىٰ العقائد، وهاجموا تاريخ وأديان من سواهم، وشوهوا صور أبطال العالم غير اليهود، وكان لا بد أن نحق الحق بين هذه الموجة الصاخبة من المراجع لنأخذ منها الرأي المنصف والفكرة العادلة دون تأثير بميل أو هوىٰ".

وقد اثمرت جهود الدكتور شلبي- التي استمرت 12 عامًا قرأ فيها كل المراجع والمصادر والوثائق التي تخص هذا المجال- عن أربعة كتب عن الأديان الثلاثة" الإسلام واليهودية والمسيحية" ثم أعقبها بمجلد رابع عن أديان الهند الكبرىٰ: الهندوسية والجينية والبوذية. وهي مؤلفات رائدة، أثرت هذا العلم وسهلت الطريق علىٰ الباحثين الذين جاءوا بعده.

هذا قليل من كثير في سيرة العالم الجليل أحمد شلبي الذي رحل في 20 أغسطس عام2000م ويستحق منا الذكر والتبجيل.

الدكتور إبراهيم عوض بين الأدب والفكر الإسلامي

عرفت الدكتور إبراهيم عوض منذ سنوات، وحاولت الاتصال به ونجحت في هذا بفضل أخي الحبيب الكاتب الصحفي محمود حلمي القاعود، وتكررت الزيارات المتعددة له بالإضافة إلىٰ اتصالي الشبه يومي به.. نتجاذب أطراف الحديث عن قضايا شتىٰ، وتتدفق الإجابات منه عبر الأثير، وأحس بالدفء معه من حديثه الجامع المانع لكل القضايا الأدبية واللغوية والتاريخية والفكرية والإسلامية. هو شخصية تسلب اللب والقلب معًا، يذكرك بالعظماء لأنه أحدهم في تواضعه الجم وكرمه اللانهائي، نتناول بعض جوانبه الفكرية في السطور التالية؛ لأنه يستحق الدراسات التي تستغرق المجلدات، حيث لا يمكن أن تصل لشاطئه الآخر أبدًا من غزارة إنتاجه الذي لا يتوقف. فكل يوم يدلي بالجديد المبتكر، فهو يرهق الباحثين عن المعرفة من الجري وراء إنتاجه الجديد، وهو في هذا ينضم إلىٰ قافلة المفكرين الموسوعيين في أدبنا القديم، وعلىٰ رأسهم: الإمام جلال الدين السيوطي، وابن فضل الله العمري، والمقريزي، والنويري، وابن حجر العسقلاني، والمحدثين منهم: عباس محمود العقاد، وأنور الجندي، وأحمد شلبي، وعبد الرحمن بدوي، وغيرهم.

تعددت نشاطاته بين الدرس الأدبي بحكم تخصصه الرفيع كأستاذ للدراسات الأدبية والنقد في كلية الآداب جامعة عين شمس؛ حيث جاءت مؤلفاته نصفها في النقد ونصفها الآخر في الدراسات الإسلامية، وهذا ليس بمستغرب لديه، فمنذ أن أمسك بالقلم وهو موزع النشاط في هذه المجالات بحكم دراساته الأولىٰ في الأزهر الشريف حتىٰ المرحلة الثانوية، وحفظ القرآن في طفولته، ودرس الفقه، والتفسير، والتاريخ، والسير واالتاريخ والعلوم اللغوية علىٰ الطريقة الأزهرية القديمة التي كانت تخرج علماء فطاحل، كانوا الحصن الحصين للإسلام، أما اليوم فقد تغير الحال بفعل القوانين التي ألجمت الأزهر وصرفته عن دوره الحقيقي في نشر العلم والثقافة الإسلامية، وعندما سئل عن ذلك قال:" كما إنني خريج قسم اللغة العربية (من آداب القاهرة)، وأقسام اللغة العربية تدرس الإسلام شريعة وتفسيرًا وحديثًا وتاريخًا. أي

أنني إذا كنت أكتب في الدراسات الإسلامية فليس هذا بالمستغرب. أليس كذلك؟ وعلىٰ هذا فلو ذهبت تعد كتبي لوجدت نصفها تقريبًا في الأدب والنقد، ونصفها الآخر في الإسلاميات. زد علىٰ ذلك أن هناك هجومًا شرسًا ضد الإسلام ازداد في العقود الأخيرة. فإذا لم يتصد واحد مثلي لذلك الهجوم، فمن يفعل؟ كذلك ينبغي التنبه إلىٰ أنه لولا الإسلام ما كانت اللغة العربية قد أتت إلىٰ مصر، ولما تأدب المصريون بأدب العرب واتخذوا من تاريخهم تاريخًا لهم. فما الغرابة إذن في أن أجمع بين الكتابة في الإسلاميات والكتابة في الأدب والنقد العربي؟".

أثرىٰ الدكتور عوض، بعشرات الكتب تنوعت بين النقد، والأدب، والتفسير، والدراسات الإسلامية، والردود فعلىٰ سبيل التمثيل لا الحصر قدَّم في التفسير والدراسات القرآنية: المستشرقون والقرآن- السجع في القرآن - سورة طه.. مصدر القرآن- سورة يوسف- سورة المائدة- القرآن والحديث (مقارنة أسلوبية).

وفي التراجم والنقد وتاريخ الأدب مما قدمه: معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين- المتنبي- لغة المتنبي- المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي- عنترة بن شداد- النابغة الجعدي وشعره- أصول الشعر العربي- مع الجاحظ- المرايا المشوهة- في الشعر الجاهلي- في الشعر الإسلامي والأموي- شعراء عباسيون- فصول من النقد القصصي - نقد القصة في مصر - محمد حسين هيكل - محمد لطفي جمعة -القصاص محمود طاهر لاشين - في الشعر العربي الحديث - أدباء موديرن - دراسات في المسرح - د. محمد مندور.

كما تصدىٰ بعدد من الكتب للذين حاولوا النيل من الإسلام والقرآن والرسول ﷺ، وأغلب هؤلاء- للأسف- من المتأسلمين أعداء الإسلام، ومن هذه الكتب: "وليمة لأعشاب البحر: بين قيم الإسلام وحرية الإبداع"، و"العار: هتك الأستار عن خفايا كتاب: فترة التكون في حياة الصادق الأمين لخليل عبدالكريم"، و"افتراءات الكاتبة البنجلاديشية: تسليمة نسرين علىٰ الإسلام والمسلمين"، و"دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل"، و"ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية"..

وقد ولد الدكتور إبراهيم محمود عوض في قرية "كتامة الغابة" مركز طنطا في محافظة الغربية في 6/ 1/ 1948 حفظ القرآن الكريم في صغره، وهو طفل لم يتعد الثامنة وجوَّده وقرأه بالقراءات المتعددة، ثم ينتسب للأزهر الشريف بالمعهد الأحمدي بمدينة طنطا، وظل به حتىٰ المرحلة الثانوية وحول أوراقه إلىٰ المدرسة الأحمدية الثانوية؛ ليحصل علىٰ شهادة البكالوريا ثم يلتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة، ويتلقىٰ العلم علىٰ أيدي فطاحل العلم في هذه الكلية العريقة منهم: الأستاذ الدكتور شوقي ضيف الذي يعتز بأستاذيته وصداقته بعد ذلك، ومنهم أيضًا الدكتور حسين نصار، وشكري عياد، وعبد الحميد يونس، وعبد العزيز الأهواني، وسهير القلماوي، ومحمد مصطفىٰ حلمي، ويوسف خليف، وغيرهم، ويتخرج بتفوق 1970 ثم يذهب في بعثة إلىٰ بريطانيا، حصل الدكتور إبراهيم عوض علىٰ الدكتوراة من جامعة أوكسفورد سنة 1982 في "النقد القصصي في مصر منذ بداياته في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي إلىٰ ثمانينات القرن الماضي"، وقمت بترجمتها ونشرت عدة مرات.. ذهب إلىٰ هناك مزودًا بمضاد حيوي يحميه من الذوبان في ثقافة الأمم الأخرىٰ، ولكنه يأخذ مما يتفق وثقافتنا العربية الأصيلة، لم نره يخوض في أفكار شاذة كغيره، وإنما استفاد إلىٰ أبعد حد من الآخر لخدمة أمته وثقافته، لا للانتقاص منها علىٰ حساب الثقافة الغربية، وألف في ذلك ما يزيد عن مائتي وخمسين كتابًا في كل العلوم العربية والإسلامية،.

معارك أدبية وقضايا إسلامية:

وقد خاض الدكتور إبراهيم عوض معارك فكرية مع رموز العلمانية والتغريب في عصره منهم الدكتور محمد علي مراد، الذي زعم بأن ابن هشام كان عميلًا للدولة ولون سيرته باللون السياسي للدولة، فكتب كتابه المسمىٰ: "إبطال القنبلة النووية الملقاة علىٰ السيرة النبوية"، وهو عنوانٌ مستوحًىٰ مما قاله الدكتور مراد نفسه حين وصف له رسالته هذه في خطاب منه إليه بأنها سوف يكون لها عند نشرها علىٰ الجمهور وقع القنبلة النووية، فأراد أن يقول له إن كتابه هذا هو بمثابة نزع الفتيل من تلك القنبلة قبل انفجارها.

كما كانت معركته مع خليل عبد الكريم، الكاتب الشيوعي الذي ابتدع فكرة اليسار الإسلامي في مؤلفات تحمل اسمه (وإن كان الدكتور عوض يشك في أنه هو مؤلفها الحقيقي أو الكامل) تهاجم الإسلام والصحابة والقرآن هجومًا عنيفًا يتسم بالرعونة والسفاهة ومجافاة المنطق والتنكر لحقائق التاريخ، وتنقل عن أعداء الإسلام نقلًا، وتحاول في الوقت ذاته أن تظهر بمظهر اللوذعية فتصدىٰ له الدكتور عوض في كتابه: "اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة علىٰ الله والرسول والصحابة"، وأمسك فيه بأهم ما ينسب لخليل عبد الكريم من كتب ولم أترك كتابًا منها إلا ومسح به الأرض كما نقول في مصر، مبينًا ما فيه من فهاهة وتهجم سافل وجنوح عن المنطق ومجافاة للتاريخ الحق.

كما رد علىٰ سلوىٰ بكر في روايتها "البشموري" فوجد فيها التجني علىٰ التاريخ والحقيقة وهي رواية متهافتة لا يصح صدروها عن قلم مبتدئة في دنيا الأدب اسمها: "البشموري"، فجعلت عصر المأمون كله كتلة من المظالم. فهل يصح اختزال عصر المأمون، وهو من أزهىٰ عصور الازدهار الحضاري في تاريخ العالم، في تلك المظالم التي ركزت عليها الكاتبة بالباطل؟ أين التفتح الثقافي؟ أين الرواج الاقتصادي والنعمة التي كان يعيش فيها الناس بوجه عام؟ لقد انتقل راوي "البشموري" إلىٰ بغداد، بل لقد دخل قصر الخلافة يشتغل مساعدًا لكبير الطباخين، فلم نر من قصر الخلافة إلا مجلسًا للخليفة ترقص فيه امرأة لعوب تثير الشهوات. فهل هذا هو كل ما كان يجري في مجلس المأمون، إن كان مجلس المأمون يعرف الراقصات العاريات أصلًا؟ ألم يكن هناك علماء يتناقشون في حضرته ويشاركهم مداولاتهم الفكرية؟ ألم يكن هناك رجال دولة يستشيرهم الخليفة ويتناول معهم شؤون الأمة وكيفية تدبيرها؟ ألم يكن هناك أصحاب شكاوىٰ يلجأون إليه لإنصافهم؟ أليس إلا الراقصات؟ وعلىٰ نفس الشاكلة نجد الرواية تركز في عصر المعتصم علىٰ العيارين والتذمر والفتن وحدها، وكأن الدولة في عهد ذلك الخليفة العظيم لم تك تحتوي علىٰ أي خير. الحق أنه لو لم يكن له من فضل إلا أنه أدب الروم وغزا بلادهم وجعلهم يتلفتون حولهم في ذعر؛ لكان ذلك حسبه من المجد والفخار والخلود في صحائف التاريخ المنيرة.

كما رد علىٰ شريف الشوباشي، وكيل وزارة الثقافة المصري للشؤون الخارجية، كتابًا عنوانه "لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه"، تناول فيه اللغة العربية الفصحىٰ والكلام الذي يثور في العصر الحديث بين الحين والحين عن صعوبة قواعدها عارضًا الوسائل التي يراها كفيلة بالقضاء علىٰ هذه الشكوىٰ مع الحفاظ علىٰ الفصحىٰ في ذات الوقت حسبما جاء في كلامه وقد تصدىٰ له الدكتور إبراهيم عوض في الندوات واللقاءات التليفزيونية وألف كتابًا في هذا الشأن يرد فيه علىٰ شريف الشوباشي بعنوان"لتحيا اللغة العربية يحيا سيبويه".. رد فيه حجج الشوباشي الواهية.

وقد تتبع الدكتور إبراهيم عوض الأفكار المارقة التي تسيء عمدًا إلىٰ الإسلام وتشهر برسوله وتعاليمه وتناولها بالرد سواء في كتب أو مقالات مشباكية "أي علىٰ شبكة الإنترنت"، وفي هذه الردود تزاحمه الأفكار الكثيفة لديه والتي تنبئ عن موسوعية صاحبها وهو في هذا ينحو منحىٰ العقاد صاحب الردود المفيدة في إسلامياته بالرغم من أن العقاد كان متفرغًا تامًّا لأفكاره وأبحاثه وكتبه ومشروعه الفكري، ولم يكن متزوجًا بالتالي لم يكن يعول أولادًا، ولم يتعرض لأتراح الحياة وتعقيداتها.. أما الدكتور إبراهيم عوض فشغل بالوظيفة والأولاد الذين حصلوا علىٰ الدرجات العليا في الجامعات ويشغلون مواقع مرموقة بها، فرغم هذه الأعباء نراه يكثر من أبحاثه التي اشتهرت وبلغت الآفاق.

وقد وقف الدكتور إبراهيم عوض طويلًا أمام افتراءات المبشرين والمستشرقين وسفرائهم في بلادنا، واطّلع علىٰ أعمال بعضهم، وقرأ مؤلفاتهم في كتبهم الأصلية، فعرف ما يضمر القوم من حقد وبغي علىٰ الإسلام ورسوله؛ لم يتحررون منه حتىٰ اليوم، ويرىٰ الدكتور عوض أن للمستشرقين غير المسلمين تفسيرات ثلاثة لنبوة محمد: أنه كان كذابًا مخادعًا عن سبق إصرار، أو أنه كان واهمًا مخدوعًا يظن أنه نبي علىٰ حين أنه لم يكن كذلك، أو أنه كان مريضًا بمرض عصبي هو السبب في الهلاوس أو الهستيريا التي كان يتخيل معها مشاهدة جبريل وسماعه، بينما الحقيقة أنه لم يكن هناك ما يُرَىٰ ولا ما يُسْمَع، بل لم يكن هناك جبريل أصلًا. إنْ هي إلا

أوهام خيلها له المرض النفسي الذي كان يعاني منه. وقد تناول تلك الشبهات الثلاث وفصّل القول فيها وفي تفنيدها تفصيلًا في كتابه: "مصدر القرآن- دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي".

ورد علىٰ لويس عوض في كتاب بعنوان "الفضيحة" تناول فيه كتابه "مقدمة في فقه اللغة" الذي صدر عن هيئة الكتاب وتم سحبه تحت الضغط الشعبي فتولىٰ نشره ناشرٌ صفيق مثلما ينشر لشذاذ الآفاق في بلادنا، ويعتبر الدكتور عوض أن أمثال لويس عوض وسلامة موسىٰ حينما يكتبان عن شيء يتعلق بالعروبة والإسلام فهما لا يكتبان شيئًا علميًّا ولا له صلة بالعلم من قريب أو من بعيد، كما يعتبر أن كتاب عوض: "مقدمة في فقه اللغة العربية" كله جهل وبهلوانية وتدليس وشغل ثلاث ورقات، وقد رد عليه وبين حقيقته وحقيقة صاحبه.

كما رد علىٰ الدكتور طه حسين في أكثر من دراسة، ويقول عنه إنه صاحب أسلوب له حلاوة العسل، وأنه يجمع بين الثقافة العربية وثقافة الغرب، لكنه قد اختار الميل إلىٰ الغرب بكل كيانه، وهو يعد هذا خيانة. كما أنه أحد من يَتَوَلَّوْن كِبْر ما نراه الآن من التحاق صريح بقوىٰ الغرب التي أتت إلىٰ بلادنا فاحتلتها، وأخذت تتدخل في شؤوننا تريد القضاء علىٰ قرآننا وإسلامنا"

ولم يتوقف الدكتور عوض يومًا عن مجابهة هؤلاء فكال لهم في كتبه، وأبحاثه ومقالاته المطولة علىٰ المشباك، ونذكر منها الكتب التي كنا نود استعراضها لولا ضيق المقام، ونذكر منها: "المستشرقون والقرآن"، و"مصدر القرآن.. دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي"، و"افتراءات الكاتبة البنجلاديشية علىٰ الاسلام والمسلمين.. دراسة نقدية لرواية العار"، و"إبطال القنبلة النووية الملقاة علىٰ السيرة النبوية.. خطاب مفتوح إلىٰ الدكتور محمود علىٰ مراد"، و"دائرة المعارف الاسلامية الاستشراقية.. أضاليل وأباطيل"، و"اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة علىٰ الله ورسوله"، و"لكن محمد لا بواكي له.. الرسول يهان في مصر ونحن تائهون"، "عصمة القرآن وجهالات المبشرين"، و"الفراقان الحق: فضيحة العصر"، و"الرد علىٰ ضلالات زكريا بطرس"، و"الإسلام الديمقراطي

المدني – الشركاء والموارد والاستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام 2003عن الإسلام والمسلمين في أرجاء العالم).

إبراهيم عوض وتفسير القرآن وعلومه:

قام الدكتور إبراهيم عوض بتفسير عددٍ من سور القرآن الكريم وهي سورة المائدة والنساء ومنهجه في التفسير كان يميل إلىٰ الانتفاع من المنهج الأسلوبي في دراساته للقرآن الكريم، وبخاصة في مجال التفرقة بينه وبين الحديث النبوي، والتمييز بين المكي والمدني منه، كما تصدىٰ لأقوال المستشرقين ومزاعمهم وأكاذيبهم، كما ناقش آراء المفسرين المسلمين من غير العرب مثل المودودي، وكذلك عقد مقارنة بين القرآن العهد القديم في الأمور المتناظرة ثم تطرق لقضايا السورة التشريعية مثل حدة الردة وخبر أهل الكتاب كما في سورة المائدة، ونفىٰ ما يزعم الزاعمون من أن هناك آيات وسورًا كانت موجودة فيه ثم أسقطت، مثل آيتي الغرانيق وسورة "النورين"، وقد زعم فريق من الشيعة أن القرآن الكريم قد سقطت منه بعض النصوص التي تتحدث عن حق سيدنا علي رضي الله عنه وذريته في إمامة المسلمين بعد النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ومن هذه النصوص في زعمهم سورتان كاملتان تسميان "الولاية"، و"النورين"، وقد تلقفت طائفة من المستشرقين والمبشرين هذه الورقة وأخذت تلعب بها بغية إثارة الشك في النص القرآني أو علىٰ الأقل بلبلة المسلمين والعمل علىٰ إغاظتهم وإيقافهم موقف المتهم المدافع عن نفسه بما يخلفه ذلك الموقف في نفس صاحبه عادة من إحساس بالحيرة والدونية، ولقد رأىٰ الدكتور عوض أن يدرس إحدىٰ السورتين دراسة علمية في كتاب له بعنوان "سورة النورين" فحلل أسلوب السورة ليرىٰ مدىٰ اقترابه من الأسلوب القرآني أو ابتعاده عنه فثبت له علىٰ نحو قاطع أنها لا تمت للقرآن بأي وشيجة، وأن التزييف فيها والركاكة واضحان تمام الوضوح إلىٰ جانب تناقضاتها وسخف معانيها فمازالت يرد عليها آية آية؛ يكشف عن فساد ألفاظها وتصوراتها.

وله أكثر من كتاب تناول فيه بالدراسة النقدية التحليلية عددًا من الترجمات القرآنية التي قام بها فرنسيون وإنجليز، وأغلبهم من المستشرقين، مبينًا عيوب تلك

الترجمات ومفندًا المزاعم التي ادَّعاها بعض الدارسين الغربيين عن القرآن. كما أنه في الكتب التي درس فيها بعض السور القرآنية كان حريصًا علىٰ أن يرجع إلىٰ ما كتبه المستشرقون والمسلمون غير العرب في ذات الموضوع، بالإضافة إلىٰ أنه يبدأ دائمًا كل دراسة من هذا النوع برصد السمات الأسلوبية التي تؤكد مكية السورة أو مدنيتها، فضلًا عما تنفرد به السورة من خصائص أسلوبية لا تشاركها فيه أية سورة أخرىٰ.. كما ألف كتابين في غاية الأهمية "ميسر التفسير"، و"من الطبري إلىٰ سيد قطب".

وفي النهاية نقول: هذا قليل من كثير عن الدكتور إبراهيم عوض، هذا الرجل الموسوعي الذي يعجز المرء للوصول إلىٰ شاطئه الآخر في محيطه العلمي المتشعب الذي برع في مجالات عدة من المعرفة في العلوم اللغوية، والأدبية، والنقد، والترجمة، والتاريخ، والفكر الإسلامي، والعلوم الإسلامية.